

أ. د. نعمان عبد الرزاق السامرائي



دراسة
في
المعرفة

الثقافة - القيم - المجتمع

أ. د. نعمان عبد الرزاق السامرائي

دار الحكمة
لندن

ⓒ نعمان عبدالرزاق السامرائي ، ١٤١٧هـ

فهرست مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السامرائي ، نعمان عبدالرزاق

دراسة في المعرفة، الثقافة، القيم، المجتمع . - الرياض.

٢٤٨ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم .

ردمك : ٥-٩٠٧-٣١-٩٩٦٠

١- الثقافة العربية ٢- المعرفة

أ - العنـــوان

ديوي ٣٠١،٢١ ١٧/٣٠٦١

رقم الإيداع : ١٧/٣٠٦١

ردمك : ٥-٩٠٧-٣١-٩٩٦٠

* دراسة في المعرفة

* أ. د. نعمان عبد الرزاق السامرائي

* طبعة أولى أيار ٢٠٠٠

* الناشر دار الحكمة – لندن

* ISBN 1 898209 86 3

88 Chalton Street, London, NW 1, 1 HJ
Tel: 0207 / 3834037 Fax: 0207 / 3830116



DAR AL-HIKMA

Publishing and Distribution

88Chalton Street , London NW1 IHJ Tel :0207-3834037 Fax : 0207 -383 0116

الإهـداء...

إلى الرئيس البوسني: علي عزت بيكوفيتش تقديراً لجهاده وصموده، وإلى بعض العرب الذين تحولوا من جهاد الخنادق إلى جهاد الفنادق.

كتب الحسن البصري إلى الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز:

... من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر إلى العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضل، ومن حلم غنم، ومن خاف سلم، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، ومن علم عمل، فإذا زللت فارجع، وإذا ندمت فاقلع، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فأمسك.

راقـــــب....

راقب أفكارك فإنها تتحول إلى كلمات، راقب كلماتك فإنها تصبح أفعالاً، راقب أفعالك فإنها تتحول إلى عادات، راقب عاداتك فإنها تصبح طباعاً، راقب طباعك فإنها ظلال مصيرك.

فرانك أنلو/ القيادة والتغيير
ترجمة بشير الجابري (٢٨)



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد: لقد كتب البحث في أوقات متباعدة وأماكن كذلك، لذا فقد تكررت بعض الأفكار والأمثلة فمعذرة.

وقد أخذت المادة من رافدين اثنين:

الأول: قـراءة عمـرهـا عشرات السنين، تـراوحـت مـا بين الفقـه وأصـولـه، والتفسير والحـديـث، وبين تفسير التـاريـخ ورأسمـال كـارل ماركس، وما بينهما.

كل كتاب وقع في يدي قرأته، وعلقت عليه، ثم نقلت نصوصاً منه، حتى تجمع لدي الألوف من النصوص الموثقة، في شتى فنون المعرفة والثقافة، ولما زادت وكثرت قمت بفهرستها، كي يسهل العودة إليها، وهي اليوم زاد جيد صالح للكتابة والاقتباس، وأنصح كل محب للقراءة أن يفعل ذلك، ولن يكلفه الكثير من الجهد والوقت، والبركة «بالحاسوب» فهو اليوم خير حافظ.

الثاني: أما الرافد الآخر، فأنا مدرس محترف، عرفت التعليم ومارسته منذ أكثر من ثلث قرن، صعدت درجاته واحدة واحدة، ابتداء من التعليم المتوسط، وانتهاء بالدراسات العليا الجامعية، وقد أتيحت لي فرص أشكر الله تعالى عليها، فقد علَّمت المدنيين والعسكريين، وفي الجامعات علَّمت طلبة من مختلف الكليات والتخصصات.

كما عرفت طلبة من جنسيات شتى: من اليابان إلى أمريكا، ومن

جنوب أفريقيا إلى تركيا، وزاملت أساتذة من جنسيات كثيرة، وكل هذا أمدني بحصيلة أحسبها جيدة، وأحمد الله تعالى عليها.

ومن هذين الرافدين استقيت، فكان هذا البحث المتواضع، والذي يدور حول الإنسان ودوره.

وقد آثرت أن أسميه: «دراسة في: المعرفة، الثقافة، القيم، المجتمع»، وهي موضوعات أحبها وأجدها في العقل والقلب دائماً.

إن «الفقيه» في أمتنا كان طبيب مجتمعه، يطب له ويعمل بجد ونشاط وهمة لحل مشكلاته، وحين أصبنا بالشيخوخة وتصلب الشرايين، وسقوط الهمم، راح الفقيه يشتغل ليس في إيجاد الحلول، ولكن في حل عبارة فقيه آخر، فساد نوع من التيبس والتشنج، بحيث صار من التهم الكبرى أن يقال فلان مجتهد، لا يتقيد بمذهب.

ومهمة المثقف ـ في كل مجتمع ـ العمل على حل مشكلاته، ووضع الخطط للنهوض به، فإذا صار المثقف «خواجا» لا تربطه بمجتمعه سوى المكان، أو صار «سمساراً» لثقافة غير ثقافته، ودلالاً لغير حضارته، فإنه يخون أمانة العلم، ويتنازل طواعية عن الريادة في مجتمعه.

الإبل ـ سفينة الصحراء ـ تعشق «الحادي» صاحب الصوت الجميل، وتستجيب لحدوه، وقد تهلك دون أن تشعر، والإنسان أو المجتمع يتجاوب مع «الحادي» الصادق، ويسمع منه ما لا يسمعه من غيره.

وأمتنا اليوم بحاجة إلى «حادٍ» صادق، لا يتكسب بعلمه، ولا يبيع قلمه، ولا يقول ما يسخط ربه، ويرضي عدوه. وتاريخنا يحفل بعدد كبير، بل كبير جدًا من «الحادين» الجادين الصادقين، والأمل أن لا ينقطع هذا المدد أبداً.

كـل مجتمـع إنسـاني يتطلـع إلى إجمـاعين: ثقـافي وسيـاسي، وقـد بقـي الإسلام، عقيدة وشريعة يمدنا بالإجماع الثقافي، ولكن بعد أن غزانا الغرب في عقر دارنا، وحكمنا فترة طويلة افتقدنا الإجماع الثقافي، حيث كان الغرب يضغط بحضارته وقيمه وثقافته علينا، حتى صرنا نشك بكل ما لدينا، ونزهد فيه، بعضنا تخندق ورفض كل ما جاء به السيد المستعمر، وبعضنا قبل كل ما جاء به الاستعمار، وهو يعتقد أن الطريق الوحيد لخلاصنا، أن نتابع الغرب في كل ما جاء به من ثقافة وقيم وحضارة.

وبسبب ما عاناه الغرب من الكنيسة من بطش وجمود وحروب استمرت قروناً طويلة، لذا جاءت ثقافة الغرب وحضارته معادية للوحي وعلومه، وجرى التركيز على الطبيعة ومحاولة السيطرة عليها وتسخيرها، ومرت سنوات اعتقد الغرب أنه سيحل كل مشكلاته عن طريق العلم، حتى شاع في القرن الماضي أن كل مشكلة لا يحلها العلم، فهي قضية ميتافيزيقية، ولذا فهي مشكلة زائفة.

لقد اخترع الغرب ديناً جديداً هو «العلم والتقنية»[1] فمنذ ما يزيد على ثلاثة قرون، والعقل الغربي يتجه بصورة ملحوظة نحو إلغاء أية معرفة لا تصدر عنه، فالعقل الإنساني هو الأصل والوحي هذيان، وبدهي أن ترتكز مقولة الرجحان على السببية الإلهية، على العلم بوصفه أداة هامة يستخدمها العقل، لإثبات غياب الحضور الإلهي عن العالم، وإذ يمارس «العلم والعقل» هذه الهمة تصبح كل الطرق ممهدة أمام «ديانة جديدة»، رمزها الساطع «الآلة» التي أدت إلى خضوع الحياة كلها لمنطق «العلم والتقنية»، وهي تحول الوسائل إلى غايات، فبواسطة العقل تتم الإحاطة بكل المشكلات التي تعترضه، وهو وحده القادر على معالجتها.

---

(١) نحن والصديق اللدود ص (٤٠) للباحث.

ويوماً بعد يوم يكتشف الغرب أنه كان متفائلاً جدًّا، وأن العلم والتقنية إذا حلت مشكلات، فقد صنعت مشكلات أخرى، وما حادث مفاعل «شرنوبل» ببعيد.

إن ثقافتنا تقوم على مرجعية «الوحي»، وعدم تصادمه مع العقل، وإذا اتخذ الغرب من العقل صنماً أكبر كما يقول الفيلسوف نيتشه، وإذا أدار ظهره للوحي وعلومه، فنحن نعتقد بوجود مصدرين اثنين للمعرفة: الوحي والطبيعة، فلا يغني أحدهما عن الآخر، هذا جوهر ثقافتنا، والأساس لكل قناعاتنا، ولن يبقى الإنسان مسلماً إذا رفض الوحي وما جاء به، ولن يكون مثقفاً من يتجاهل الطبيعة وعلوم الحياة.

وقد وجدت أبا حامد الغزالي[1] يقسم العلوم إلى شرعية، وهي ما استفيد من الأنبياء، وغير شرعية، وهي ما أرشد إليها العقل كالطب والرياضيات. ثم يتحدث عن «غير الشرعية» فيصفها بأنها من فروض الكفاية، فإذا خلا منها بلد، سارع إليه الهلاك.

ومن يقتصر علمه على العلوم الدنيوية، دون الشرعية، فعمره يضيع فيما لا ينفعه في الآخرة[2].

أما من يقتصر على علوم الدين وحدها، فلن يفهم من الدين إلا قشوره، دون حقائقه.

فالعلوم الشرعية لا تدرك إلا بالعلوم العقلية، إذ العقلية كالأدوية للصحة، والشرعية كالغذاء[3].

(هذه الأفكار وجدتها منشورة في ثلاثة كتب للغزالي، فتأمل).

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ١٧.

(٢) أيها الولد ص ٢٢.

(٣) ميزان العمل ص ١٢٤.

هذه ثقافتنا، وتلك قناعاتنا، والمطلوب من أبنائنا فهم هذا الأمر جيداً، والكف عن الهرولة خلف الغرب وثقافته، وليكن لنا استقلالنا وهويتنا، ثم لنعمل بكل جد وإخلاص للانفتاح على حضارة اليوم، بشرط عدم المسخ، وعدم الذوبان، والكف عن الرضى بحالة «الزبون»، فأخذ منتجات حضارة ما لن يجعل من الآخذ متحضراً، وإلا فمن لا يأخذ من حضارة اليوم؟

نريد أن نأخذ من ثقافة الغرب وحضارته ونظمه ومعارفه، كل أمر لا يصطدم مع ديننا وثقافتنا وقيمنا، وهي أشياء كثيرة، ولن يستطيع أحد أن يجبرنا على أخذ الكل أو ترك الكل.

وهذا البحث المتواضع هدفه البعيد ذلك، والله الموفق والمعين.

المعرفـــة

الإنسان والمعرفة.
الإنسان والتساؤل.
دراسة واقعة تاريخية.
فهم الاقع وإدراك أبعاده.
قرن ونصف والضباب مازال.
بين المقدمات والنتائج.
النتيجة.
حاجتنا للتخطيط الشامل.
نحن والتطلعات.
الحضارة الغربية والبوصلة.
الإنسان والحضارة والكون.
فهم الإنسان.
ما يعانيه مسلم اليوم.
الإنسان بين الجوهر والمظهر.
العقل والعاطفة.

الإنسان والمعرفة

أستطيع القول بأن الإنسان مخلوق «معرفي»، يحب المعرفة، بل يعشقها منذ صغره، ونعومة أظفاره، ويتضح ذلك بوفرة الأسئلة التي يطرحها الطفل. وألمح في قضية استخلاف آدم، وتقديمه على الملائكة، مصداقاً لذلك فالحق يقول: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾. [البقرة: ٣٠ - ٣٣].

والذي أستشفه من هذا العرض، نوعاً من الربط بين الاستخلاف والقدرة على التعلم، فبفضل هذه «القدرة» المعرفية، ترشح آدم للخلافة، واستبعد الملائكة، مع قدراتهم العبادية والعيب الكبير في آدم، حيث نسب للفساد، وفسر بسفك الدماء، ومع ذلك لم يتعرض الجواب لذلك، فكأن الآيات تقول: إذا كان آدم مفسداً سافكاً للدم، وكنتم لا شغل لكم سوى العبادة، فهناك مزية لآدم، لها علاقة وثيقة بالأرض وعمارتها، والحضارة وتقدمها، تلك هي القابلية للتعلم، حيث ضبط آدم الأسماء وأعادها، وفشلت الملائكة في ذلك، فهذا هو مبرر الاستخلاف ـ كما أفهمه ـ.

فإن صح هذا الفهم، فالإنسان إذن يحقق الهدف الكبير من وجوده، حين يتعلم، ويستفيد مما تعلم، فإن أهمل ذلك صدق فيه قول الإمام علي رضي الله عنه وأرضاه: (الناس بين عالم ومتعلم، ولا خير فيما سواهما).

وقد مضت قرون كانت أمتنا هي الأرقى، والأكثر تقدماً في العالم، وكان على طالب العلم ـ مهما كانت جنسيته ـ أن يتعلم لغتنا كي يتقدم، حتى جأر الرهبان والقسس بالشكوى؛ لأن طالب العلم الغربي صار لا يتعلم إلا لغتنا، ولا يعرف من الكتب سوى كتبنا، ولا من المدارس غير مدارسنا، ثم بدأ العد التنازلي، حتى تفشت الأمية، صار البعض منا يفاخر بأننا أمة أمية. ومن يدري فلعل البعض يباهي بالتخلف أيضاً؟!!

أنا أعلم جيداً أن صاحب الرسالة ـ عليه السلام ـ كان أميًّا، وأنه نقل عنه قوله: «إننا أمة أمية» ولكن هذا ـ في نظري وفهمي ـ وصف للواقع، وليس مدحاً وثناء عليه. فإذا سألني إنسان كيف أنت؟ فقلت: أنا مريض، فهذا وصف لواقع ليس إلا. وكيف نعتز ونباهي بالأمية، وأول آية في كتابنا «اقرأ»؟!! وأين نذهب بقول الحق: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾. [فاطر]. وكيف نفسر طلب صاحب الرسالة من أسرى بدر، أن يعلم الواحد عشرة من أبناء المسلمين، فيكون في ذلك فكاك أسره؟ وأين نذهب بتلك الكثرة الكاثرة من الأحاديث، التي تمجد العلم والعلماء، وتزن مداد العلماء بدماء الشهداء؟ كيف نفسر أقوال الفقهاء بضرورة دفع الزكاة لطالب العلم، وحجبها عن العابد؟ إلى قضايا كثيرة، تصب كلها في تمجيد العلم والعلماء، حتى قيل عنهم: «ورثة الأنبياء».

والذي يبدو لي، أن الأمة في تخلفها، تريد أن تفلسف عجزها وكسلها، فاستذكرت خبر: نحن أمة أميّة.

والقرآن الكريم يطالبنا بالنظر في الكون والاعتبار، والسياحة في الأرض، لنطلع ونعتبر، فبالله ماذا يفهم الأمي من عظمة الكون ونواميس الطبيعة؟ وماذا يفهم من تاريخ العالم وما أصابه؟ وأرجو أن لا يقول إنسان: ماذا يفهم متعلمونا من ذلك كله؟

إن تقصير المهندس في علمه، والطبيب في طبه، لا يجعل من الهندسة علماً لاغياً، ولا من الطب علماً لا نفع فيه، ولكن يلزم فقط ذلك المهندس المقصر، والطبيب الجاهل، ليس إلا.

إن من يتطلع إلى عمارة الأرض، وبناء حضارة، فعليه أن يحذق علوم عصره، وأشدد على ذلك، فإذا أراد تحقيق ذلك، ولكن عن طريق دراسة علوم اليونان وفلسفتهم ومنطقهم، أو علوم العصر العباسي مثلاً، فإنه سيكون مثل حلاق يمارس مهنة طبيب، أو حجام يمارس وظيفة طبيب جراح، أو كحال يشتغل في طب العيون.

الإنسان والتساؤل

على مقدار وعي الإنسان لذاته، والواقع الذي يعيشه، تتشوق نفسه إلى معرفة الواقع بكل أبعاده، علله وأسبابه وتطوراته، وكل هذا من نصيب المتعلم أو بعض المتعلمين في الأدق الأصح.

لذا فمن المفيد النافع، وربما الضروري، أن نشيع بيننا روح التساؤل في تجمعاتنا الثقافية، حين نكتب، وحين نحاضر، وفي أسرنا، والهدف أن نصل إلى قضية القضايا، لماذا كنا في المقدمة، وصرنا في ذيل القافلة؟ ما هي أسباب تقدمنا؟ وما أسباب تقهقرنا وتخلفنا؟ وأسارع لرفض رمي ذلك بالقدر، وأريد ربطه بعالم الأسباب والمسببات، وأجد من النافع والمفيد أن أنقل رأياً جريئاً لشيخ الحنابلة في القرن السادس الهجري، الشيخ الجيلاني، الذي هاله ما كانت تعانيه الأمة، فجمع مجموعة من المشرفين على المدارس، ما بين المغرب وتركيا، وعقد لهم مؤتمرين ثقافيين، الأول في بغداد، والثاني في مكة، في عصر كان الجمل أفضل وأسرع وسيلة مواصلات، ودرس مناهج التعليم، وطرق إعداد المتعلم، ثم كان طلبته، بعد سنوات قادة، وكانوا في الصفوف الأولى لجيوش نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي.

يقول قائد جيوش المحبين ـ وهذا لقبه ـ: أنا أغالب القدر بالقدر، وأدافع قدر الله تعالى بقدره، دون تكاسل أو استسلام. (انظر الفتح الرباني).

إن عدم معرفتنا لسبب ما، لا يعني عدم وجوده، فعلماؤنا يقولون: عدم الشهود لا يستلزم عدم الوجود. لكن ذلك يعني بصراحة

موجعة، عدم نضجنا، وقلة معرفتنا بالأسباب، ليس إلا، وهي بصراحة صارت مؤذية موجعة.

تبدأ قضية «التساؤل» مع الطفل، فهو يحاول جاهداً فهم ما يحيط به، فيطرح الكثير من التساؤلات، وحقه علينا، وواجبنا نحوه، أن نشجعه ونجيبه بموضوعية، بما يستوعبه ويناسب مداركه، فإن لم يكن لدينا جواب، أخبرناه بذلك، ووعدناه بالإجابة الصحيحة في المستقبل، فإذا انتقل إلى مرحلة يصير فيها قادراً على إجراء القياس والموازنة قلنا له: ربما كان السبب كذا أو كذا، ولربما يظهر لنا مستقبلاً أنه كذا أو كذا.

لكن الحاصل في كثير من الأحيان هو كبت التساؤل لدى الطفل، وإضعاف قابلية التساؤل والاستفهام، وفي هذه الحال قد يعمد المتسائل إلى التخيل، فيقع فريسة للأساطير والخرافات المتحركة في مجتمعه.

لقد عايشنا التعليم، وخبرنا مواقف بعض المعلمين، فالكثير يضيق ذرعاً بالأسئلة، وقد يتذرع بطول المنهج، أو اتهام السائل بأنه يحاول إثارة فتنة، أو هو يريد فقط تعجيز المعلم.. إلخ.

إن مما يعيننا على فهم الواقع التاريخي، والتطور الحضاري، أن نجزئه إلى مراحل، بهدف التعرف على العناصر الفاعلة، والتي ساهمت في تشكيل كل مرحلة، كما نقوم برصد الظواهر، التي نعتقد أنها مخالفة لمنهج الله تعالى، الذي يدين به مجتمعنا، وبعد ذلك نحاول معرفة الأسباب التي أدت لولادة تلك الظواهر، بعد هذا نرصد ردود الفعل في المرحلة، ونحاول تعليل أسبابها. وينبغي أن يشمل التشريح للوقائع والظواهر، كافة الأصعدة، السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

بعد هذا يمكن أن نقوم برصد علاقات التفاعل، بين الظواهر المختلفة، ثم دراسة العلاقة ذات الصعيد الواحد، وما يماثله على صعيد آخر.

دراسة واقعة تاريخية

إذا أردنا دراسة ما حدث للخليفة الراشد عثمان، فلنبتدىء أولاً بتتبع الظاهرة منذ خروج ستمائة راكب من مصر، والادعاء بأنهم يتوجهون لأداء العمرة، ثم تحرك وفود مماثلة من العراق، ثم دراسة الحوار الساخن، بينهم وبين الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ واكتشاف أهداف سياسية صرفة من الرحلة، وليس أداء العمرة كما قيل، لقد كان الكل يحمل نقداً سياسيًّا، بعضه مفهوم، والبعض يصعب قبوله، فإذا تحدثوا عن إعطاء بعض أموال الدولة ـ وبسخاء كبير ـ إلى بعض الأقارب، فهذا أمر يمكن فهمه بسهولة، ولكن حين يأتي إنسان من مصر أو العراق، ليحتج بقوة وشدة، لأن الخليفة منع الرعي حول المدينة، فذاك عمل يصعب فهمه، ولو جاء من أهل المدينة لكان مفهوماً.

لقد كان تفنيد الإمام علي لكل ما قالوا جيداً وكافياً، وكان بالإمكان رد الجميع من حيث جاءوا، وينتهي كل شيء، لكن الإمام طرح على الخليفة مناقشة كل «الشبهات» من فوق المنبر، وهذا لا جدوى منه، بل فيه ضرر، وإشاعة لنقد جرى الرد عليه وانتهى.

استجاب الخليفة وراح يناقش القضايا والتهم، ثم أمر الكل بالعودة إلى بلادهم، وهنا نرى بعض الصحابة يطالب بمعاقبة هؤلاء المتنطعة، فيرفض الخليفة ذلك.

توجهت الوفود، بعضها إلى مصر والباقون للعراق، ثم يقبض على مسافر ويفتش، فإذا معه رسالة لوالي مصر، مكتوبة على لسان الخليفة، وموقعة بختمه، تأمر بمعاقبتهم، فيعود الكل للمدينة ـ في حالة هياج ـ

ليطوفوا على كبار الصحابة، ويطلعوهم على الرسالة، ومرة ثانية يقف الخليفة على المنبر ويقسم بأنه لم يكتب ولا أمر بالكتابة ولا يعلم من كتب، فيطالب هؤلاء المهتاجون أن يسلم إليهم (مروان بن الحكم)، فهو المتهم بذلك، ولو استلموه لقتلوه فوراً، ولحدثت بينهم وبين بني أمية حرب أهلية، فإذا رفض الخليفة ذلك ـ إذ لا صفة شرعية تخولهم ـ طالبوا الخليفة بالاستقالة، ولو استجاب لصارت سنة، فكل جماعة صغيرة أم كبيرة، لا يعجبها الخليفة تطالبه بالاستقالة، فإذا رفض قالت: لقد استقال من هو خير منك، لقد استقال عثمان فعليك أن تفعل مثله.

ثم تتابعت الأحداث، وحوصر الخليفة في داره، واستطال الحصار ليصل إلى أربعين يوماً، ثم قرر هؤلاء قتل الخليفة، وحل القضية على هذا الوجه، وبعد قتله قاموا بقتل ولدين له، ونهب بيت المال، وصاروا قوة انقلابية، لذا فقد أدركوا ـ وكلهم من أبناء الصحابة ـ أن ليس بإمكانهم تولي الخلافة، والمدينة تموج بكبار الصحابة، لذا راحوا يعرضون الخلاقة على سعد بن أبي وقاص وطلحة والزبير والإمام علي، والكل يرفضها، فشعروا بالمأزق، ولم يجدوا بدًّا من إسنادها للإمام علي ـ رضي الله عنه ـ.

هذا المسلسل الدامي يحاول البعض ـ قديماً وحديثاً ـ أن يرده إلى شخص يهودي يماني أسلم حديثاً هو «عبدالله بن سبأ»، ولا يكتفون بهذا، بل يجعلون ما حدث من حروب تالية، كلها من تدبيره. وهذا شيء مؤسف، يتجاهل كافة الأسباب، من سياسية واقتصادية واجتماعية، وما حدث في المجتمع الإسلامي من تطور وتبدل، كل ذلك يشطب عليه، ليرد كافة المآسي إلى شخص واحد، يلعب بالأمة كلها، يتآمر لقتل خليفتها، ويزجها في حرب أهلية، إن هذا ليس بقدرة فرد ولا جماعة، ولكنه التهرب من الدراسة الواعية، والقفز فوق الأسباب، وإهمال ليس له مثيل لجملة عوامل، مع كثير من الأخطاء الإدارية، والاكتفاء بنسبة كل ما جرى إلى

رجل واحد.

يقابل هذا التصرف تصرف آخر، إذ تنكر طائفة وجود ابن سبأ أصلاً، وتجعله شخصية أسطورية، لا وجود لها.

لقد أطلت، ولكنه نموذج لسوء التعليل، وعدم فحص الأسباب، ومثل هذا الكثير في حياتنا.

إن العوامل المتعددة تتداخل، لذا علينا أن نتفحص أثر الواقعة السياسية في الاقتصاد، وأثر الواقعة الاقتصادية في الظاهرة الاجتماعية، وأثر كل ذلك في الحالة الثقافية. مع فقه جيد للأسباب والعوامل، التي تؤدي إلى تفاقم المشكلة مثلاً، أو حلها وتسكينها.

ومما ألمسه في حياتنا الجامعية، أن لدينا الكثير من طلبة الدراسات العليا، وهم يبحثون عن موضوعات، لتكون محتوى لرسائلهم، وإلى جانبهم أساتذة يريدون الترقيات، وباحثون في مراكز البحوث، ومؤلفون يشتغلون بالبحث والتأليف، وكل هؤلاء يصبون في حوض واحد، فإذا وضعت مناهج ومخططات واضحة جيدة لهؤلاء، فإن بإمكانهم بحث العديد مما تعانيه مجتمعاتنا، وما تجأر بالشكوى منه.

وكل هذه الجهود وغيرها، ربما استطاعت أن تجيب عن التساؤل الكبير: ما الذي دفع بأمتنا من المقدمة، وجعلها تسير في ذيل القافلة؟

إن المسلم يرى ماضينا مشرقاً مشرفاً، بينما يرى حاضرنا فإذا هو في غاية السوء، فإذا أراد فهم الحاضر والتخطيط للمستقبل، عجز ويئس، فإذا جاءه من يسبون تاريخه، ويرمونه بكل نقص، اضطرب فانكفأ على الماضي والتراث، أو فقد الثقة بنفسه وتراثه وتاريخه، فحار وتمزق.

فهم الواقع وإدراك أبعاده

منذ أواخر العهد العثماني، والفرد المسلم يرى أمته في انحدار مستمر، ومظلة الدولة العثمانية آخذه بالتقلص والتمزق، على حين كان الغرب في أوج شبابه وتطلعاته، كانت كل دولة تبسط خارطة العالم، وتختار من البلاد ما تحب غزوه واستعماره، أرسلت كما يقول «جارودي» المبشر أولاً ليرتاد لها المكان، ويوطد العقيدة، ثم أتبعته بالجيوش الجرارة، وبعد ذلك جاء دور الشركات والنهب والسلب ومازال حتى اليوم. يقول الرئيس الكيني «جوموكنياثا»: جاء المبشر يحمل بيده الإنجيل، وكانت الأرض بيدنا، فلما أخذنا الإنجيل، فقدنا الأرض، فصار الإنجيل في يدنا والأرض في يدهم.

كان الفقر والأمية من نصيب العالم الثالث، مما جعل المسلم ينقطع عن تراثه، فصار الوعي بنفسه، وبما حوله في أضعف حالاته، بل ساد الحياة حيرة وذهول وانبهار، فكيف تقدم العالم الغربي كل هذا التقدم؟ ولماذا تأخرنا كل هذا التأخر؟

التفت الناس للتراث، عساه يمدهم بالجواب، وتمسكوا بالإسلام لرد هجمة الغرب، وسجل بعض النجاح، ولكن صاحب ذلك لون من ألوان التمزق للمشاعر، فمن جهة يجد المسلم حضارة عظيمة في الماضي، يقابل ذلك واقع في غاية البؤس والتخلف والتمزق، وقد صنع هذا جرحاً في نفس المسلم، سوف يتعمق، على قدر اتساع الهوة بين الماضي الزاهر والواقع البائس، وتكاثرت المشكلات وتعاظمت دون أن يوجد الحل المناسب، بل راحت الأقطار الإسلامية تتساقط قطراً قطراً بأيدي الاستعمار، والدول

الإسلامية تعجز عن فعل شيء، ومع الاتصال بالغرب وتوطن الاستعمار، وتحالفه مع الأقليات الدينية والعرقية، صار المسلم مواطناً من الدرجة الثانية أو الرابعة، وتقدمه كل متحالف مع الاستعمار، خادم له، خائن لأمته ودينه ووطنه.

واشتعلت المقاومة في كل مكان، ولكن ميزان القوى كان دوماً لصالح العدو الغازي، ولم يكن لصالح المجاهد الفقير، في الإمكانات والتخطيط، والذي لا يجد المدد المطلوب من أحد، حتى إذا أذن الله فأقلع الاستعمار، وفرح الناس بالاستقلال، وإذا به استقلال اسمي، ينقصه الكثير من المقومات.

وعرفت ساحتنا العريضة بعض الدجالين والحواة، ومن يوالي العدو ويحارب شعبه، ويتحالب مع العدو ضده، وحصلت هزات وهزات، ووضعت آمال في أشخاص، تبين أنهم مجرد «أقزام» لبسوا ملابس الأبطال، لكن قلوبهم قلوب العبيد، جعلوا مجدهم فوق مجد الأمة وكرامتها، ودخلوا في مبارزات لم يستعدوا الاستعداد المناسب لها، فأربكوا الأمة، وساقوها إلى نوع من اليأس القاتل، أو التطرف الهائج.

لكن الشعور بالاستلاب المادي والروحي، والشعور العميق بالعدوان الغربي ثقافة وسياسة وحضارة، يمكن أن يدفع بنا نحو العمل الجاد للخروج من النفق المظلم، وقد جاءت صحوتنا كرد جيد على معاناتنا الطويلة.

بعض أبنائنا يفسر هذه الصحوة المباركة بسبب البؤس والضيق الاقتصادي، لا وألف لا.

إنها الكرامة متى ديست تثأر، وصحوتنا، مثل صحوة آخرين غيرنا، ليست حسابات تاجر، ولكن انتفاضة كريم، طالما أهين، أو استهين به،

داخليًا وخارجيًا، من الصغار ومن الكبار، ومن عجب أن الغرب كان الراصد الأول، ومازال المهتم والمتابع الأول لهذه الصحوة.

إن الصحوة بحمد الله وصلت لكافة بقاع المسلمين، غنيها وفقيرها، كبيرها وصغيرها، ولن يفلح أحد ـ بإذن الله ـ بكبتها أو اغتيالها. إن أمتنا قادرة بعون الله ومدده، على تصويب الأخطاء، وتجاوز العقبات، وسوف تستمد من هدي السماء وعون الله، ما يؤكد المسيرة، ويسدد الخطى ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله مع المحسنين﴾. [العنكبوت: ٦٩].

إن أمة تثق بالله وتستهديه، وتتمسك بشرعه، وتسند ظهرها إلى تجربة كبيرة رائدة، لن تسقط بإذن الله، ولن تضيع في الطريق، ولو كان فيه ألف ذئب وألف ثعلب، ومليون قرد.

قرن ونصف والضباب مازال

يمكن القول بأنه منذ أكثر من قرن ونصف، ونحن نبحث ونتدارس الأمراض التي فتكت وما تزال في مجتمعاتنا، ونحاول تحديد الأساسي منها، ومع ذلك فمازال الضباب يلف هذه الدراسات، بعضنا يركز على العوامل السياسية، وغيره على العوامل الاجتماعية، وثالث على فقدان الديمقراطية، ورابع يرى في العلمانية الدواء السحري، وخامس يدعونا للتغرب قلباً وقالباً، وسادس يدعونا للتصوف.. وهكذا، وربما كانت إحاطة الإنسان بواقعه، أصعب مما يعتقد ويتصور، فالعوامل تتداخل، كما تتداخل الظواهر والجواهر، وهنا لابد من تكوين صورة عقلية، تجتمع فيها المعرفة والقيم الاجتماعية، بعبارة أخرى، وجود منهج ورؤية عقدية وآمال وأهداف.

فالواقع نعرفه عادة، من خلال نظرية نصوغها عنه، ويظهر صدق النظرية من خلال ما تثبته من فاعلية، ومن ضبط وتحكم، فإذا تبين بعد تجربة طويلة، عدم قدرة النظرية على توجيه الواقع، الذي قامت من أجل علاجه، فإن أصحابها ـ قبل غيرهم ـ يتركونها، ليضعوا نظرية جديدة، فإذا درسنا تجربة قرن ونصف لواقعنا، أدركنا أن نظريتنا لم تستحوذ على الواقع، ولا عرفته معرفة دقيقة، ولا وضعت آمالاً مناسبة، والدليل الواضح أن المفكرين من المعسكر الواحد، والتيار الواحد، مازالوا يختلفون في تحديد المشكلات الكبرى، وبيان أسبابها، والعلاقات التفاعلية بينها، فمازلنا نسأل كما سأل الأمير شكيب أرسلان: لماذا تقدم الغرب وتأخرنا؟ ولعل الأدهى والأمر أن الأجوبة مازالت مختلفة ومتباعدة، مشرِّقة ومغرِّبة.

وهنا لابد من سؤال: لماذا حدث ذلك؟

لماذا استطاعت دول كثيرة تخطي واقعها بينما لانزال نراوح؟

لماذا أفلحت مجتمعات في التخلص من التخلف والأمية والهزائم، بينما مانزال نحتفظ بمشكلاتنا ومتاعبنا؟

يمكن أن أعد على رأس ذلك، ضرورة وجود إحصاءات دقيقة، حتى يكون العلاج دقيقاً.

على سبيل المثال: لو سألنا عن الطبقة العاملة، وعن عدد العاطلين؟ لو نسأل رئيس جمعية عن عدد الأعضاء، فتراه يقدر تخميناً، فإذا سألناه عن نسبة الزيادة أو النقصان، لم نجد جواباً شافياً.

والأنكى من ذلك هو عدم الثقة بالإحصائات، فهي غير دقيقة، أو غير نزيهة ولا محايدة.

وحلاً لهذا الإشكال لابد أن تتعدد جهات الإحصاء، وتتعدد المؤسسات، إن اختلاف توجهاتنا الفكرية والعقدية، جعلنا نتصور الواقع، أو مشاكله تصوراً مختلفاً جدًّا، فهذا يعتبر القضية أخلاقية سلوكية، وغيره يردها إلى سلامة المعتقد، وثالث يرد كل ما نعانيه للفقر المزمن، أو للتسلط السياسي وفقدان الشورى وهكذا.

نحن نتهرب أحياناً من الواقع، ونحتمي بالأحلام أو الآمال. ولن نعترف بالواقع ـ كما هو ـ إلا إذا انهارت مقاومتنا له، وفي هذه الحالة تصبح القضية مجرد رضوخ، وليست رؤية منهجية.

هناك مثاليات عالية متعالية، وواقع قائم، والربط بينهما يتطلب منهجاً دقيقاً، ورؤية واضحة، لكن الموجود لدينا، مثالي يعيش آماله وأحلامه، وواقعي يحاصره الواقع، فينسخ أحلامه، ويكبل حركته.

والمطلوب مثالي لا يزيف الواقع، ولا يرسمه كما يشتهي، وواقعي يعرف واقعه، ويعرف المخرج والمهرب منه.

نريد من يمازج بين الواقع والمثال، وفق خطة واضحة، ونظرية صالحة للتطبيق والاختبار.

أعتقد جازماً أن الخطر يكمن في العيش مع المثاليات، دون الالتفات للواقع، فهنا يصير الإنسان غريباً بين أهله، وهناك خطر مماثل في حبس أنفسنا في سجن الواقع، دون تطلع للتغيير والتبديل.

بين المقدمات والنتائج

أشعر أننا نستنتج نتائج «قطعية»، فإذا تفحصناها، وجدناها مبنية على مقدمات، غير مسلّمة وظنية، وقد نؤمن بنتائج لا مقدمات لها، أحياناً نعمد إلى الأمر الخاص فنقوم بتعميمه، أو العكس فنقوم بتحويل العام إلى خاص، وأحياناً نتجاهل بدهيات، وقد صارت الأخطاء من المألوفات، أما الاتعاظ بالتاريخ، وما حدث للأمم، فشبه معدوم، لا يستفيد أحد من تجربة مجتمع آخر، فتتكرر الأخطاء.

أحياناً نريد ثماراً على عجل، دون بذل جهد مناسب، وأحياناً ننتظر انتصاراً لم نقدم له من الوسائل ما يكفي، بل علمنا «البعض» أن نخوض المعارك داخل «ستديو الإذاعة»، فتوالت الهزائم وتعاظمت، حتى صرنا مثالاً للسخرية والاستهزاء في العالم!!

إن معرفتنا بالأفكار والنظريات الكبرى، المنتشرة في العالم سيساعدنا في فهم الواقع، كما أن اطلاعنا على علاج بعض المجتمعات لمشكلاتها، يعيننا على الفهم والحل معاً.

قد يقول إنسان إن العالم لا ينشد الفضائل، ولا يؤمن بالوحي، ولا مكارم الأخلاق، نعم؛ ولكن ليس كل الحلول المطروحة ضد ذلك كله. لقد عرفت اليابان لوناً من التوتر والمظاهرات، عقب الحرب العالمية الثانية، فلما درست المشكلة ردتها إلى النظام التربوي، فلما غيرته استقامت الأمور.

في الولايات المتحدة، حين سبقتها روسيا إلى الفضاء، درست الأسباب، فأعادت النظر بالنظام التربوي والتعليمي، ابتداء من رياض الأطفال إلى الدراسات العليا بالجامعات، فعالجت الأمر بسرعة، وتلافت

هذا السبق.

الصين ذات الألف مليون تطعم شعبها «الرز» ثلاث وجبات يوميًا، ولدينا أراضٍ ومياه ويد عاملة، متعطلة عن العمل، فلماذا لا نستفيد من خبرة الصين مثلاً؟

الهند وعدد نفوسها يزحف نحو «المليار» لديها بضائع زراعية وصناعية تصدرها، فلماذا لا نستفيد من تجربتها؟

نمور آسيا يزحفون نحو التقدم، فلماذا لا نستفيد من تجاربهم؟؟

النتيجة

أريد أن أخلص من كل ما تقدم إلى أمور، آمل أن يشاركني القارىء فيها: فأنا ـ وقد اشتغلت في تفسير التاريخ، وكتبت في التنمية ـ أعتقد بقوة بأن تخلفنا شامل، سواء في فهم المنهج الرباني أو تطبيقه، وتخلف عن ركب الحضارة والتمدن، وتخلف عن فقه التراث، وحسن التعامل معه، وتخلف في حفظ كرامة الإنسان وآدميته. . . إلخ.

فإذا سلمنا بذلك أو بعضه، وعزمنا على التخلص من «الغثائية» التي جاءت على لسان المصطفى ـ عليه السلام ـ فإنه يلزمنا من النهوض أن نخطط تخطيطاً شاملاً، وإلا فإن الحلول الجزئية لن تنفع، وستكون كالرقع ذات الألوان المتعددة، في ثوب واحد.

لقد «رقعنا» حتى مللنا الترقيع، ولولا بعض النجاح في بعض المجتمعات، هنا وهناك لقلنا إن قدرنا أن نسير في ذيل القافلة، أو نراوح في مكاننا.

ولست أدري ولا المعلم يدري كيف يمكن أن نرفع من مستوى فرد مسلم، فكريًا وخلقيًا وتربويًا وحضاريًا، وهو أمي مغرق في أميته، يلفه الفقر وتحاصره المتاعب والمشكلات من كل مكان، عجزنا عن توفير السكن الذي يحفظ الشرف الكرامة، وعن المدرسة التي تعلم الصغار، وعن فرصة كريمة للعمل، تبقي الهامة مرتفعة، وليست راكعة أبداً.

في كثير من بلاد المسلمين نجد الفرد مطالب بالواجبات، لكنه لا حقوق له، يدفع الضرائب لكنه لا يجد الخدمات، يجد التبذير هنا وهناك، والشح على المواطن ومتطلباته.

الذي أعتقده أننا سنعجز عن إيقاظ الحس بالجمال، لأي إنسان يعيش في كوخ حقير، وسط أكوام من القمامة.

وسنعجز بقدر أكبر عن إثارة حمية إنسان، ليذود عن وطن، بينما المجتمع يهمله، والنظام السياسي يبطش به، والطفيليون ينهبون الخيرات، ولا يتركون له غير الفتات.

إن المواطنة أخذ وعطاء، وليس عطاء من جهة، وجحود من طرف. المجتمع حاضن والدولة خادمة وراعية، فإذا تخلى المجتمع عن عطفه وتراحمه، فقد الفرد صلته به، وإذا تحولت الدولة إلى سوط يلهب ظهر المواطن، ويسرق ثروته، فما الذي يربط المواطن بدولته؟

حاجتنا للتخطيط الشامل

تقدم أن طبيعة تخلفنا شاملة، لذا فإن التخطيط ينبغي أن يكون كذلك.

لكن الحاصل أن التنمية والتخطيط كانت في العالم الثالث، لا تتجاوز الجانب الاقتصادي، وإذا ما تعدى ذلك إلى جوانب أخرى، فتذكر باعتبارها من الوسائل، لا من الأهداف، فهل سمعنا عن خطة ـ في العالم الإسلامي ـ تستهدف العمل على رفع مستوى التدين والالتزام به حقيقة، لا مجرد شكل؟ هل جرى محاربة العادات الفاسدة؟ هل جرى تخطيط للإفادة من أوقات الفراغ؟

هل بذلت جهود من أجل رص الصفوف، والتلاحم الاجتماعي؟
هل جرت محاولات مدروسة لإعادة الحياة للوقف؟

إن على من يخطط للنمو الاقتصادي أن يلاحظ أثر ذلك على التربية والأخلاق، وأن نحول دون انقسام المجتمع إلى كتلتين واحدة متخمة مرفهة وأخرى معدمة فقيرة، وأن لا يصير المال سلعة متداولة بأيدٍ قليلة، وأكثرية فقيرة لا ينالها شيء. يقول تعالى: ﴿كي لا يكون دُولة بين الأغنياء منكم﴾. [الحشر: ٧]. وأرتب على هذا: عدم جواز ترك أمر التنمية للاقتصاديين وحدهم، لأنهم سيفكرون بالربح والخسارة فقط.

كذلك ينبغي التحكم بالتعليم ونوعه، فبلادنا تتخم بالتعليم الإنساني النظري، وهي فقيرة بالتعليم الحرفي، ومازالت نظرتنا للحرف يشوبها نوع من «الدونية» وهذا بحاجة إلى تعديل. في بلد مثل العراق، يصنف

الفلاحون أصنافاً ودرجات، فمن يزرع الرز فهو فلاح من الدرجة الأولى، فإذا زرع القمح صار من فلاحي الدرجة الثانية، فإذا زرع الخضار، فهو من الطبقة الثالثة، والكل ينتسب للفلاحة والزراعة.

والمرأة وما أدراك ما المرأة، هناك في الخليج صارت جامعة للمرأة، لأن الشباب يتجهون للجيش والشرطة، فصارت الجامعة للبنات، والمرأة المسلمة الشرقية ربة منزل وسيدة بيت، وهذه اليابان تجري استفتاء حول عمل المرأة، فيقول تسعون بالمئة أن عملها الأول البيت، والاستفتاء تجربة رئاسة الوزراء.

عندنا المسجد ورسالته، فلابد من تناسق بينه وبين التربية والتعليم والإعلام.

وأخيراً فإن النمو السكني لدينا كبير، وفي بعض البلاد كبير جدًّا، البعض منا يعجبه ذلك ويطالب بالمزيد، لكنه ينسى بماذا وصف صاحب الرسالة أمته حين قال: (... **لكنكم يومئذٍ غثاء كغثاء السيل..**) فالسيل متى تحرك ساق معه ما خف، مما لا وزن له ولا قيمة.

واليهود اليوم لا يتجاوز عددهم عشرين مليوناً، ولكن قوتهم لا تقاس بألف مليون، ونحن أمة المليار، ومثلنا الصين والهند، فأين هؤلاء نفوذاً من اليهود؟؟!!

نريد تخطيطاً شاملاً، يعالج كافة جوانب العطب الذي أصاب مجتمعاتنا، كما لا نريد أن يكون الهدف أن نتغرب فقط، وأن يرضى عنا الغرب ليس إلا، فقد أخبرنا الحق بما لا لبس فيه قائلاً: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾. [البقرة: ١٢٠].
المطلوب أن نتعلم كيف نشجع شعبنا ليفعل خيراً لدينه ودنياه.

نحن والتطلعات

ما من أمة إلا ولها تطلعات وتشوفات واستشرافات خاصة، بحسب ما توحي به ثقافتها وقيمها، ومع ذلك فهناك خطوط مشتركة تمليها الفطرة الإنسانية، وحاجات الإنسان الروحية والبدنية وخبراته التاريخية، إلا أن الإنسان محدود في رؤيته، وقد لا يعرف الأسباب التي توصله إلى ما يريد ويحب، ولذا نراه يعمل جاهداً في ميادين شتى، تطلع للمستقبل، ومراجعة للماضي، وقد يغلب جانب الجانب الآخر، فيراوح في الماضي، ويهمل المستقبل، أو يركز على المستقبل ويتناسى الماضي، ويحاول أن يهيل عليه التراب. وهذا الاضطراب مازال عندنا بعد مضي أكثر من قرن ونصف، فلم نحزم أمرنا. فمنا من يعتقد أن في تراثنا كل شيء، ومن يعتقد أنه لا يحوي شيئاً.

بعضنا يريد أن يقلد الغرب ويجري خلفه، فيما ينفع وما لا ينفع، البعض يتخندق.. في الماضي والتراث، فلا يعرف عصره ولا يعيشه.

والذي لا يجهله أحد أن الغرب حضارة وثقافة، يضغط علينا، وعلى غيرنا ضغطاً شديداً، يعاونه في ذلك العلم الواسع، والتخطيط الناجح، والقوة الهائلة. يقول أحد مهندسي هذا الضغط[1] : نريد أن يكون كل العالم سوقاً كبيرة أو «سوبرماركت» فيه كل شيء، ونحن الذين نسيطر عليه.

ويقول: لن نستطيع تأسيس نظام اقتصادي عالمي بلا قوة عسكرية، ويبدو أن هذا هو معنى «النظام الدولي الجديد».

---

(١) د. بنجامين شوارتز، خبير في الاستراتيجية الأمريكية، في معهد السياسة العالمية (نيويورك). مجلة المجلة السعودية العدد ٨٦٢ في ١٠/٤/١٤١٧هـ.

لقد استجابت ثقافات عدة لهذا الضغط، وانحنت له هامات وقامات، ليجد هؤلاء لهم مكاناً على خارطة العصر، ومن أجل أن لا يهمّشوا ويعزلوا.

أما نحن فمازلنا نختلف حول الموقف الواجب اتخاذه من الغرب وحضارته، ونجد أحياناً أن هذا الغرب «مولع» بالإساءة إلينا، أحسنا له أم أسأنا.

فنحن من أكبر الأسواق لبضائعه، ومن أكبر الميادين لتجاربه، ومع ذلك فهو يفضل علينا اليهود، ويقدمهم وينافق لهم، ويغمض العيون عن كل ما يفعلون بنا.

كنا نقاتل معه العثمانيين جنباً إلى جنب على حين كان يضع معاهدة «سايكس بيكو» ليقتسم بلادنا ويستعمرها، وكنا على تحالف تام معه حين قدم أرض فلسطين هدية منه للصهيونية العالمية، ثم راح يمد الدولة العبرية ـ ومايزال ـ بالمال والرجال والسلاح، ويمنع كافة الدول من تملك السلاح النووي إلا إسرائيل.

إنه مولع بشكل غريب بكرهنا والإساءة إلينا، أحسنَّا له أم أسأنا. يدعي الغرب وتلاميذه أنه لا صديق لديه ولا عدو، ولكن له مصالح، وأتساءل: أية مصلحة له في معاداتنا واستذلالنا ونهب خيراتنا، ودفع الأتاوات لعدونا؟

نحن من أكبر الأسواق لبضائعه، ومنها السلاح، ومع ذلك لا يبيعنا إلا إذا وافقت العشيقة «إسرائيل»، وهو ينزع من السلاح ما تريد إسرائيل نزعه.

مدافع «استنكر» المضادة للطائرات، عجزت أية دولة عربية عن الحصول عليها، وهي دفاعية، وسلمت في مرحلة للمقاتلين الأفغان، ليصطادوا الطائرات الروسية، لكنها ممنوعة عنا بأمر إسرائيل. وأخيراً

وليس آخراً، تم ربط الأجهزة الإسرائيلية بأقمار التجسس الأمريكية، ومتى؟؟ خلال مفاوضات السلام!!!

الحضارة الغربية والمنجزات

من الأهداف الكبرى للحضارة الغربية، تحقيق أكبر قدر من السيطرة على الطبيعة، إضافة لتحقيق قدر كبير من المتعة والسعادة، والعناية بالإنسان وحقوقه.

استمدت أصولها من التراث الإغريقي، المختلط بالقيم النصرانية، ثم حدث الانفصال أو الانفصام بين الثقافتين، لعدم تمازجهما، فاستقلت الكنيسة بأمور الإيمان والعبادة، وصار الاقتصاد والسياسة والصحة من مهمات الدولة، وهكذا حل المفكرون والفلاسفة والسياسيون محل الكهنة والقسس.

أخذت الحضارة تتجه بحدة نحو الاعتماد على العلم والعقل، لرسم الأهداف الكبرى والمُثل والقيم بعيداً عن الدين والوحي، حتى رفع شعار: العالم لا يكون متديناً، والمتدين لا يكون عالماً، فألحد العلماء، وراحوا يبشرون بأن الكون ليس فيه سر، وأن العلم قادر على معرفة كافة الأسرار، ولكن ما أن انتهى القرن التاسع عشر، وتصرم النصف الأول من القرن العشرين، حتى تبين أن هذه الأماني عبارة عن سراب.

لقد باهى الإنسان الغربي بأنه حل أكبر المعضلات: حل قضية الجنس بإطلاق الحرية الجنسية، حتى صدم «بالإيدز». فلق الذرة فأطلق أكبر قوة من عقالها، فلما حدث الخراب في مفاعلات «شرنوبل» صدم الغرب، وكتم أنفاسه، إذ تبين له أن هذه المفاعلات تحمل من المخاطر ما لا يتصور.

إن حضارة الغرب التي كانت شابة قوية، أخذت تضربها الأمراض من كل جنس ولون، وراح بعض أبنائها يتوقع لها التفسخ والانحلال ابتداء

من اشبنجلر إلى كولن ولسون.

وقبل البحث فيما طرحته وتطرحه حضارة الغرب، وجدت سيد قطب ـ يرحمه الله ـ يرسم موقفاً من حضارة الغرب فيقول: «لقد غابت أمتنا المسلمة عن الوجود والشهود دهراً طويلاً، تولت فيه قيادة البشرية أمم أخرى، وتصورات وأوضاع أخرى، وقد أبدعت العبقرية الغربية ـ في هذه الفترة ـ رصيداً ضخماً من العلم والثقافة والأنظمة، والإنتاج المادي، وهو رصيد ضخم تقف البشرية على قمته، غير مستعدة للتفريط فيه ولا فيمن يمثله، وخاصة والعالم الإسلامي يكاد يكون عاطلاً من كل هذه الزينة، إن أمتنا لا تملك أن تقدم للبشرية تفوقاً خارقاً في الإبداع المادي، تحنى له الرقاب، ويفرض قيادتها العالمية من هذه الزاوية، فالعبقرية الأوروبية قد سبقتنا في هذا المضمار سبقاً واسعاً، وليس من المنتظر ـ خلال قرون على الأقل ـ التفوق المادي، فلابد من مؤهل آخر، مؤهل تفتقده هذه الحضارة، وهذا لا يعني أن نهمل الإبداع المادي، فمن واجبنا أن نحاول فيه جهدنا، ولكن ليس بوصفه المؤهل الذي نتقدم به قيادة البشرية، في المرحلة الراهنة، وإنما بوصفه ضرورة ذاتية لوجودنا، وكذلك بوصفه واجباً يفرضه علينا التصور الإسلامي، الذي ينوط بالإنسان خلافة الأرض، ويجعلها تحت شروط معينة، عبادة لله تعالى، وتحقيقاً لغاية الوجود الإنساني.

لابد إذن من مؤهل آخر لقيادة البشرية، غير الإبداع المادي، ولن يكون سوى «العقيدة» والمنهج، الذي يسمح للبشرية أن تحتفظ بنتاج عبقريتها المادية، تحت إشراف العقيدة الصحيحة، في تجمع إنساني، أي في مجتمع مسلم»[1] .

نعم هذا ما نملك ونجيد تقديمه.

---

(١) معالم على الطريق ص ٨.

والسؤال: ما هي أهم المنطلقات التي قامت عليها حضارة الغرب، وآمنت بها في تقدمها؟

١ ـ التقدم في النهاية يعني زيادة المنفعة، وتعاظم اللذة، لأكبر عدد ممكن من البشر، وقد أوصل ذلك إلى تزايد قوة الدولة وسلطتها.

٢ ـ مرجعية التقدم هي التقدم ذاته، فهو الغاية والوسيلة في آن واحد، فالمطلوب التقدم بهدف إحراز المزيد من التقدم.

٣ ـ التقدم ليس له مضمون أخلاقي يحدده ويرسم وجهته، بل هو الهدف والوسيلة.

٤ ـ التقدم مطلوب دائماً، ذلك أن إيجابياته أكثر بكثير من سلبياته، ولذا فثمنه معقول مقبول.

٥ ـ شعوب العالم الغربي تمثل التطور بأجلى صوره، وعلى ذلك فهي النموذج لكل طامع في التقدم.

٦ ـ إن الموارد الطبيعية كثيرة ووافرة في الكون، ولن تنفذ ولن يصيبها التلف أو العطب.

٧ ـ عالم المعرفة الإنسانية ينمو ويتراكم بشكل مطرد، وليس لتوسعه واطراده حدود، فكل يوم تشرق فيه الشمس، نكتشف جديداً.

٨ ـ إن عقل الإنسان قادر على معرفة واكتشاف قوانين الطبيعة، ومن ثم السيطرة عليها، وتسخيرها لخدمة الإنسان والتقدم.

٩ ـ إن الكون واسع، وما اكتشف منه هو القليل، وقد تحمل السنوات القادمة اكتشافات كبيرة، يمكن أن تجعل من البحار والفضاء الخارجي مجالاً واسعاً للإنسان.

١٠ ـ الحضارة تسير إلى الإمام في تقدم مطرد، والفكرة قال بها بعض فلاسفة اليومان، كما هندسها «هيفل» في جدليته، وتلقفها الماركسيون من أستاذهم هيفل.

والسؤال: هل صحيح أن الحضارة في تقدم دائم، لا سبيل إلى إيقاف هذا التوجه؟؟

أذكر فقط بأن هناك من يقول بأن الحضارة في نكوص وتراجع، وليس العكس[١].

هذا التوجه يتمحور حول التقدم المادي والنمو والمنفعة، فإذا جرى تطرق إلى الأخلاق، فينظر لها من باب تهيئة الأسباب للنمو المادي، وليس من أجل تحقيق فضائل خلقية.

ومن المعلوم أن هذه المقولات صارت تفتقد حرارة الإيمان بها يوماً بعد يوم، وما أخبار التلوث والأمطار الحمضية، واتساع ثقب الأوزون، وارتفاع حرارة الأرض ببعيد عن ذلك.

إن العالم اليوم ـ مع نهاية القرن العشرين ـ قد تبخرت جل أحلامه السابقة، لقد صار أشد قوة، ولكنه أعظم بؤساً، البطالة اليوم تضرب الغرب، حتى توجعه، والتوترات العرقية وغيرها تضرب المجتمعات في الصميم، وعلى الغرب حضارة وثقافة أن يعيد النظر في «المسلَّمات» التي طالما تغنى بها، ودعا العالم لتبنيها، والإيمان بها.

(١) حاولت مناقشة ذلك في (تفسير التاريخ).

الحضارة الغربية والبوصلة

من يريد الإبحار «الحضاري» فلابد له من «بوصلة» لضبط التوجه، فهل ضيعت حضارة الغرب هذه البوصلة؟ قدمت أن حضارة الغرب طلقت الدين، وهجرت الوحي ومعارفه، واتخذت من العلم والعقل بديلاً.. (منذ[١] بضعة قرون والإنسان الغربي يتجه بقوة نحو إلغاء أي معرفة لا تصدر عن عقل الإنسان، فهو الأصل، أما «الوحي» فلا قيمة له، وقد كان المستند في ذلك «العلم» الذي تستخدم مع فلسفته لطرد الحضور الإلهي. ونتيجة لتضافر العلموية والتقنية، فقد قامت في الغرب ديانة جديدة، رمزها «الآلة» وقد أخضعت الحياة كلها لمنطق العلموية والتقنية، كما تحولت الوسائل إلى غايات، عن طريق العقل تعالج المشكلات، وبواسطة العلم يحل كل عويص، وكل قضية لا يحلها العلم، فهي إذن مشكلة لا هوتية ميتافيزيقية، وهي إذن مشكلة زائفة، لا تستحق البحث).

وعن العقل يعجبني نص لنيتشه يقول[٢] : (صنم الفلاسفة الأكبر هو العقل، آمنوا به وبقدرته على اكتشاف الحقيقة والوجود، وجعلوه الحاكم المطلق، واعتبروا قوانينه قوانين الوجود... ثم فصلوه عن الحياة، وجعلوه فوق الوجود، لا جزءاً منه يعبر عن ناحية من نواحيه العديدة، قال البعض: إن مبادءه متعالية قبلية أي سابقة على التجربة، وعلى مبادئه تقاس محتويات التجربة، وبها وحدها تدرك. وقال البعض: إن العالم جميعه هو في باطنه وداخله، وقال فريق ثالث: إن التطور التاريخي ليس إلا العقل وهو يعرض

---

(١) من كتاب (نحن والصديق اللدود) ص ٦٨ للكاتب.

(٢) المصدر السابق ص ٤١.

نفسه. وهكذا جعلوه إلهاً، ذا سلطة إلهية، وجوهر إلهي..).

أما ما ينتظر الحضارة من هذا الدين الجديد، فهو ما قاله نيتشه في «إرادة القوة» موضحاً مستقبل هذه الحضارة[١] (ما أقصه عليكم الآن هو تاريخ القرنين التاليين، فأنا أصف إذن ما هو آتٍ، وما لا يمكن إلا أن يأتي، وأعني به ظهور «العدمية»، ويمكن أن أقص هذا التاريخ منذ الآن، لأن الضرورة تفرض ذلك، وهذا المستقبل يتحدث عن نفسه في مئات من الدلائل والعلامات، وهذا المصير يعلن عن نفسه في كل مكان، وكل الآذان قد أصبحت مرهفة السمع لموسيقى المستقبل هذه. إن حضارتنا الأوروبية كلها تتحرك منذ وقت طويل في انتظار معذّب ينمو من خمسية إلى أخرى ـ الخمسية تدل على تضحية تكفيرية كانت تقام في روما كل خمس سنوات ـ ويؤدي إلى مأساة قلقة عنيفة لاهثة، إنها نهر يريد الوصول إلى منتهاه، إنها ـ إي الحضارة ـ لم تعد تفكر إطلاقاً، بل هي تخاف من التفكير) اهـ.

هذا كلام ابن حضارة الغرب، وليس حديث غريب موتور، إن أزمة الحضارة الغربية تتجلى في الهروب من البحث في المصير والوجود ومسوغاته، كما تتجلى بالنشاط الكبير للعنصرية والنازية والفاشية، وبالمجموعات الدينية التصوفية الآتية من جنوب شرق آسيا وغيرها.

إن هذه المجموعات تطمح لملء الفراغ الروحي، الذي خلفه بعد الحضارة عن الدين، و العناية بالروح.

إن فشل الحضارة الغربية يتجلى في ميدانين كبيرين: الميدان الاجتماعي والميدان الخلقي.

فعيادات الإجهاض في كل مكان، والبنت تذهب لأخذ الحبوب المانعة للحمل حتى قبل بلوغها، ومع ذلك فالأولاد غير الشرعيين يتزايدون

---

(١) المصدر السابق ص ٣٨.

يوميًا، والاعتداء على الأولاد القصر من الأقارب يزداد، حتى حمل بعض الدول على وضع تلفونات لنجدة الصغار من افتراس الكبار، وزواج الرجل من الرجل صار قانونيًا، وكثر المدمنون للخمور والمخدرات، حتى بين طلبة المدارس الثانوية، فارتفع معدل الجريمة، وكثرت الاعتداءات على الصغار والمسنين، وانتشرت الأمراض النفسية إلى جانب الأمراض البدنية.

وزاد من ذلك شيوع روح الاستهلاك، فكأن الأمر تعويض عن الخواء الروحي، والتفكك الاجتماعي.

إن المجتمعات الغربية مازال ليدها القدرة على الصمود، بفضل العقول الفذة، وما نهبته وماتزال من الشعوب الفقيرة في العالم الثالث، حيث تشتري المواد الخام بأقل الأسعار، ثم تصنعها وتعيد بيعها بأغلى الأثمان.

إن العالم الثالث الفقير هو مفتاح أزمات الغرب الاقتصادية، كما يرى سارتر، وكما يثبت الواقع، إنهم يبيعون علينا من البضائع ما لا نحتاج، ويحجبون ما نحتاج، ولكن إلى متى يستمر الحال كذلك؟؟!!

إن الإنسان الغربي مازال مزهوًا بنفسه وحضارته، وهو يعيب على الآخرين تقصيرهم وعدم تمكنهم من اللحاق به، وهو في ذات الوقت يتجاهل حقائق كبيرة منها أن دول الغرب تشكل ما يقارب عشرة بالمئة من سكان كوكبنا، لكنهم يستهلكون ثمانين بالمئة من المصادر الطبيعية، وعلى العالم ببلايينه أن يعيش ويكتفي بالفضلة المتبقية له وهي في حدود عشرين بالمئة!!! لو فرضنا جدلاً: أن الصين والهند وأندونيسيا، وعدد نفوسهم أكثر من بليوني نسمة، قرروا أن يقلدوا الشعب الأمريكي في طعامه وسكنه، وامتلاك كل شخص لسيارة خاصة به، فماذا سيحصل؟؟ لا شك أن البترول سيقارب ثمنه الذهب، وسيعم التلوث الأرضي، وستنفجر حروب

عالمية لا تبقي ولا تذر.

ومع كل ذلك فالحضارة الغربية ليست شرًّا مطلقاً، ولا خيراً كاملاً هذه واحدة، وأما الأخرى فلن نذهب إلى أننا لسنا بحاجة إلى أن نتعلم من هذه الحضارة، والثالثة أن ما لدينا من مشكلات هي أكثر من الهم على القلب، بعضها أو جلّها من صنع أيدينا، والبعض ورثناه، والبعض «أتحفنا» به الغرب، بحيث ضربتنا أمراض حضارته، قبل أن نتنعم بمنجزاتها، شأننا في هذا شأن جيراننا من الأفارقة، الذين أخذوا عن الغرب الخمور والمخدرات والأيدز، قبل أن يعرفوا شيئاً عن حضارة الغرب.

والسؤال الذي يفرض نفسه، وقد طرحه المستشرق الفرنسي الراحل «جاك بيرك»[1]: هل النموذج الغربي ضروري وحتمي بالنسبة لكافة الشعوب؟ والجواب: لا، ليس بضروري ولا حتمي، بل يؤدي في أحيان كثيرة إلى أنواع من الفشل والقلق والتمرد، وللمؤرخ البريطاني توينبي ذات الرأي، أما الرئيس الأمريكي السابق «جونسون» فله تفصيل جيد في كتابه «نصر بلا حرب» ملخصه أن الحضارة لا يمكن أن تؤخذ باعتبارها أمراً مسلَّماً به، ودوامها لا أحد يضمنه أو يستطيع تأكيده، ومتى اقترفت أخطاء فلا شيء مضمون.

وختاماً فهناك قدر مشترك وكبير بين البشر، وهناك علوم يمكن أن أسميها علوم الحياة كالطب والهندسة والكيمياء والفيزيا والرياضيات، هذه العلوم يستوي فيها مؤمن وكافر، وهناك علوم ومعارف لها خصوصيتها، مثل الأخلاق والسلوك الاجتماعي والمبادىء والأفكار والقيم، هذه تراقب بحذر، ويحسن عدم نقلها من حضارة إلى أخرى، ومن مجتمع إلى آخر مختلف عنه.

---

(١) نحن والصديق اللدود ص ٩٨.

لكن الحاصل أن البعض يريد غلق الأبواب كلها، والثاني لا يرضى بفتح الأبواب، ويريد قلعها ونسف الجدران، حتى نتغرب كليًا، أو نأخذ مفرزات الحضارة حلوها ومرها وزقومها، حتى الجراثيم التي في بطون أهلها.

ونحن بين هذا الانغلاق الكامل، والانفتاح الكامل، مازلنا محتارين نراوح مكاننا، أو نقدم رِجلاً ونتقدم خطوة، لنعود فنتأخر خطوتين، كل من حولنا حزم أمره وتقدم، إلا نحن نراوح مكاننا، والشكوى لله وحده.

الإنسان والحضارة والكون

لدي قناعة بمسلَّمة أطرحها بكلمات: الإنسان سيد الكون، ومهندس الحضارة ومخترعها، ثم هو في الأخير هادمها والباحث عن حضارة جديدة.

أما الكون فقد خلق من أجل الإنسان، ليتفكر فيه، وليصل من المخلوق إلى خالقه، ومن البديع إلى مُبدعه.

والإنسان هو أعظم مخلوقات الله تعالى، وقد منحه العقل والإرادة، وحباه بالأنبياء والرسل والكتب، وهداه إلى طريق الحق والضلال.. ﴿وهديناه النجدين﴾. [البلد: ١٠]. وكانت مهمة الأنبياء والرسل دعوة البشر، لسلوك طريق الهداية الربانية، والتزام المنهج الإلهي.

ومن هنا وجدنا الرسل ـ عليهم السلام ـ يهتمون بالإنسان أولاً، يشتغلون بتربيته وتهذيبه وتعليمه، فإذا اشتغلوا في جوانب أخرى كالمادية والعمرانية والحضارية، فإن هذا الاهتمام يأتي من باب تهيئة الظروف التي تسهل للإنسان القيام بمهامه الكبرى، وليس العكس.

من هنا يبتدىء كل نبي ورسول بإصلاح العقيدة أولاً، فإذا استقام الأمر، جاءت التشريعات بعد ذلك. وهذا خاتم الرسل ـ عليه السلام ـ بقي في مكة يحارب في خندق العقيدة ثلاث عشرة سنة، على حين اكتمل التشريع بأقل من عشر سنوات.

العقيدة مهمتها ضبط الفكر والتصور، أما التشريع فمهمته ضبط السلوك، والتسلسل المنطقي يقوم على تقديم الفكر وتأخير السلوك، وما أجمل هذه الصياغة المنطقية (لفرانك أنك) حيث

يقول[1] : (راقب أفكارك فإنها تتحول إلى كلمات، راقب كلماتك فإنها تصبح أفعالاً، راقب أفعالك فإنها تتحول إلى عادات، راقب عاداتك فإنها تصبح طباعاً، راقب طباعك فإنها ظلال مصيرك).

إن قارىء القرآن الكريم، والسنة المطهرة يلحظ ذلك بوضوح، فإعداد الإنسان الصالح هدف كبير، لا يساويه هدف مادي مهما كبر، وهو بكل تأكيد باكورة العمل الحضاري الناجح، هكذا دخلنا التاريخ، ومن هنا خرجنا.

الرسول ـ عليه السلام ـ يتعهد الإنسان فيربيه تربية كريمة، فإذا رأى شيئاً لا يعجبه، لم يزد على القول: ما بال أقوام يفعلون كذا أو يقولون كذا.

وحين رأى البدوي يبول في المسجد، رفض تأنيبه، واكتفى بطلب دلو ماء يصب عليه، وليبين أن هذا مكان عبادة لا يصلح التبول فيه، وقد ضرب يوماً صحابيًّا، ثم طلب إليه أن يقتص منه، وهذا خليفته الراشد عمر يقول على المنبر: اسمعوا وأطيعوا، فيرد عليه سلمان الفارسي: لا سمع ولا طاعة، قسمت علينا ثياباً قصيرة، وتلبس ثوباً طويلاً، فيضطر الخليفة للاستنجاد بابنه ليشهد له، ولو قالها اليوم إنسان لحاكم من حكام المسلمين، لتدحرج رأسه قبل أن يتم كلامه.

وقد وقف صحابي ليقول لعمر: لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا، فما زاد أن حمد الله تعالى أن جعل في أمة محمد من يقومه بسيفه.

إننا لم نقدم للعالم فيما مضى صناعات أفضل، ولكن قدمنا نماذج إنسانية أرفع، في بداية دخول الجيوش الإسلامية العراق جرت مفاوضات بين القائد الفارسي ونظيره المسلم، فلما تم الاتفاق، قال القائد المسلم: أريد أن أستشير أصحابي، فرد الفارسي: ألست القائد؟ قال: بلى. قال

(١) عن القيادة والتغيير/ بشير الجابري ص ٢٨ دار حافظ.

الفارسي: فنحن لا نشاور أحداً، فأجابه القائد المسلم: ونحن لا نؤمر علينا من لا يشاورنا.

هكذا دخلنا التاريخ، ومن هذا الباب، لم نكن نملك علوم اليونان وفلسفتهم ومنطقهم، ولا تجارب الفرس، ولا حكمة الهند، ولكنا كنا نملك عملة نادرة هي الإنسان المسلم. فلما قارعنا الإمبراطوريات الكبرى هزمناها، وحكمنا العالم، وحين دار الزمن دورته فحكمنا حاكم يقول من قال لنا هكذا ـ إشارة إلى الرفض ـ قلنا له بالسيف هكذا، أي قطعنا رأسه، وحين حكمنا أمثال الحجاج، الذي يتمنى قتل كل عالم يتحدث عن تواضع أبي بكر وعمر وعدلهما، معللاً بأن هؤلاء يهيجون الناس ضد خلفاء بني أمية، ويقول وهو على منبر رسول الله، والله يا أهل الكوفة، لو أمرتكم بالخروج من باب من أبواب المسجد، فخرجتم من غيره لحلت لي دماؤكم. ويقول تلميذ ـ غير نجيب ـ وعسكري فاشل متسيس لشعبه: لقد خلقت فيكم العزة والكرامة، وفي الحقيقة قد سلبهم كل شيء، وأولها العزة والكرامة.

إن الإنسان يفسده أمران: أن نؤلهه برفعه فوق قدره، وجعله فعّالاً لما يريد، أو الخسف به واحتقاره، ومعاملته معاملة الدواب، التي همها العلف وقضاء الوطر.

وكل حضارة تسقط في التأليه أو التحقير، لا يمكن أن تستمر، ويحكم عليها بالموت العاجل.

فهم الإنسان

لقد بذل رجال علم النفس والتربية وعلماء الاجتماع ومازالوا جهوداً كبيرة من أجل فهم الإنسان، ومحاولة التعرف على ردود أفعاله، ويمكن القول إنهم مازالوا في البداية.

إن الإنسان ذلك المخلوق المكرم، المعتز بنفسه، يملك شخصية فذة، هي خليط عجيب معقد، فيه موروثات نفسية وجسمية، وثقافة عامة يكسبها من محيطه وبيئته، وعلم يتلقاه ويكتسبه، وظروف اجتماعية تحيط به وتؤثر على سلوكه ونفسيته، إضافة إلى عوامل أخرى تعمل متشابكة متداخلة، لتقدم شخصية متميزة.

والذي يصعب فهمه، أننا نجد بنين وبنات نشأوا في بيت واحد، بين أبوين، وفي حارة واحدة، وفي ذات المدرسة، وذات الظروف المعاشية، ومع ذلك فلكل شخصية مستقلة لا تشبه الأخرى.

لي صديق له ولدان عاشا في نفس البيت، وتعلما في مدرسة واحدة، الأول تأملي انعزالي، يدخل غرفته يلازمها الساعات الطوال لا يغادرها، وفي يده كتابه يقرأ فيه، ويحاول أبواه إخراجه من هذه العزلة دون جدوى، وإذا وجد فراغاً اشتغل في حل بعض المسائل في الرياضيات، لا يحب الكلام ولا يطيقه. وإلى جانبه أخوه، اجتماعي يحب الناس، يعشق النكتة، يقيم الصداقة خلال جلسة، يحب الزيارات، وهو لا يستطيع الجلوس نصف ساعة في مكان واحد، محب للقراءة والعلوم الاجتماعية، مستعد لتقديم المعونة لمن يعرف ومن لا يعرف، يقنع بالقليل ويرضى عما يقدم له. إنهما شخصيتان لا يجمع بينهما جامع، كل واحدة تنتمي لعالم بعيد عن الآخر،

مع عيشهما تحت سقف واحد، وبين أبوين، وتحت ظروف معاشية واحدة.

الملاحظ أن الذين يدرسون الإنسان، من أصحاب التخصص، يفعلون ذلك من وجهة نظرهم الخاصة، كما فعل العميان حين تحسسوا جسم الفيل، فكل منهم وصف ما وقعت عليه يده، وربما يقول البعض لماذا لا يتعاون هؤلاء وهؤلاء على دراسة واحدة للإنسان، كي يصلوا إلى نتائج واحدة أو متقاربة؟

والجواب: إن ذلك ممكن نظريًا، فإن جرى التطبيق على الواقع فستظهر خلافات وتناقضات لا حصر لها. وهذا هو الذي يجعل بلورة رؤية واحدة لطبيعة الإنسان شبه معدومة، وكذلك علاقاته وحاجاته.

إن علوم الإنسان ما زالت «فرضيات» لم تمحص ولم تصل حد النظريات، ولا الحقائق المقطوع بها، لا فرق في ذلك بين التربية وعلم النفس والاجتماع والطب والفلسفة وحتى الاقتصاد. وقد أصبت في العصب السابع فذهبت للطبيب فوصف لي «الكورتزون» دون أن ينبهني إلى آثاره الجانبية، فارتفع السكر ارتفاعاً مخيفاً، فلما راجعت طبيباً آخر قال: كيف استعملت هذا الدواء، وهذه الكمية الكبيرة، ولمدة طويلة؟؟

إنني لم أعد أصف هذا الدواء لأحد منذ عشر سنوات، ومع ذلك فقد نجوت أنت بأعجوبة، رجعت إلى الطبيب الأول لأخبره بما قال زميله، فهز كتفه، ومط شفتيه وقال: لا تصدق ما سمعت، لو لم تأخذ الكورتزون بهذه الكيمة لما شفيت سريعاً.

وأذكر أني كتبت ذلك في صحيفة، وكان مما قلت: أيها الأطباء أنتم تنتقدون الفقهاء لكثرة خلافاتهم، وهم يعتمدون على نصوص يفهمونها، والفهم يختلف، لكنكم تختلفون في علاج المرض الواحد، اختلاف النقيض مع نقيضه.

المهم: إن المتفحص للعلوم الدارسة للإنسان، يجد نظريات ومعلومات متعارضة متضاربة، الخلاف بينها كثير والتوافق قليل.

والعجب في أمر الإنسان، أن الظروف التي تحيط به وتؤثر عليه، يختلف تأثيرها بين الأخ وأخيه، فيجعل لكل شخصيته تفرداً وعالماً خاصًّا، ويحيطها بالغموض، فإذا حاولت معرفة رد فعل أمام ظرف أو واقعة أو نداء أو كلمة، وجدت الاختلاف، فالكلمة التي تثير حماسة فلان، قد تثير الإحباط لدى أخيه، والواقعة التي تفرح هذا الأخ قد تحزن غيره، بل يحدث هذا مع اختلاف العمر، فما كان يؤمن به الشاب المراهق ويتحمس له، يصير مضحكاً له بعد عشرات السنين، وما كان حاجة أساسية يسيل لها لعاب المراهق، تصير من سخافات الشباب وطيشه.

والإنسان يتساءل: لماذا يفلح الإنسان في كافة ميادين العلم والمعرفة والتقنية، ويفشل في فهم ذاته؟

وفي الإجابة يمكن القول: بأن كل علم ومعرفة له «مرجعية» أي إطار توجيهي، أو لنقل قواعد أساسية تعطيه بعض الخطوط العريضة أو كليات، التي من مهمتها أن تعصم من يأخذ بها من الوقوع في التخبط والتيه، وقد كان كل ذلك متوفراً في «الوحي»، وما جاء به الأنبياء، وآخرهم نبينا عليه السلام، فلما ابتعد الغرب عن الله وهديه، تخبط الإنسان ومازال.

إن الإنسان جسم وعقل وروح وعواطف وأشواق. فإذا اعتنينا بالجسم فقط، حصلنا على مصارع أو ملاكم أو عدَّاء، وإذا اهتممنا بالعقل فقط حصلنا على فلاسفة وعلماء، قد تكون نهاية العالم على أيديهم، فيما يخترعون ويصنعون.

وإذا اهتممنا بالروح فقط فيمكن أن نحصل على جيوش من الرهبان. وإذا اهتممنا بالعواطف والأشواق، فقد نحصل على شعراء وفنانين، فإن

اهتممنا بكل ذلك، وبشكل متوازن، حصلنا على إنسان سليم متوازن، ثم حصلنا على حضارة متوازنة، تخلو من الانحراف.

إن الذي يصعب جحوده، هو ما قام به الغرب من جهود جادة لدراسة الإنسان وفهمه، لكن العلة كانت ـ في نظري ـ متمثلة في فقدان «المرجعية» فالكل يبحث كما يشاء، ليصل إلى ما يشاء وما لا يشاء، وليناقض الكل الكل، وليهدم عالم الاجتماع، ما يقوله عالم النفس وبالعكس.

أما المسلمون ولديهم المرجعية والمقدمات الأساسية في فهم الإنسان، فقد أهملوا ذلك، كما أهملوا الاشتغال بعمارة الأرض، وإقامة الحضارة، مع أن ذلك هو واجبهم بعد عبادة الله تعالى.

وحتى لا نُتَّهم بنكران الجميل، فإن الذين اشتغلوا بعلوم الإنسان، وعلوم الحضارة، كانوا في معظمهم ممن يقتنعون بالمنهج الغربي، ويتولونه ويثقون به تمام الثقة. وهم بذلك من الغرب وإليه، وإن كانوا منا ديناً ولغة ووطنية.

فاليهودي والنصراني والمجوسي حين كان يكتب ويبحث، أيام كانت حضارتنا سائدة، كانوا جزءاً منها، لأنهم كانوا يخدمونها، وهي تخدمهم بما تقدم لهم من وسائل،

وبالمثل يمكنني الادعاء بأن العربي المسلم، الذي يشتغل باحثاً ومخترعاً ومؤلفاً في الغرب، هو جزء من حضارة الغرب، وليس جزءاً منا، لأنه يستعمل المنهج الغربي، والعلم والتقنية الغربية وحتى اللغة، ويعمل ـ وهذا هو الأهم ـ لحل المشكلات التي تواجه المجتمع الغربي، وإن درس مشكلة من مشاكلنا، فيدرسها منهجاً واستثماراً للغرب. لا أقول هذا بهدف اللوم، ولكن تقريراً للواقع، كما يظهر لي على الأقل.

وختاماً نحن نتمسك «بالمرجعية» في فهم الإنسان والتعامل معه، ونريد أن تكون دراساتنا موطرة بذلك، كي نفهم الإنسان المسلم أولاً، ونستطيع النهوض به ثانياً، فإذا تركنا هذه المرجعية، فأي مرجعية نعتمد؟؟

ما يعانيه مسلم اليوم

ما يعانيه ويكابده مسلم اليوم ليس وليد اليوم أو الأمس القريب، وليس وليد عامل واحد، بحيث لو تم العلاج لذهب المرض، فشخصية المسلم اليوم اختلطت فيها عوامل من الماضي القريب والبعيد، مع معطيات من العصر الحديث، بحيث اختلط هذا بذاك، حتى صعب الفصل.

ولعل أكبر ما نعانيه هو العيش على الهامش، ثقافيًا وحضاريًا وتقنيًا وسياسيًا واقتصاديًا، مع وفرة الإمكانات في العدد والعدة.

فاليابان وكوريا ونمور آسيا، لا يملكون ما نملك، ومع ذلك فقد سبقونا وتخطونا!!

هذه «الهامشية» أو التهميش جاء بفعل الآخرين وتقصيرنا في آن واحد، ولعلمي بأن ما أكتبه لا يعجب أطرافاً عدة، بعضهم يبرىء النفس، ويرمي المسؤولية كاملة على الغير، والبعض يبرىء الكل ويرمي المسؤولية كاملة في رقبتنا.

وأجد من المفيد أن أثبت نصًا للدكتور محمد عمارة، يتحدث فيه عن معاناتنا هذه[1] : (إن الغرب بالنسبة لنا لم يعد عاملاً خارجيًا، بل أصبح داخلنا، وثمة ألف سبب وسبب يؤكد هذا، فلو نظرنا مثلاً إلى كثير من النظم الاستبدادية في عالمنا الإسلامي، من أين جاءت؟ إنها صناعة غربية أو هي على الأقل «محروسة» بحراب الغرب، فبماذا نفسر مثلاً أن الغرب قد أزال كل نظم الاستبداد بالعنف، كما فعل مع شاوشيسكو في رومانيا، فإذا صار الأمر إلى العالم الإسلامي، وجدناه حريصاً على عدم سد مثل هذه

(١) نحن والصديق اللدون ص (٨).

الثغرات، فإذا أردنا أن نداوي عيوب الاستبداد بالحرية منعنا، فحين أراد «محمد علي» تجديد شباب الدولة العثمانية، سارع الغرب إلى ضربه، وإذا أراد «أحمد عرابي» سد ثغرة الاستبداد، فلابد من هزيمته، والقضاء عليه.

إن الغرب لم يكن أبداً عاملاً خارجيًا..

قبل الغزو الاستعماري الغربي لنا، شهدت الأمة حركات للتجديد واليقظة الإسلامية، فلو تركت وشأنها لتم حل المشكلات، لكن الغرب كان حريصاً على أن لا يتم ذلك.

وهنا نتساءل: من الذي حرس أمراض دولة «الرجل المريض» كي ينفذ منها؟ ولماذا لم يسمح بتجديد شباب الدولة العثمانية وفق القوانين الداخلية للحركة؟

لقد حلت المشكلة بين العثمانيين والمماليك وفق الصراع الداخلي، لأنه لم يكن هناك تدخل من الغرب.

أما ما يحدث الآن فإن مشكلاتنا الداخلية، لا يترك حلها للقوانين الذاتية التي تحكمها، بل يتدخل الغرب فيها بشكل مباشر، بما يعني أنه أصبح في داخلنا.

من الذي يحرص على أن لا نزرع ما نأكل؟

من الذي يعمل على أن لا تستثمر أموالنا داخل بلادنا؟

من الذي يصنع هذا التفاوت بين أسعار المواد الخام، والمواد المصنعة من هذه الموارد؟

هل هذا من صنعنا؟ وأخيراً من الذي يمنع عنا التسلح حين نكون بحاجة إليه؟ ومن الذي يفرض علينا لنقاتل به بعضنا؟ ومن الذي زرع الكيان الصهيوني بيننا وجعله أقوى من العرب مجتمعين؟ من الذي يجمد منظماتنا الإقليمية؟... عشرات من الأسئلة، تعبر كلها عن معنى واحد،

هو أن الغرب لم يعد هو «الآخر» الخارجي، بل أصبح عنصراً داخليًا، وإن كنا لا نغفل ـ ولا ينبغي ـ عن عيوبنا ونقائصنا الداخلية، ولكن علينا أن نميز بدقة، بين ما هو خارجي عنا، وما هو داخلي فينا) اهـ.

إن الغرب يمتلك المعلومات الكافية عنا، ويمتلك المبادرة، وهو اليوم يملي شروطه علينا وعلى غيرنا، من دول العالم الثالث. يستطيع إثارة النزاع وإخماده، وإشعال فتيل الحرب وإدامته وهو فوق ذلك يصدر لنا أمراض حضارته، ويحملنا على أن نسدد نيابة عنه ما يشاء من أموال وفواتير.

إن حضارة اليوم عقدت حياتنا، وجعلت تكاليف العيش عالية باهظة، والغرب يعلِّم العالم الاستهلاك، ويقتحم الحدود بشركاته الكبرى، وهذا مهندس من مهندسي السياسة الأمريكية يقول بصراحة[1] : «إن بعض الحكومات تحارب البعض، وهناك ملوك ورؤساء يتحاربون يوميًا ويتصالحون، لذا لابد من تقليص قوة الدولة الحديثة، وفتح المجال أمام الشركات العالمية والإقليمية، وذلك لسبب بسيط، وهو أن الشركات تتنافس، لكنها لا تدمر، بينما الحكومات يحارب بعضها بعضاً، وتغزو أراضي غيرها». اهـ.

والجواب: امنعوا الحروب، واتركوا بيع السلاح، ولا حاجة عند ذاك لغزو الشركات، فهل أنتم مستعدون؟

إن المسلم اليوم يحلم بأمرين: أن يبقى أميناً لدينه وعقيدته، ويعيش في انسجام معهما، وأن يعيش عصره، وهذه المعادلة لم يوفق لحلها بعد.

إنه يعيش صراعاً داخليًا قويًا، فإن حاول الاندماج في عصره، شعر بأنه يخون عقيدته، وإن انكفأ على نفسه وعقيدته، عاش خارج عصره، وهنا

(١) مجلة المجلة العدد (٨٦٢).

لابد أن يتهمش.

والمطلوب وضع منهج يجمع أطراف المعادلة، يتمسك بالثوابت الإسلامية، والحقائق الجديدة، ولا يفرط في واحدة منهما، لا يحاول تحويل المتغيرات إلى ثوابت، كما حفلت الكنيسة الكاثوليكية قديماً، ولا يتجاوز الثوابت الإسلامية، كما يفعل العلماني المتغرب، منهج يجمع بين الأصول الإسلامية والحقائق الجديدة، بشكل واع غير متحيز ولا متميع. منهج يقبل من الجديد كل شيء لا يناقض الحقائق الربانية ولا يصادمها، ويتجنب ما سوى ذلك.

الإنسان بين الجوهر والمظهر

هذا عنوان كتاب لعالم الاجتماع الأمريكي «إريك فروم» ترجمة الأستاذ «سعد زهراني» ونشر في سلسلة عالم المعرفة.

عنوان الكتاب بالإنكليزية (TO HAVE OR TO BE) وقد نشر عام ١٩٨٩م، وقرأته أكثر من مرة، ونسخت منه بعض النصوص، وأود هنا أن ألخص منه ومن غيره بعض القضايا ـ التي أحسبها مفيدة ـ في نقاط:

١ ـ يتساوى البشر جميعاً في أمور مثل: الحمل والولادة والموت، فالطفل يولد مجرداً إلا من بعض الموروثات، ومع ذلك فهو إنسان كامل، فمن اعتدى عليه فله حرمة الرجل البالغ الكبير، ذلك أن الإسلام يقوم الناس بعيداً عن الإضافات، فهو إنسان وكفى. يقول تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾. [الإسراء: ٧٠]. لكنه في نفس الوقت لا يرضى للإنسان التبذل والإهمال في المظهر وفي الخبر: إن الله جميل يحب الجمال، فنظفوا أفنيتكم ـ بيوتكم ـ ولا تتشبهوا باليهود.

٢ ـ إن حضارة اليوم أولت المظهر الإنساني العناية الكبرى، لكنها لم تول ذات المقدار لباطنه، فأهملت الأخلاق، وقالت هناك أخلاق خاصة لا تهمنا، وأخرى عامة نهتم بها، والإنسان هو الإنسان، فلا يعقل أن يكون كذاباً ولصًّا ومجرماً في أخلاقه الخاصة، ثم يكون صادقاً عفيفاً مستقيماً في خلقه العام، القضية نظريًّا تبدو سليمة، لكن الواقع يقول لا يمكن أن نقسم الإنسان إنسانين، هذا خاص وذاك عام.

٣ ـ إذا كانت العناية والرعاية للجوهر في مجتمع ما، فالتشريعات تستهدف ترشيد أفعال الإنسان وتنظيفها، أما إذا كانت العناية والرعاية للمظهر، فإن جل الاهتمام ينصب على تنمية الأشياء المحيطة بالإنسان

وتطويرها، ثم تنظيم التبادل فيها. من هنا يمكن القول بأن حضارة اليوم اهتمت بحيازة الأشياء، وكيفية التبادل، كما انشغلت بالحقوق أكثر من الواجبات.

في الجانب الإسلامي انصب الاهتمام على ضبط الحيازة للثروة، مع حسن التصرف بها، والاهتمام بالواجبات، ربما أكثر من الحقوق، فالإنسان ـ في العادة ـ يطالب بحقه وربما قاتل، لكنه يتملص عادة من الواجبات.

٤ ـ إذا أخذنا الإنسان أو البشر من زاوية الجوهر، فهم إخوة أبوهم آدم وأمهم حواء، وإذن فلا تفاضل في الأصل، بل هم سواسية، ويكذب من يدعي أنه من شعب اختاره الله لنفسه، من دون البشر، أو أنه من سلالة أفضل، والتفاضل يكون بحسب المكتسبات، وليس بحسب الأصول، يقول تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾. [الحجرات: ١٣].

لكن متى نظرنا للإنسان من ناحية المظهر والمكتسبات والأموال والألقاب، فالأمر مختلف جدًّا، ينقل عن شيخ الوجودية «سارتر» قوله: إن على هذه الأرض ثلاثة مليارات، نصف مليار من البشر، وملياران ونصف من السكان، وهذا نظير قولنا في بيتنا عشرة من الأحياء، بينهم واحد من البشر.

٥ ـ في مجتمع يعنى بالجوهر، يتقارب الناس، إذ هم من طينة واحدة فإذا كان الاهتمام والسيطرة للمظهر اختلف الأمر، وقوّم الناس بما يملكون، ولأنهم يختلفون في ذلك اختلافاً كبيراً، فهنا تظهر الحواجز العالية، وتتمزق أواصر المجتمع، فيشعر الناس بالوحدة والغربة والخوف والقلق، وهذا ما نجده في المجتمعات الغربية، كما يحتدم الصراع حول المال والجاه والثروة.

٦ ـ عندما يتوجه الناس نحو الجوهر، تسمع في المجتمع الألفاظ المعبرة عن عمل الذات، أنا أعتقد، أنا أكتب، أنا أقول، فإذا كان التوجه للمظهر، يكثر الحديث عن الأشياء مثل: اشتريت سيارة، بنيت داراً، ساهمت في شركة وهكذا.

في مجتمعنا المسلم كان السؤال يوماً: كم تصوم في الشهر؟ وكم تقرأ من القرآن في اليوم؟ وهل تصلي الضحى؟ أما اليوم فالسؤال: من خاط لك الثوب؟ وكم ثمن الحلاقة؟ وما تطبخون اليوم؟ وماذا قدموا لكم من طعام في الوليمة؟ إلى أي بلد كانت رحلتكم؟ وكم عدد نجوم الفندق الذي سكنتموه؟ لي ابن صديق عاد من الغرب، زرته فراح يشكو الغربة، قلت أنت بين أهلك ومعارفك، وفي وطنك وتشكو الغربة، ماذا كنتم تفعلون إذن وأنتم في الغرب؟ صمت الشاب قليلاً وقال: كنت وأهلي في غربة وكربة، وكنا نمني النفس بالعودة للأهل والأقارب، فلما رجعنا، وجدنا أنفسنا غرباء، لا نشارك في حديث، ولا نستمتع بمقولة، ولا نكتة.

قلت: لماذا كل هذا؟ أجاب الشاب: حديث الأهل والأقارب يدور في دائرة مقفلة، فلان تزوج فدفع كذا، وعمل الوليمة في مكان كذا، وكلفه عرسه كذا، وفلان بنى.. فلة.. مساحتها كذا متر، وعدد غرفها كذا، ووضع فيها من الرخام كذا. فلان اشترى سيارة، وفلان باع سيارته القديمة واشترى جديدة بالأقساط، فإذا ابتعدوا عن كل هذا وذاك فالحديث صيفاً عن الحر، وشتاء عن المطر، و«الفكع»[1] ، وكل ذلك لا أستطيع أن أشارك فيه، فهل تعجب لغربتي بين أهلي، وفي بلدي ووطني؟

٧ ـ حين كان الناس يهتمون بالجوهر على حساب المظهر، كان من يملك شيئاً ـ ولو قديماً ـ يحتفظ به ويعتز به، رأيت رجلاً يحتفظ بمسبحة قديمة، وساعة أقدم، قلت: لماذا هذا الغرام بهذه المسبحة وهذه الساعة؟

---

(١) الفكع: هو الكمأة.

أجاب: لقد ورثتهما عن أبي ـ يرحمه الله ـ وهو بدوره ورثها عن جده، ولا نعرف كم عمرهما. ثم قام وأتى بسجادة جيدة من صنع إيراني، تبدو جديدة، سألني كم تقدر عمرها؟ قلت: هي جديدة، قال: عمرها اليوم قرن كامل، ولما استغربت كشف لي عن تاريخ نسجها المثبت عليها. سألته هل تبيعها؟ قال: هذه الأشياء الثلاثة والمكتبة لن تباع في حياتي، حتى لو افتقرت واضططرت لشحاذة الطعام. أما حين يكون التوجه للمظهر، فالإنسان يريد التخلص مما عنده، ليشتري شيئاً جديداً.

الجيل اليوم يغيرون الحاسوب «الكومبيوتر» ثلاث مرات في خمس سنوات، ولو أن آباءهم يطاوعونهم لبدَّلوا كل شيء مرة كل شهر.

إن حضارة اليوم تعلم الناس ذلك، كما يشجع «السوبرماركت» الناس على شراء ما يحتاجون وما لا يحتاجون.

٨ ـ يمكن القول ـ بشيء من التجوز ـ بأن قانون الجوهر العمل، والعمل عطاء، أما قانون المظهر فهو قانون المال، وقانون المال ـ كما يحدده نيتشه ـ إجمع إجمع فذلك هو الشريعة والقانون. والأمة التي لا تجد من يتطوع بشيء أو فعل شيء، أمة بائسة، فقد فقدت ركناً مهمًّا من أركانها ومقوماتها.

وأتذكر الوقف الذي كان يغطي ـ قديماً ـ أكثر حاجاتنا، وأنظر اليوم فلا أرى له ذكراً ولا أثراً، أشعر بفقدان شيء مهم، بل مهم جدًّا للمجتمع والأمة.

العقل والعاطفة

شخصية الإنسان تجمع بين العقل والعاطفة، كما تجمع بين الروح والجسد، والمطلوب لون من ألوان التناسق والتوازن، فلا يعني الإنسان بجسده ويهمل روحه، ولا العكس، كما ينبغي توفر نوع من التوازن بين العقل والعاطفة. مهمة العاطفة في الإنسان أن تجعل الصلة بالأهل والأقارب والمجتمع حميمة، بحيث يتحسس الإنسان آلام الآخرين من حوله، والكوارث التي تنزل بهم، والمصائب التي تصيبهم. أما الجانب العقلي فيؤمن استخلاص العبر وفق الحاضر، والقدرة على التخطيط للمستقبل، وضبط العلاقات ورسمها، مع الصديق والعدو.

وابتداء أقول: إن الناس يتمتعون بقدر من العاطفية والعقلانية، لكن النسبة تختلف، والذي يهمنا ما يظهر من سلوك الإنسان.

فالعاطفة قوية عندنا، ومن هنا ماتزال مجتمعاتنا مرصوصة، لكن أحكامنا تظل متاثرة بعواطفنا، ربما أكثر من خضوعها للعقل والمنطق السليم.

وفي الغرب جفت العواطف، فتقطعت الصلات، فصار الشاب لا يسأل عن أهله، ولا يزورهم إلا في المناسبات، أما كبار السن فهم في أسوأ حال، والاعتداءات والسرقات تتوالى عليهم، وقد يموتون فلا يعلم بهم أحد، لذا راحت الحكومات تطلب إلى الناس تفقد هؤلاء.

والمطلوب هو لون من ألوان التوازن بين العقل والعاطفة، فإذا كان الموقف عاطفيًا فلتظهر العاطفة، كأجلى ما تكون، وإن كان الموقف يتطلب اتخاذ قرار، فلتكن الكلمة للعقل.

وهنا أستذكر أنه طالما قرأنا في السنة أن رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بكى وبكى صحابته، خصوصاً إذا ما ذكرت الآخرة، أو أنه عليه السلام ضحك حتى بدت نواجذه. وحين لحق رسول الله بالرفيق الأعلى، استل عمر سيفه، وهدد كل من يقول بوفاة رسول الله، فلما حضر أبو بكر توجه إل رسول الله وقبله وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، طبت حيًّا وميتاً، ثم سارع فخطب الناس قائلاً بكل قوة وشجاعة: من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله تعالى، فإنه حي لا يموت، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾. [آل عمران: ١٤٤]. إن هذا الموقف العقلاني الشجاع، وضع الأمور في نصابها، وأعاد للكل وضع القضية في مكانها العقلي الواجب. ويمكن القول بأن النضج العقلي شرط أساسي لتملك الإرادة القوية الحرة، وإن الانفعال شرط لتفجير القدرة العالية، والهمة الكبيرة، وكل واحدة من الاثنتين لا تغني عن الأخرى. وإذا كان الغرب يشكو جفاف العواطف، فنحن نشكو زيادتها، والشكوى لله وحده.

الثقافة والهموم

الثقافة وهمومها.
الثقافة والهوية.
قطيعة النخبة.
ضغط الثقافة.
القدر المشترك.
شهادة ولكن.
الدين والعبادة.
نحن والترجمة.
فجوة مستغلة.
اشتعال الحرب الكلامية.
الإنسان مخلوق معرفي.
الشوق لعلوم الوحي.
مع التجربة اليابانية.
ما تعاني منه ثقافتنا.
الثقافة والأهداف.
المتعلم والمثقف.
بينالثقافة والتربية.
الكفل والكرامة.
الطفل والأمن.
الطفل والهوية.
الإنسان بين الفردية والجماعية.

الثقافة وهمومها

من المفارقات الكبرى أنه لا توجد اليوم بلد بلا دولة، ولا شعب بلا ثقافة، فإذا بحثت في تعريف الدولة وجدت ما يقارب (١٥٠) تعريفاً، وإذا تحولت إلى الثقافة وجدت أكثر من (١٦٥) تعريفاً.

ومن حسن الحظ فإنه لا أحد يجهل الدولة ولا الثقافة، كما لا نجد من ينكرهما.

ومع ذلك فهل لكل أمة وشعب ثقافة واحدة؟

الذي نجده في واقع الحياة هو مستويين من الثقافة.

مستوى علوي «نخبة» ومستوى شعبي.

ولعل أبرز سمات الثقافة العليا، أنها لا تكتسب عن طريق المعايشة اليومية، ولا بمجرد الانتماء إلى جماعة، وإنما تتطلب نوعاً من التعليم والتدريب، وذلك من خلال بذل جهد في القراءة والحوار والممارسة. أما الثقافة الشعبية، فيحصل عليها الفرد من خلال حياته اليومية، واختلاطه بأفراد مجتمعه، وكل هذا يحصل بيسر وسهولة.

وإذا كانت الثقافة الشعبية تتم دون وعي، فالثقافة العليا تتم بالوعي، وبذا تمر بنوع من المساءلة، حول أصولها وتكوينها ومنفعتها ومنطقيتها، بعكس الثقافة الشعبية، التي لا تحتاج لكل ذلك. ولعل المثال الأقرب تعلم اللغة الأم، فالإنسان يتعملها بطريقة سهلة لا شعورية، خالية من التدقيق، أو التفكير بالمنفعة، فإذا أراد تعلم لغة جديدة، بحث في الصعوبة والسهولة والجدوى والفائدة، ثم قرر التعلم أو عدمه.

كذلك يلاحظ تعقد الثقافة العليا، لأنها تنبثق عن نظم ومعارف

متنوعة أولاً، ومن حقول مختلفة ثانياً.

الطابع العام للثقافة الشعبية البساطة، لذا يجري تمثلها من الأفراد دون جهد ولا عناء ولا تكلف.

ومن حيث الوظيفة فالثقافة العليا مهمتها تنظيم المجتمع، وحل إشكالاته وتناقضاته، وحسن تنظيمه، أما الثقافة الشعبية فمهمتها الأولى تحقيق نوع من التواصل بين أفراد المجتمع، وتحقيق أكبر قدر من التجانس بين أفراده.

ونظراً لاختلاف مهمة الثقافتين، فقد يقع بينهما تعارض، يمكن تلافيه وذلك بالترقي بالثقافة الشعبية كي تكون أكثر وعياً بذاتها، كذلك ينبغي العمل بهمة لجعل ثقافة النخبة في خدمة الجماعة، وأن تتصدى لحل المشكلات، بدلاً من الجري وراء تأسيس سلطات سياسية أو غيرها. وينبغي أن لا يسمح بتحول المثقف إلى «خواجة» ووكيل للأجنبي، وقنطرة لعبور كافة الأفكار، الآتية من وراء الحدود.

لقد أنفق المجتمع الكثير على المثقف كي يخدمه، وليس كي يتعالى عليه ويترفع، أو يشمخ بأنفه.

أيها المثقف «النخبوي» أنت من هذا الشعب، وقد حصلت بفضله على معارف وخبرات، لا يملكها عموم شعبك، فلا تجعل ذلك وسيلة استعلاء، ولا وسيلة مغنم.

الثقافة والهوية

حاملو الثقافة العليا هم الذين يحتكون بالثقافات الأخرى، وهم من هذه الناحية يشكلون درع الأمة الثقافي، ورأس الحربة، وعليهم تتوالى الضغوط، وتبقى جبهتهم معرضة دوماً «للاختراق»، لجملة أسباب على رأسها الاحتكاك الثقافي، ونمط فهمها، بينما الثقافة الشعبية ليس من اليسير اختراقها، وهي لا تتعرض لمثل هذه الضغوط في العادة.

قطيعة النخبة

نظراً لطبيعة الثقافة التي تحملها النخبة، وصلتها بالثقافات الأخرى، فقد يحدث أن ينقطع المثقف عن مجتمعه، حتى يصير غريباً فيه، وقد وجدت الأستاذ سهيل القش يبسط القضية، ويوضح أبعادها، بسطاً جيداً فيقول: (يجد الواحد نفسه في قطيعة مع جذوره التراثية، ومع مضامين الأيديولوجية العملية، وذلك في سياق تكوينه كمثقف فرد، بهذا المعنى يصير نشوء المثقف ملازماً لخروجه عن مجتمع المغلوبين، كي يقدم نفسه، بعد بلورة معارفه الجديدة، كتقني في خدمة السلطة الجديدة، إن هذه الحركة تضعه في قطيعة مع المجتمع التقليدي، وكتل العصبيات من جهة، كما تضعه على طريق تسلق «معابر» السلطة والسلطان، والذي يحتاج لأمثاله)[١] .

وإتماماً للفائدة أود نقل نص آخر (للقش)، ربما زاد القضية وضوحاً إذ يقول: (...هكذا يتحرر المثقف الحديث من عبء تمثيل الحركة الجماهيرية ومجادلتها للغالب، ويتجه ليصبح ممثلاً لهذا الغالب ـ وخواجا السلطة ـ إنه يستند في وضعه الوسيط، بين السلطة والشعب، على سلطة شكلية، يستمدها من فوق سلطة العلم والثقافة العصرية، والتي تحاول أن ترث وتنافس سلطة المثقف الشعبي العضوي)[٢] .

هنا مكمن الخطر، أن ينفصل المثقف عن شعبه ويبتعد عنه، ليكون وسيطاً بين الأجنبي وشعبه، كل ذلك من أجل المغنم!!

---

(١) مجلة السفير اللبنانية ٢٩/٨/١٩٨٧م.

(٢) في البدء كانت الممانعة ص ٩٤ .

ضغط الثقافة

كل ثقافة قوية فعالة، ذات محتوى عالمي، تضغط على الثقافات الأخرى وتخترقها وتحجمها، وتجعل منها ثقافة إقليمية.

وحين كانت الثقافة الإسلامية في أوج قوتها، راحت تضغط على الثقافات الأخرى حتى أخرجتها عن دائرة الفاعلية.

ولقد سمعنا شكوى مريرة من كبار القسس في الغرب، يشكون بأن كل مثقف عندهم لا يقرأ سوى كتب العرب، ويتعلم لغتهم، ويحفظ علومهم وآدابهم، ولا تعجبه علوم قومه ولا لغتهم. وأن أحد ملوك انكلترا أرسل بعض بناته إلى الأندلس لتعيش هناك في قصور العرب وتتعلم من نسائهم.

وقد حاول بعض الفرس ـ في القرن الرابع الهجري ـ أن يكتب بالفارسية فعجز؛ لأن العربية أزاحتها عن ساحة الاستعمال، وحين دار الزمن دورته، راحت الثقافة الغربية تضغط بكل قوة، وتخترق ثقافات العالم وتحاصرها، ثم تحولها إلى مجرد ثقافة محلية، لا تعجب أحداً حتى أهلها.

وقد وجدت د. هشام شرابي ـ وهو فلسطيني من عكا، أمريكي الجنسية ـ وأستاذ جامعي يصرح[1] : (إن أنظمة المعرفة، وأساليب البحث العلمي في العلوم الاجتماعية، هي أنظمة غربية في أساليبها وأشكالها كافة، حتى معرفتنا لذاتنا وتاريخنا ومجتمعنا في القرن العشرين، هي معرفة غربية في صميمها، فالعلوم الإنسانية والاجتماعية في العالم الثالث كلها مستمدة من الغرب، وهي تنتج وتعيد إنتاج المعرفة الغربية محليًّا، ومن هنا يمكننا تفهم

---

(١) النقد الحضاري ص ٣٦، مركز دراسات الوحدة العربية.

أسباب الرفض المطلق للغرب عند الأصوليين، وإصرارهم على العودة للدين والتراث، واستعادة الهوية الأصلية من خلال معرفة تراثية مستقلة عن كل الأطر والمفاهيم الأجنبية..). حقيقة ولكنها بمرارة العلقم!!

القدر المشترك

لا يفهم مما تقدم عدم وجود قدر مشترك بين الثقافتين: العليا والشعبية، فهناك خطوط تجمعهما، ولكن الاختراق يوسع الهوة، ويزيد في الشقة.

إن الإنسان المثقف ثقافة عليا، قد يصبح غريباً بين أهله وفي وطنه، وقد قدمت نموذجاً لشاب عاد من الغرب ـ ومثله ألوف ـ ليجد نفسه معزولاً عن أهله واهتماماتهم وأحاديثهم ومسراتهم، لأنه ابتعد عن ثقافة شعبه وما يشغلهم.

حتى أصحاب الثقافة العليا دب فيهم الانشقاق، فثمة شريحة منهم تجاهد للمحافظة على الهوية، وإحياء دور للقيم الإسلامية، بينما يتغرب قسم آخر، ويحاول الالتصاق بالغرب بكل ما يستطيع، ضارباً عرض الحائط بالهوية والخصوصية، مهرولاً خلف الغرب بكل قوة، إن ما حدث هو عبارة عن ضغط لحضارة الغرب، وإقصاء وعزل للثقافة الإسلامية، وحصرها في أضيق دائرة، وإبعادها عن أي إسهام حضاري.

وحين يحتدم الصراع بين أهل الهوية والمتغربين، يقف الغرب بكل قوة خلف تلاميذه وعشاقه، يمدهم بكل أسباب النصر، ويشن أكبر حملة على أهل الهوية، ويطلق عليهم كل يوم نعتاً جديداً، إنه يرهبهم ويخوفهم، ويخوف العالم منهم.

ويعجبني أن أعود للدكتور بنجامين شوارتز، في حواره مع مجلة المجلة، فقد وجدت الرجل يصرح بما لا يصرح به أحد مثله وفي مركزه. يسأله مندوب المجلة . . . .

فيقول[١] : بعد حرب الخليج أكثرت أمريكا من استعمال «الإرهاب»، وقال البعض إنه حل محل الشيوعية.

فأجاب شوارتز: هذا صحيح، ولكن كما قلت لك، إن شعار مكافحة الشيوعية خلال الخمسين سنة الماضية، كان مجرد ستار لسيطرة الشركات الأمريكية على العالم، وكان ذلك باستعمال القوة العسكرية، وبمشاركة ومعرفة جنرالات البنتاجون. ولهذا أقول بأن مكافحة «الإرهاب» ليس إلا شعاراً جديداً، ولابد أن جنرالات الجيش الأمريكي سعداء جدًّا؛ لأنهم وجدوا هدفاً جديداً، ولابد أنهم يعرفون جيداً دورهم التاريخي في لعبة السوق الأمريكية العالمية.

س: هناك من يقول بأن أمريكا تطلق «الإرهاب» على كل من يعارض سياستها؟

شوارتز: كما قلت لك، كل هذه الأوصاف زمنية مؤقتة، وتحقق هدف منها، ثم يأتي وصف آخر. مثلاً قبل خمسين أو ثلاثين سنة لم تكن كلمة «الإرهاب» في قاموس السياسة الأمريكية، والآن اختفت «الشيوعية» من هذا القاموس، هذه مجرد أوصاف وشعارات لتحقيق هدف أكبر. اهـ.

شكراً لهذه الصراحة، ومن مهندس من أكبر مهندسي السياسة الأمريكية. وعلينا أن ننتظر أوصافاً جديدة بعد الأصولي والإرهابي، فلكل جديد رنة، ولكل آتٍ من وراء البحار شنة، ولله في خلقه شؤون وشجون.

وأخيراً: فإن أية ثقافة حية وذات جاذبية، بإمكانها وبمقدورها أن تلفت الانتباه، وأن تمارس ضغطاً على ثقافة ضعفت فاعليتها، وعجزت عن تجديد نفسها.

إننا اليوم نعتقد في ثقافتنا الفاعلية والقدرة على الجمع والمزج بين

---

(١) مجلة المجلة، العدد ٨٦٢.

الثقافة العليا والشعبية، فمتى أفلحنا في هذا الجمع، وشكلنا نوعاً من التجانس، والاندفاع نحو الإبداع، عندها ستنجح وستعود لها الثقة الكاملة، كما كانت يوماً من الأيام.

هذه الفاعلية الإبداعية، لا أتصور بأننا سنكتسبها من خلال جلب عناصر ثقافية بعيدة عنا وعن قيمنا، ولكن يمكن أن يحصل ذلك عن طريق إحياء قيمنا الأصيلة، وحل التناقضات التي زرعتها الثقافة الغربية الضاغطة، وهذا النهج ليس خاصًّا بنا، ولا هو من ضروب الجحود أو التعصب، فكل الأمم بدأت بإحياء تراثها أولاً، ثم قامت بالتجديد والنهوض بعد ذلك.

شهادة ولكن

د. هشام شرابي يتحدث عن التجربة الأوروبية فيقول[١] : (... تنهض التجربة الأوروبية «للحداثة» في مرحلتها الأولى عن موقفين:

١ ـ موقف تجاه الماضي، ومحاولة استرجاعه، وذلك بالعودة إلى النموذج الإغريقي الروحاني، ثم نموذج القرون الوسطى.

٢ ـ موقف تجاه المستقبل القائم على العلوم، وحتمية التقدم الإنساني (فلسفة التنوير)، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، يتخلى مفهوم الحداثة شيئاً فشيئاً عن «ارتباطه الزمني» ويتجه نحو كل ما هو جديد.. هناك من يقول إن مرحلة الحداثة قد انتهت في الغرب، وبدأت ما بعد الحداثة، غير إننا مازلنا ننظر إلى أوروبا وكأنها مازالت في مرحلة الحداثة، على حين ينظر إلينا الأوروبي من موقع ما بعد الحداثة، فلا يرانا على حقيقتنا، ولا نراه على حقيقته... وقد يكون الخروج من سوء الفهم بتحديد معنى الحداثة وما بعدها من منطلقنا، فمعنى الحداثة يتجسد ـ بالنسبة لدينا ـ في اتجاهين: ١ ـ اتجاه عقلي. ٢ ـ اتجاه علماني. أي عقلنة الحضارة وعلمنة المجتمع).

والتلميذ النجيب «شرابي» يصرح بأننا نتتلمذ على الغرب في كل شيء، حتى في فهم أنفسنا وتاريخنا، وأن علومنا في منهجها ومحتواها وحدودها غربية، ثم هو يصرح بأن الغرب نهض بعد اتخاذه موقفين: موقف نحو إحياء الماضي الإغريقي والوسيطي، وموقف تجاه المستقبل يقوم على العلم وحتمية التقدم.

---

(١) النقد الحضاري للمجتمع العربي ص ٥٨.

لكنه حين يريد أن نعالج قضية الحداثة عندنا، يشطب على الاتجاه الأول، لأنه ـ كعلماني ـ لا يعجبه ذلك.

والأمر الآخر: إن التلميذ يصرح بأن أستاذه ترك الحداثة، وهو يعيش الآن ما بعد الحداثة، فلماذا تجمَّد وتسمَّر التلميذ عند الحداثة؟

ما تعاني منه ثقافتنا

القارىء المتأمل لخارطتنا الثقافية يجدها تعاني من أكثر من حالة، من ذلك:

١ ـ ضغط كبير من الثقافة الغربية، منذ أكثر من قرنين، تم خلال ذلك نوع من الابتعاد من أبناء «النخبة» عن ساحتنا، والتوجه قلباً وعقلاً نحو الثقافة الغربية.

٢ ـ إن ثقافتنا تفتقد الفاعلية التنظيمية، كما تفتقد القدرة على المزج بين المستويين من الثقافة: العالي والشعبي. فكيف تستعيد هذه الفاعلية؟

هل يمكن ذلك من خلال أخذ عناصر ثقافية جديدة، أو حتى قيم جديدة، أو إحياء قيمنا أولاً، ثم حل التناقضات بعد ذلك؟

لقد تقدم أن الحل الأمثل يكون بالإحياء أولاً، كما فعل الغرب، ثم العمل بعد ذلك بجد ونشاط لطرح مشروع ثقافي حضاري متكامل، يعيد لنا الثقة بأنفسنا أولاً وبثقافتنا بعد ذلك. لقد رقَّعنا ورقَّعنا فلم يُجْدِ ذلك شيئاً!!

قد يقول قائل: لقد سبق أن تعرضنا لهجمة قوية من ثقافة اليونان والهند، فلم تفعل بنا شيئاً، بل أثرت معارفنا وزودتنا بعلوم ومعارف جديدة.

نعم حصل ذلك، لكننا كنا في مرحلة الشباب من الحضارة، فسهل علينا امتصاص تلك الهجمة، دون حدوث خطر يذكر، أما اليوم فقد فتر الزخم، وجاءت ثقافة الغرب ومعها القوة والهيمنة، مؤيدة بزخم سياسي وعسكري، وتفوق علمي وازدهار صناعي، وهذا هو الفارق.

لو كنا أمة متماسكة مستقلة كاليابان مثلاً، لنجحنا ف امتصاص

واحتواء الهجمة، ولكانت خسائرنا أقل، ولكان المغتربون فينا أندر وأقل.

٣ ـ إن الثقافة الغربية والحضارة تضغط بقوة على ثقافتنا وغيرها من ثقافة العالم، وهي لا تكتفي بالتأثير المجرد، أو فرض بعض المفاهيم والقيم، بل تسعى لتفكيك الثقافات الأخرى واستبعادها، والحلول مكانها، والويل لمن يقف في الطريق أو يدافع عن ثقافته وهويته.

وبالنظر لاختلاف طبيعة الثقافتين الإسلامية والغربية، فإن الكثير من المسلمين يقف حيراناً، لا يدري ماذا يعمل؟ إنه يريد التمسك بهويته من جهة، كما يريد الاندماج في الحضارة القائمة، فيحتار ماذا يعمل؟ وهذا أمر أو واقع لم يشهده المسلمون من قبل.

المطلوب بذل جهد كبير من أناس يملكون الأهلية الثقافية، ويملكون الرؤية الواضحة، ماذا يريدون؟ وكيف يحققون ما يريدون؟ وهنا تكمن الصعوبة.

٤ ـ من ثمار هذه الهجمة القوية، الطويلة العمر، وجد فينا من تثقف بالثقافة الغربية، حتى أشبع بها، مع جهل كبير بثقافته الإسلامية، وهناك اليوم شهادات لأعلام في الفلسفة والأدب وعلم الاجتماع، يذكرون ذلك بكل صراحة ووضوح.

وهؤلاء بحكم طبيعة ثقافتهم، فهم يعالجون قضايانا من منظور غربي بحت، وشهادة د. هشام شرابي ـ المتقدمة ـ تصرح بذلك. وقد أفرز هذا الواقع لوناً حادًّا من الصراع الثقافي، تشهده ساحتنا منذ عشرات السنين، وهو يشتعل اليوم، لأن الكفة تميل رسميًّا إلى جانب «المتغربة» وشعبيًّا إلى جانب الإسلاميين.

٥ ـ المتقدم حضاريًّا يحول ثقافته من محلية إلى عالمية، وكذلك المنتصر، أما المتخلف والمهزوم فيحول ثقافته العالمية إلى ثقافة باهتة محلية.

لقد أوشكنا أن نفقد خصوصيتنا الثقافية، لأن تطور نظم الاتصالات والمواصلات، جعل كل ثقافة غير عالمية، لا تستطيع المحافظة على خصوصيتها إلا بالانغلاق التام، والانغلاق صار صعباً للغاية.

إن ضعف مساهمتنا بالحضارة، مع وجود حضارة قوية إلى جانبنا، أغرى ومازال الكثير من أبنائنا في الرحيل إلى الغرب، حيث الجامعات القوية، وإمكانات البحث الميسرة. كما ساهمت نظم سيئة السمعة والصيت بذلك، وكأنها تطرد مشاغبين كي تتخلص منهم، لكن دولة كاليابان مازالت تصرخ وتتوجع؛ لأن بضعة آلاف قد غادروها إلى الغرب، وهي تحتال بكل الوسائل لإرجاعهم، ومن ذلك أخذ أولادهم في الإجازات، وعمل معسكرات لهم، لتنشيط قوميتهم، عساهم يعودون يوماً من الأيام.

بينما بلادنا تنفق الألوف والملايين على الطلبة، فإذا ابتعثوا إلى الغرب، ذهبوا ولم يعودوا فربح الغرب شباباً منتجاً، لم يتكلف بتعليمه إلا في مرحلة متأخرة، وقد تكون دولته الفقيرة المعدمة، قد دفعت أجور دراسته وتكاليف معاشه، ثم أخذ صيداً «مشويًا» جاهزاً للأكل!!

٦ ـ يرى الكاتب الإسلامي «مالك بن نبي» يرحمه الله أننا واليابان انفتحنا على الغرب ولكن..
نحن كنا مجرد زبائن، أما الياباني فكان تلميذاً.

الزبون يأخذ الحاجة ويدفع المال، ويبقى طوال عمره زبوناً، يأخذ بثمن، وفي كثير من الأحيان بثمن مضاعف باهظ. أما التلميذ فيتعلم حتى يصبح كمعلمه أو يفوقه، وهذا ما حدث في اليابان فعلاً.

لقد سبقناهم بالوصول إلى الغرب مدة نصف قرن، لكن أبناءنا تعلموا ـ بحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه ـ الموسيقى والتمثيل ودرسوا القانون وعلوم الاجتماع والاقتصاد، فذهبوا بعقل وعادوا بغيره،

ذهبوا بقلب وعادوا بقلب آخر.

أما الياباني فقد ذهب وفي رأسه أن يتعلم الميكانيكا والهندسة، ليعود فيشتغل بنهضة بلاده، وقد كان، والفاصل اليوم بيننا وبين اليابان قرن أو قرون، ولا أدري هل سنلحق بهم يوماً أم لا؟

٧ ـ ثقافتنا خليط بين وحي إلهي، ومفرزات عقلية متأثرة بالوحي، وقد أفلحنا بالجمع بين المصدرين إلى أبعد الحدود.

بينما تقوم الثقافة الغربية على تجاهل الوحي كليًا.

وخلال الصراع المعروف بين الكنيسة ورجال العلم، وانهزام الكنيسة قامت العلمانية فهمشت دور الوحي، وحصرته في حدود دائرة العبادات والعقيدة، وما سوى ذلك صار من نصيب الحكومة.

من هنا اختلفت ثقافتنا بمكوناتها وقيمها، عن ثقافة الغرب وقيمه، لذا صعب الدمج والمزج بين الاثنين.

إن نظرتنا للوجود والحياة، وللعلاقات البشرية مأخوذة في جملتها من الوحي، بينما هي في الثقافة الغربية مأخوذة من الطبيعة والعقل. وما يطرحه مثل «دارون» مسموع أكثر من أقوال السيد المسيح، وما يقوله علماء الاجتماع في الغرب يتخطى ويتجاوز ما يقوله «البابا» ورجال الكنيسة.

والمثقف غير الشعبي عندنا محتار، يأخذ ماذا ويدع ويترك ماذا؟

٨ ـ الدين والعبادة: الدين علاقة بين العبد وربه، هكذا تفهمه الثقافة الغربية، وهو محصور في العقيدة والعبادة (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله). وهذا الفهم للدين ينشر ويعمم على العالم، وعلى كافة الأديان.

أما الدين عندنا فهو منهج شامل للحياة، وخبر عما بعدها، والعبادة والعقيدة جزء من الدين، وليس كله.

والعبادة تأتي على معنيين اثنين:

أ ـ معنى واسع؛ فكل عمل مقبول شرعاً إذا قصد به وجه الله فهو عبادة. وقد نقل أن رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان جالساً مع نفر من صحابته، فمر بهم رجل، فذكر بعضهم نشاطه في العمل وقالوا: يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله، فرد عليهم صاحب الرسالة: (إن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان). وقال بعض الصحابة: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور ـ أي الأغنياء ـ يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضل أموالهم، فقال عليه السلام: **«أليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة»**[1] .

قالوا: يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال: **«أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال، كان له أجر»**.

فالعبادة هنا تتسع لتشمل دائرة واسعة كبيرة.

ب ـ معنى ضيق: يقصر العبادة على الصوم والصلاح والحج والزكاة، وهذه عمادها النصي الصحيح. وهي تقوم على الاتباع، دون الابتداع، فالابتداع في العبادة مرفوض، فليس من حق أحد أن يزيد أو ينقص في العبادة، فذلك ممنوع شرعاً.

ويمكن القول مع د. ماجد الكيلاني[2] بأن العبادة تأخذ ثلاثة اتجاهات:

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب الصدقة ٢/ ٦٩٧، الحديث رقم ١٠٠٦.

(٢) فلسفة التربية الإسلامية ص ٨٥ الطبعة الثانية.

أ ـ اتجاه ديني. ب ـ اتجاه اجتماعي. جـ ـ اتجاه كوني.

الاتجاه الأول ـ الديني ـ يتمثل في إقامة الشعائر، ويتمثل الثاني ـ الاجتماعي ـ في علاقة الفرد بغيره، أما الاتجاه الثالث ـ الكوني ـ فيتمثل بعلاقة الإنسان بالكون.

وهذه الاتجاهات تتكامل وتتساند، فإذا حدث انفصام بينها، كأن ينحصر مفهوم العبادة بالاتجاه الديني فقط، فإنه ينتج آثاراً سلبية منها:

١ ـ عدم الاهتمام الجاد بالاتجاهين الاجتماعي والكوني، عندها تنحسر العلوم الاجتماعية والكونية، أو تنحرف بعيداً عن مسارها الصحيح، فيعمل الواحد ضد الآخر.

٢ ـ إن الفصل بين الاتجاه الديني وغيره، يفرز فريقاً من المتعلمين بعضه يكون متديناً، لكنه يتصف بالسلبية والمسكنة ـ يلاحظ التصوف ـ وإلى جانبه فريق من الاجتماعيين يتصف بالانفلات.

٣ ـ إن الفصل متى تم، يمكن أن يفرز نماذج متدينة، لكنها تتصف بالتواكل والجبرية والكسل، وإلى جانبها مجموعة من المهنيين تتصف بالمادية الاستهلاكية. (وهذا بعض ما نعانيه اليوم).

٤ ـ من بركات هذا الفصل تمرد بعض العاملين في الحقلين ـ الاجتماعي والكوني ـ على القيم والأخلاق.

٥ ـ إن الفصل بين الاتجاهات يعطل رسالة الدين في الإصلاح عموماً، والإصلاح الاجتماعي خصوصاً، لذا رأينا المترفين يفصلون بين الدين وتأثيره في الحياة، حتى رد الله تعالى عليهم قائلاً: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ .

وقد قدم رجل على رسول الله ﷺ وطلب أن يبايع . يقول الرجل[1] : أتيت رسول الله لأبايعه، فاشترط علي شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أؤدي الزكاة، وأن أحج حجة الإسلام ـ أي الأولى ـ وأن أصوم شهر رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله . فقلت : يا رسول الله ، أما اثنتان فوالله ما أطيقهما : الجهاد والصدقة ، فإنهم زعموا أن من ولى الدبر ، فقد باء بغضب من الله ، فأخاف إن حضرت تلك خشعت نفسي وكرهت الموت . والصدقة فوالله مالي إلا غنيمة وعشر ذود، هن رسل أهلي وحمولتهم . فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حرك يده ثم قال : لا جهاد ولا صدقة، فبم تدخل الجنة إذن؟ قال : قلت يا رسول الله أنا أبايعك، قال : فبايعت عليهن كلهن) اهـ.

فرسول الله ـ عليه السلام ـ يرفض المبايعة لأن الرجل اعتذر عن الزكاة والجهاد، فلما قبلها كلها بايعه .

وقد توجه بعض الصحابة إلى بيت رسول الله ـ عليه السلام ـ يسألون عن عبادته، فلما أخبروا بها، كأنهم استقالوها، فقال بعضهم : أصوم فلا أفطر ، وقال آخر : أقوم الليل فلا أنام، وقال الثالث : أعتزل النساء، فلما علم رسول الله بخبرهم استدعاهم وقال لهم : أنا رسول الله، أعرفكم بالله وأتقاكم له، أصوم وأفطر ، وأقوم الليل وأنام، وأقرب النساء، فمن خالف سنتي فليس مني . اهـ. واليوم صرنا مبتدعين في العبادة، مقلدين في الحضارة، والمطلوب هو العكس : اتباع في العبادة، وإبداع في الحضارة ! !

ربما تساءل البعض : ما علاقة ذلك بالثقافة؟

وجوابي : أليس هذا من ثقافة المسلم؟؟

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ١/ ٨٠ الحديث رقم ٢٤ .

نحن والترجمة

الترجمة عندنا ابتدأت «رسمية» فدار الحكمة في بغداد كانت رسمية تشرف الدولة عليها وتنفق، وتعين المترجمين، وبعد أكثر من ألف عام تحولت الترجمة أو صارت عملاً سائباً، يفعله من شاء كما يشاء، فالكتب الجيدة لا تترجم، أو تترجم ولكن بعد مدة طويلة، قد يكون صاحبها غيرَّ أو بدَّل في قناعاته، فعلى سبيل المثال: لقد كتب «فرناند دي سويسر» كتابه «محاضرات في الألسنية العامة» ترجم وتم طبعه بعد سبعين عاماً كاملة، فهل بقي فيه جديد؟

وكتب «فلادمير بروب» كتابه «مورفو لوجيا الحكاية الخرافية» عام ١٩٢٨م فجاءت الترجمة والطبعة المغربية عام ١٩٨٦م، وطبعة جدة عام ١٩٨٩م أي بعد ستين عاماً.

وقد كتب شيخ الوجودية «سارتر» كتابه «المشكلة اليهودية» في الأربعينيات، وكان فيه أكثر يهودية من كثير من اليهود، فهو يدافع عنهم دفاعاً مستميتاً، ومع ذلك فلم يترجم ـ فيما أعلم ـ بينما ترجمت كافة كتبه وبحوثه من يوم خروجها.

أما كتاب «كابلان» المؤرخ اليهودي الشهير، فقد اختفى قبل أن يترجمه أحد.

كتبه قبل قيام دولة إسرائيل، وفيه يقول: إن التجديد المعاصر لليهودية، تم بفضل العودة إلى التقاليد الإسلامية، وهذا مما أزعج اليهود، وزهد مترجمينا فيه. هذا إلى الألوف من الكتب والبحوث، التي تدفع بها المطابع يوميًا.

وفي اليابان كل بحث أو مقالة أو كتاب مفيد، يصدر بأي لغة في العالم، تجب ترجمته وطرحه للتداول خلال أسبوعين لا أكثر، ونحن نترجم بعد سبعين عاماً.

أما أجور المترجمين في اليابان، فهي أعلى أجر يمكن أن يحصل عليه مثقف من عمل.

فجوة مستغلة

هناك قيم إسلامية أساسها النص، وهناك سلوك المسلمين، وبين الاثنين فجوة، والسؤال: هل النصوص هي الحجة أم سلوك المسلمين؟

من القيم الإسلامية تحريم الكذب والغش والخيانة، لكن هناك من المسلمين من لا يلتزم بذلك، والنصوص حجة عليه، وسلوكه ليس بحجة على النص.

ولكن الغرب - لهوى في النفس - يتجاهل النصوص، ويرمي الإسلام بكل نقيصة، بحجة أن هذا ما يفعله المسلم، ويتضح هذا المسلك من الإعلام ولدى المستشرق.

الإعلام متحفز دوماً للإساءة للإسلام وأهله، فإذا وقع تفجير في مكان، فالإعلام يسرع بلصقه بالإسلام والمسلمين، دون تحقق ولا وجود دليل واحد، لكن إذا قام طبيب يحمل سلاح دولة وقتل المصلين في مسجد الخيل، فلا ينسب ذلك للإرهاب، ولا لليهودية، لكن لو حصل أن قتل فلسطيني يهوديًا، لأي سبب كان، ينسب الحادث الإرهابي للإسلام وأهله وهكذا.

وحين كتب د. ادوارد سعيد كتابه «الاستشراق» عام ١٩٧٨م وترجم إلى أكثر لغات العالم، حتى فضح المستشرقين وكشف العورات، مازاد البعض على القول بأن ادوارد سعيد قد أسلم، وهو يتخفى خلف اسمه. ومن الحقائق التي يؤكدها الكاتب، أن الاستشراق ليس بموضوعي ولا محايد، ومشروعه سياسي وليس ثقافيًا على الإطلاق، وهو يصور الشرق العربي الإسلامي، وكأنه معرض للشذوذ من كل

لون. ومما يذكره أن «فلوبير» رأى بنفسه في مهرجان «لمحمد علي» في القاهرة، رأى هذا الرجل رجلاً يأخذ امرأة وسط سوق من أسواق القاهرة، ثم يضعها على الدكة أمام حانوته، ويزني بها أمام الناس، بينما كان رجل يدخن غليونه بهدوء[1] .

ولن أجادل في إمكانية وقوع الزنا، في مدينة كبيرة مثل القاهرة، ولكن ليس هناك عاقل يصدق أن رجلاً عاقلاً يمكن أن يتعاطى الزنا، وعلى دكة أمام دكانه، وعلى مرأى من الناس، لا يمكن أن يقع ذلك اليوم أو أمس، لا في القاهرة ولا في غيرها، ولن يحدث ذلك إلا في مخيلة مستشرق كذاب.

وفي كتاب «الإسلام الأصولي» يتابع ما يكتبه الساسة ورجال الفكر والإعلام عن الإسلام وأهله، فيرى في ذلك كله لوناً من سوء الاستخدام، يقول د. أدوارد سعيد[2] : (هناك إجماع حول الإسلام باعتباره كبش «فداء» لكل ما لا يروق، من أنماط سياسية واجتماعية واقتصادية جديدة في العالم.

فبالنسبة «لليمين» يمثل الإسلام «الهمجية»، وبالنسبة «لليسار» يمثل «الثيوقراطية» في العصر الوسيط. أما بالنسبة «للوسط» فالإسلام يمثل نوعاً من «الغرائبية» الممجوجة.

وما يربط هؤلاء جميعاً، هو أنه رغم أن نزراً يسيراً فقط معروف عن العالم الإسلامي، ومع ذلك فلا يوجد هناك الكثير الجدير برضانا ومباركتنا).

فالإسلام مرفوض من اليمين واليسار والوسط، وهو دوماً كبش

(١) الفكر العربي والفكر الاستشراقي للكاتب ص ٣٢.

(٢) الإسلام الأصولي ص ٧٢ طبعة دار الجليل.

الفداء، وأهله خلف كل عمل إرهابي وشر، بما في ذلك انفجار «كلاهوما» وغيره.

أما خبر استقالة «رينيه فليبر» مبعوث حقوق الإنسان من قبل هيئة الأمم إلى فلسطين، والتي يقول فيه[1] : (إن مهمتي كمبعوث خاص لحقوق الإنسان يجب أن تلغى، لأنني لا أستطيع تغيير السياسة الإسرائيلية، والتي تقوم على الإساءة في المعاملة لكل فلسطيني، لذا أتقدم باستقالتي وأعود إلى بلدي سويسرا). إن هذه الاستقالة لا يذكرها أحد في الغرب، لأنها تسيء إلى العشيقة إسرائيل، والإساءة محرمة في شريعة «الغرب». إن الفجوة بين القيم الإسلامية، وسلوك المسلمين، لا نجادل فيها ولا ندافع عنها، بل نطالب بسدها، وفي نفس الوقت نصرخ بأعلى صوت: الإسلام حجة على المسلمين، وسلوك المسلمين ليس بحجة عليه.

(١) مجلة الدعوة السعودية العدد ١٥١٧ في ١٤١٦/٦/٢٣هـ.

اشتعال الحرب الكلامية

يشهد العالم الإسلامي حروباً كلامية، سببها الانقسامات الثقافية، ويلاحظ وجود نوع من الثنائية: فهناك المدن والريف، أغنياء وفقراء، مدارس رسمية وشرعية، أنصار التراث وأنصار الحداثة والعلمانية، والمطلوب نوع من التهدئة، والبعد عن التأجيج.

ففي هذه المعارك وغيرها تتبدد وتضيع الكثير من الطاقات، فالاختلاف اليوم موجود في كافة المجتمعات، ويمكن أن يكمل بعضنا بعضاً، دون أن يهدم بعضنا بعضاً.

الاختلاف أمر طبيعي اليوم، ووجود مجتمع واحد «بنسخة» واحدة، لم يعد موجوداً إلا في ذهن ستالين وتلاميذه، فالله خالق البشر يقول: ﴿ولايزالون مختلفين﴾. [هود: ١١٨].

والحياة مع الخلاف المعقول تتحرك، ومع السكون تجمد، والماء كلما تحرك صار أعذب، فإذا ركد فسد وتغير طعمه ولونه.

والقرآن يتحدث عن «دفع الناس» أو تدافعهم، وفي مصطلح اليوم «صراعهم».

يقول تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾. [البقرة: ٢٥١].

ويقول: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع ومساجد﴾. [الحج: ٤٠].

فطبيعة الحياة قائمة على نوع من «التدافع»، كل طرف يدفع صاحبه، فإذا سكن المجتمع، فخلا من هذا التدافع فسدت الحياة،

وربما توقف العمران، وتباطأ وتثاقل حركة الحضارة والتقدم. لكني أسارع للقول بأن «التدافع» هو غير الحرب الكلامية، فهذه تستهلك الطاقات، وتشقق وتمزق المجتمعات، وتجعل الناس منشغلين بحروب «كلامية»، قد لا يكون لها جدوى ولا فائدة، ومعلوم أن المعارك الكلامية قد تكون مجرد «ترف» ليس أكثر.

وقد وجدت رسولنا ـ عليه السلام ـ يشير إلى مثل هذه المعارك حيث يتحدث عن الفتن، وأنها ستأكل نطف العرب، ثم يصفها وصفاً غريباً فيقول: (اللسان فيها أمضى من السيف)، وهذا يتطلب أجهزة إعلام متطورة ـ كما هي اليوم ـ توصل الكلمة إلى أقصى الأرض في لحظة واحدة، أجهزة تعمل من الحبة قبة كما يقال، ومن الخبر قنبلة، تنفجر هنا أو هناك، فتفجر معركة أو تشعل حرباً، وكل ذلك موجود اليوم ومشاهد.

الإنسان مخلوق معرفي

يولد الإنسان ولا شيء عنده من علم أو معرفة، يقول تعالى: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾. [النحل: ٧٨].

والإنسان بخلاف كافة المخلوقات الأخرى، ينمي معلوماته يوماً بعد يوم، أما الأسد والحصان فهما كذلك منذ مليون عام دون زيادة في علم أو معرفة.

والله تعالى حين تحدث عن «استخلاف» الإنسان في الأرض تطلع الملائكة وتشوفوا لهذا المنصب، طاعنين في «آدم» عليه السلام بأنه مفسد وسافك للدماء، بينما هم أهل ذكر وعبادة.

وجاء تبرير «الاستخلاف» بالكشف عن قدرات آدم العقلية، فقد عرضت عليه الأسماء، كما عضرت على الملائكة، ثم لما جرت المساءلة فاستذكرها آدم، وأخفقت الملائكة. وهذا العرض يوحي بأن الاستخلاف يرتبط بقدرات التعلم، فمن يكون الأفضل تعلماً وتعليماً، فهو الأجدر بالخلافة، وإن كان مفسداً، يسفكالدماء.

وعلى هذا فالإنسان الذي يهمل جانب التعلم والتعليم، فكأنه يعطل جهازاً عظيماً في الإنسان، ولا يستحق الاستخلاف في الأرض.

وأحسب أن لا أحد يجادل في أن حركة التاريخ، وتقدم الحضارة رهن بازدهار علوم الحياة، فمن يملك قدراً علميًّا أكبر ـ سواء أكان مؤمناً أم كافراً ـ فإن التقدم سيكون من نصيبه.

وعلى ذلك فإذا تقدم الكفار اليوم، وتأخر المسلمون، فليس ذلك

لكون الكفر صاحب مزية على الإيمان، ولا لأن الكافر أفضل عند الله من المؤمن، بل لأن الكافر يعلم من علوم الحياة، ويشتغل في كشف السنن، بينما المؤمن بعيد عن ذلك كله.

لقد قدنا العالم أفضل قيادة، يوم أن جمعنا بين علوم الدين والدنيا، وسلكنا السلوك الذي أراده الله لنا.

لقد كانت مدننا في الأندلس مضاءة، على حين كان ينام الناس في ظلام دامس وعلى القش، هم وحيواناتهم في باريس. ويوم كانت مدننا في بغداد وقرطبة وسمرقند وبخارى تعج بالمدارس والجامعات والمستشفيات، كان العلاج في أوروبا يتم بضرب المريض حتى يخرج منه الجني الذي تلبسه.

ولقد كانت مكتبة الصاحب بن عباد الشخصية، تحوي من الكتب أكثر مما تحويه مكتبات أوروبا كلها، بشهادة «ديورنت».

ولقد أنقذ من محرقة واحدة في الأندلس أكثر من ثلاثة عشر ألف كتاب، فكم كان عدد الكتب إذن؟

ويوم دخل التتار بغداد عملوا جسراً من الكتب، واليوم يوجد في مكتبة الشيخ «الجيلاني» كتاباً كتب فيه أنه أنقذ من الكتب التي ذهبت بنهر دجلة.

لقد أخرجنا «الإسلام» من عبادة الأصنام، ومن حرب داحس والغبراء، ومن صحراء الجزيرة وجدبها إلى قيادة العالم، ومن يدري فلو أسلمت أوروبا، لكنا اليوم سادة العالم وقواده.

الإنسان مخلوق معرفي، له شوق عظيم للتعرف على الوجود والكون وخالقه، وهو يتطلع دوماً إلى معلومات صحيحة موثقة، فإن لم يجد ذلك، اخترع العلوم اختراعاً. إن الله تعالى قدم للإنسانية

معلومات، وحجب أخرى.

قدم معلومات وافية كافية عن ذاته وصفاته، وعن كيفية عبادته، وعما سيحصل في اليوم الآخر، من بعث وحساب وعقاب. وترك علوماً أخرى، أسميها علوم «الحياة»، ترك أمر الكشف عنها للإنسان وجهده، فعن طريق الملاحظة والتجربة، والخطأ والصواب، كشف الإنسان عن جبال من العلم، ومازال يكشف يوميًا.

وقد تعهد الله تعالى، تفضلاً منه بالكشف عن المزيد فقال: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾. [فصلت: ٥٣].

فكل يوم يكشف الإنسان جديداً من العلم والمعرفة، وسيبقى شوقه ملتهباً هكذا حتى تقوم الساعة.

فإن قصر في علوم الحياة، وانحرف يميناً أو شمالاً، فستقدم علوم فاسدة مغلوطة، مثل التنجيم وقراءة الكف والسحر والشعوذة.. إلخ.

الشوق لعلوم الوحي

قد يقول قائل: إن هذه الشعوذة والسحر وأمثالها، تروج اليوم في البلاد المتقدمة صناعيًا أكثر من غيرها.

نعم والسبب ـ فيما أعتقد ـ يكمن في حاجة الإنسان إلى علوم أخرى غير التي يتعلمها الإنسان اليوم، لذاقبل السحر والشعوذة وأمثالها.

لقد حرم إنسان الغرب من علوم «الوحي»، فاشتاق إليها، حتى سقط في الشعوذة، وكل محروم يمكن أن يسقط هذه السقطة. وبلاد المسلمين هي الأخرى تعج بمعارف يرفضها الإسلام ويحرمها، كالسحر والتنجيم وقراءة الكف، وأنواع من الشعوذة وذلك لقلة العلم الإسلامي الصحيح، ووجود قلق كبير في الحياة، يضاف لكل ذلك التزاحم الثقافي والتضارب.

فالمسلم يستمع مثلاً إلى جملة من المتناقضات، في ساعة واحدة، ويسمع عن المحرمات، وبعد دقائق يراها على شاشة التلفزيون أو الفيديو أو في الشارع العام.

يسمع أحاديث عن الأخوة والصدق والإحسان، ثم يرى والديه يعملون خلاف ذلك كله، كما يرى ما يناقض ذلك في الشارع والمدرسة والبيت.

لذا صارت تربية الصغار شاقة، وأثر كل هذا على قدرات المسلم، فصار لا يستوعب الواقع الاستيعاب الجيد، كما لا يستطيع تبين القوى الحقيقية الفاعلة من غيرها.

ونظراً لكثرة الضغوط صار «باطنيًّا» يقول ما لا يعتقد، ويفعل غير ما يؤمن به، يسكت عن الظلم، خوفاً من الظالمين، وربما راح يمدح الظلم والظالمين، بل ربما شايع الكفر وأهله، طمعاً في دنيا يصيبها، أو شر يدفعه.

وإذا ما طرحت مسألة للنقاش والحوار، جاءت الإجابات مشرِّقة ومغرِّبة، لا يجمعها جامع.

لقد آن الأوان لفحص ما عندنا من قضايا، وعمل فرز، بحيث نميز بين الجيد المفيد، والتالف الذي تجاوزه الزمن، وعفا عليه الدهر. فليس كل تراثنا جيد صالح، وليس كله قديم فاسد، ولابد من غربلة، كي يذهب الزبد إلى حيث لا رجعة.

مع التجربة اليابانية

أنا معجب باليابان وتجربتها في التقدم ومن غير تحفظ، ولدي مسودة كتاب آمل أن يصل إلى القراء قريباً بإذنه تعالى.

إن اليابان ـ الدولة الشرقية قلباً وقالباً ـ استطاعت انتهاج خطة مستقلة في تقدمها، بعيداً عن القيم الغربية.

فبعد هزيمة الحرب العالمية الثانية، التي لحقت بها، فرض الأمريكان عليها نظاماً تعليميًّا، وآخر للعمل والعمال، فظهرت التوترات والمظاهرات، وعمت الإضرابات، وبعد رحيل الأمريكان راح اليابانيون يناقشون المنهج الذي عليهم اتباعه، والأخذ به من أجل التقدم والنهوض، ومداواة الجروح التي خلفتها الهزيمة، بعد ضرب المدن اليابانية بالقنابل الذرية، لقد وجدت «نموذجين» في الساحة الدولية، النموذج الغربي الرأسمالي، والنموذج الاشتراكي البلشفي، وبعد نقاش طويل رفضت اليابان الخيارين معاً، ثم قامت ببناء نظام تعليمي واجتماعي وتنموي خاص بها، لكنها لم تجد عيباً في أخذ «التقنية» الغربية، لكن ليس بهدف المحاكاة والوقوف عندها، بل بنية تطويرها، ثم إنتاج تقنية يابانية خاصة، تنافس التقنية الغربية، وتقف معها على قدم المساواة.

وهنا اختفت التوترات والإضرابات، وعاد للمجتمع الياباني وحدته ولحمته، وبعد أقل من ربع قرن من الهزيمة، صارت اليابان تهدد غُزاتها، وتغزوهم في عقر دارهم حتى قال مسؤول أمريكي ـ بألم وحسرة ـ إن اليابان تغزونا وتتحدانا وتدفعنا بقوة نحو العالم الثالث،

ولقد صار من واجبنا أن نقدم لها الطعام والمواد الخام، وأن نشتري ما تصنع!!

إن اليابان تسير اليوم وفق نظم وقواعد مستقلة، ومن منطلق ثقافي مستقل، فالشركة مثلاً عبارة عن عائلة كبيرة، ولما كان للعوائل أسرار، فالشركة كذلك، لذا لا يجوز ترك الشركة، والتحول إلى غيرها، ومن يفعل ذلك فلن يجد من يقبله لأنه ليس أهلاً للثقة، بينما يقفز الإنسان في الغرب من شركة إلى أخرى لراتب أفضل، أو مركز أحسن.

والشركة اليابانية لا تطرد عمالها، ولا تستغني عنهم بسهولة، وإذا تقاعد العامل، حل ولده مكانه، وافتتحت الشركة للمتقاعد محلاً لبيع بعض منتوجاتها، وهكذا يظل الارتباط بين الشركة والعامل حتى يموت، وهو أمر لا تعرفه الشركات خارج اليابان.

اليابان والإبداع الاجتماعي

يذكر أحد علماء الإدارة الأمريكان، وخبير بشؤون اليابان، أن قوتها ليس في الاختراعات ـ رغم كثرتها وتنوعها ـ ولا بالتقنية التي ابتكرتها وأجادتها، ولكن الإبداع الحقيقي الكبير هو في ميدان «الإبداع الاجتماعي». فقد تبنت اليابان سياسة إبعاد الغرب عنها، لتبقى لها حرية الحركة كما ترغب، أما وسيلتها في ذلك فكانت في تطوير مؤسساتها الاجتماعية: من تعليمية، ونظام خدمة، ونظم العمل، مع إضفاء مسحة واضحة من القيم، وقد طوروا وسائلهم مستهدفين تحقيق «الاستقلال» ولا بأس عندهم من استيراد التقنية ابتداء، ولكن دون أي مخاطرة «بالتراث والقيم».

ومعلوم أن الصعوبة تكمن في بناء المؤسسات من جهة، وحسن إدارتها من جهة ثانية، وقد نجح اليابانيون في ذلك بجدارة تامة، وحددوا فلسفتهم بمحورين اثنين:

١ ـ الاعتماد الكلي على النفس، في بناء المؤسسات الاجتماعية وتطويرها بشكل دائم، وعدم الجمود على صيغة واحدة.

٢ ـ الحصول على التقنيات وتقليدها، ثم تطويرها، وهنا ظهر الإبداع.

ويؤيد الباحثون اليابانيون كل ذلك وعلى رأسهم: اكيو موريثا رئيس الشركة العملاقة «سوني» ومؤسسها.

الثقافة النظرية والواقعية

ابتدأت ثقافتنا عملية، لكنها تحولت إلى نظرية.

كان «الفقيه» يحاول استقراء النص، ليجد الحل لكل مشكلة في المجتمع، وكان إذا جاءه سائل عن قضية ما فإنه يسأله: هل وقعت؟ فإذا أجاب بالنفي قال: دعها تقع.

إلا أن هذا التوجه الثقافي المعرفي، سرعان ما تحول إلى ثقافة نظرية، فنشط الفقه «الافتراضي»، فصار الفقيه يقول: أرأيت إن حدث كذا، ما الحكم؟ ولو قال إنسان كذا، ما الحكم؟ وأعتقد أن ترجمة الفلسفة اليونانية، والمنطق الأرسطي، وشيوع علم الكلام، كل هذا ساهم في دفع التوجه الثقافي المعرفي صوب التنظير، بعيداً عن الواقع، ومازال هذا التوجه قائماً، فكثير من قضايانا الثقافية لا يترتب عليها شيء، وليس لها وجود واقعي.

وقد رأى رسول الله ـ عليه السلام ـ تجمعاً حول إنسان، فلما سأل عنه قيل: هذا عليم بالأنساب فقال عليه السلام: هذا علم لا ينفع، والجهل به لا يضر، ويبدو أن الكثير من قضايانا النظرية من هذا القبيل.

كنت في مجلس فطرح شاب يعمل في أحد البنوك سؤالاً؟ هل إبليس من الملائكة أم لا؟

قلت: لا أحب الإجابة على هذا السؤال، استغرب الشاب وقال: لماذا؟ قلت: لأن القضية لا يترتب عليها شيء.

قال: هذه قضية ثقافية، قلت: هذا ترف فكري ليس إلا، ولا

حاجة لك بذلك. ثم زدت: أليس الأجدر والأهم أن تسأل عن حكم عملك في البنك، أو كيف يمكن تحويل عمليات البنك إلى عمليات مقبولة شرعاً؟

إننا منذ قرون نكدس معارف نظرية، بعيدة عن الواقع.. وخلال دراستي للمجتمع الياباني، تبين لي أنه لا يهتم بالفلسفة، وكان الياباني إذا ما قرأ أدبيات الحزب الشيوعي يقول: كلام جميل، ولا تطبيق له.

وبالمثل فإن حزباً شيوعيًّا عربيًّا قويًّا، طرح في بداية الستينيات شعارات ووعوداً مضحكة، منها أنه سيقدم لكل عامل أو فلاح زوجة «معلمة»، وسيقدم للفلاحين بقرات تحلب «جردلين» من الحليب، ودجاج يبيض مرتين في اليوم، وفاته أن يقول بأن «المعلمة» ستلد مرتين في السنة، هذا إضافة لشعارات الأرض لمن زرعها، والبيت لمن يسكنه، وصدق الكل وصفق الكل، وبعضنا مازال يصدق ويصفق، ولو لم ير شيئاً من تلك الوعود.

لقد أحالت جامعة عربية لي ثمانية بحوث في الفقه، لأستاذ يريد الترقية العلمية، وبعد قراءتها، خرجت بقناعة مفادها، لو حذفت اسم هذا الأستاذ، وادعيت أن هذه البحوث لكاتب في العصر العباسي، فلن يشك أحد في ذلك، لأن البحوث لا جديد فيها، فهي عبارة عن جمع أقوال لفقهاء قدامى، ثم الموازنة بينها، وكأن الكاتب لا يعيش في هذا العصر، وقد رفضت ترقيته. والكثير من بحوثنا النظرية هذه سمتها، دراسة نظرية، تتجاهل الواقع، وتبتعد عنه.

حتى طلبة الدراسات العليا يبحثون عن موضوعات من هذا النوع، جاءني طالب ومعه مخطوطة يريد تحقيقها، موضوعها «صلاة الجنازة» قلت الصلاة على الميت أربع تكبيرات، فهل تنوي جعلها خمساً؟

وآخر جاء يستشيرني في كتابة رسالة عن السلام، وذهب تفكيري إلى السلام مع إسرائيل، ورحت أشجعه، فتبسم وقال: أنا أقصد بالسلام «التحية»!!

طالب ثالث جاء يعرض أن يكتب في المقابر وأحكامها، وكل هذا يعني وجود توجه نحو دراسة نظرية لا تمس الواقع، فإذا اقترحنا على الدارس موضوعاً جديداً، له صلة بواقع الناس تهيب وتهرب.

ويذهب طلبتنا إلى الجامعات الغربية، للحصول على شهادات في تراثنا، فنجد تشجيعاً لكل باحث في الفلسفة القديمة، أو علم الكلام، أو التصوف، مع منحه تسهيلات واضحة في ذلك.

فإن أراد دراسات أخرى لم يجد هذا التشجيع ولا بعضه.

وختاماً: إن طبيعة بحثنا للمشكلات ـ في عمومها ـ مازالت تعتمد أسلوب المناطقة، الذين يبحثون الأشياء نظريًا، بعيداً عن الواقع، وهذا الأسلوب «النظري» من شأنه أن يزيد في مشكلاتنا بدلاً من حلها، أو يبسطها تبسيطاً فلا تعطى قيمتها الحقيقية.

الثقافة والأهداف

لكل أمة أهداف كبرى ثابتة تسعى لتحقيقها، إلى جانب أهداف أصغر، الأهداف الكبرى من الثوابت، والأصغر من الأهداف التي تتبدل مع الزمن، وتخدم الكبرى.

الأهداف الكبرى عادة قليلة لكنها أساسية، ويتطلب تحقيقها زمناً طويلاً، ففي العصور الإسلامية كان من هذه الأهداف تحقيق العبودية لله تعالى، وكسب رضوانه، بفعل الخير والبعد عن الشر، والإقبال على الحلال والبعد عن الحرام، والتضحية بالنفس والمال، في سبيل التمكين للإسلام في الأرض، ونشر الأخوة والتضامن بين المسلمين.

أما الأهداف الكبرى لحضارة الغرب، فتتمثل بالسيطرة على الطبيعة وقهرها كما يذكر عالم الاجتماع «أريك فروم» كما يمكن أن نعد من الأهداف الكبرى تحقيق أكبر قدر من اللذة والمنفعة. ومع مرور الزمن تنطمس بعض الأهداف أو تتحقق، فإذا تحققت وجب البحث عن أهداف جديدة مناسبة.

لذا ينبغي أن نعمل جادين لجعل الأهداف الكبرى الأساسية محوراً لوجودنا، ومركزاً لثقافتنا، أي أن نعمل لتحقيق قدر كبير من الوعي المناسب لما ننوى تحقيقه، سواء من نشاطنا اليومي، أو من خططنا المستقبلية. وهذا يتطلب أن نصوغ معارفنا وتقاليدنا بحيث تخدم الأهداف الكبرى التي نريدها، ولا نسمح بمن يهدم هذه الأهداف أو يحاربها، أو يشكك بها أو بسلامتها، فمثلاً لا نسمح بنشر الإلحاد والتشكيك بالعقيدة الإسلامية، ونرفض نشر الإباحية والمجون

والخلاعة، وهذا يتطلب خطة واضحة سليمة، ربما كان على رأسها تعليم الناس بعض الأحكام الأساسية في الإسلام، مما لا يجوز أن تجهل، وليكن ذلك زاداً يوميًّا، وتكون «الجرعة» للصغار أكبر، مع استبعاد كافة المؤثرات الأخرى، حتى يشب الصغير ويصير مميزاً لا يخدع ولا يضلل.

وبهذه المناسبة فإن التعليم الابتدائي في إسرائيل، يقوم في ثلاثة أرباعه أو أكثر على التوراة، مهما كانت المدرسة، ولأي جماعة أو حزب تتبع. كما تعقد في إسرائيل دورات متلاحقة لمدرسي الديانة اليهودية، حيث وجدوا في العالم، لتقويتهم أولاً، وتوحيد الفهم والمفاهيم ثانياً.

كذلك ينبغي العمل بصدق وجد لتحسين ظروف المعيشة للإنسان المسلم، بحيث يصبح القيام بالتكاليف الشرعية والاجتماعية متيسراً، خصوصاً والكثير من البلاد الإسلامية تعاني من الفقر، والفقر الشديد أحياناً.

إن بلاد المسلمين تموج بأعداد كبيرة من الناس، وبسبب سوء التخطيط والتنظيم، صار هذا العدد عبئاً، وهذه اليابان تبلغ مساحتها مساحة العراق، وثلاثة أرباع أرضها جبلي، وهي فقيرة في مواردها، ويبلغ عدد سكان العاصمة طوكيو أكثر من نفوس العراقيين كافة، ومع ذلك أين العراق من اليابان؟ إن بلاداً مثل السودان في مساحتها ووفرة المياه فيها، ومع ذلك تعاني الفقر، ومثلها الجزائر وأندونيسيا، مع وجود «البترول» واليد العاملة الرخيصة، فلو جرى العمل بتخطيط جاد سليم، فلا يمكن أن تعيش هذه البلاد فقيرة متخلفة.

إن الشعوب الإسلامية التي يجمعها دين واحد، ولديها كتاب واحد نراها تبتدع في العقيدة، حيث ينبغي الاتباع، وتقلد في الحضارة،

حيث ينبغي الإبداع.

لقد عكست القضية تماماً، فحل الإبداع محل الاتباع، وحل التقليد محل الإبداع، لذا ينبغي تخليص الشعوب الإسلامية من كل الخرافات والبدع والعادات القبيحة. وأخيراً ينبغي طرح أهداف قصيرة، تخدم الأهداف الكبرى، وإلهاب الحماس الشعبي لتحقيق هذه الأهداف، فالنجاح يساعد على النجاح، والفشل يدفع للفشل، والإحباط قاتل، وشعوبنا ـ باستثناء قلة ـ تعاني من إحباطات لا مثيل لها، وعلى كثير من جوانب الحياة، وليس في جانب واحد.

لقد أثير حماسها لمحاربة الاستعمار وطرده، فلما قامت الحكومات الوطنية، لم تحقق عشر المطامح، وسارت في طريق قهر الشعوب وجمع الثروات، مما أنسى هذه الشعوب الاستعمار وويلاته، وربما ترحم البعض على أيام الاستعمار وإدارته، وهذه فاجعة بل طامة كبرى، تقتل الحماس وتغتال الأمل.

إن الإبل متى قادها حادٍ جميل الصوت، أسرعت وجدت في السير، وكذلك الشعوب تجمعها الأهداف والتطلعات، وتجعل نشاطها اليومي يسوده نوع من الاتساق، كلما توفر نوع من الوعي يصعب التلاعب فيه، ودفعه للانحراف.

لقد قامت عندنا حكومات وأحزاب، تحت شعارات الثورية والتقدمية، ومحاربة الرجعية، فكانت كارثة بكل معنى الكلمة، لقد أفسدت الحياة، تبنت عبادة الأشخاص، ونشرت نوعاً من الفساد يصعب علاجه، كما نشرت التحزب والطائفية، وأحيت العشائرية، واقامت سوقاً للمحسوبية، حتى في صفوف الجيش، وأغرت الناس بالتجسس بعضهم على بعض، ففسدت الذمم، وكلت الهمم، وصار

كل فرد يحاول ما استطاع كسب أكبر قدر من الغنائم، ولو على حساب أخيه، وشاعت في المجتمعات نوع من «الباطنية» الحقيرة، فالإنسان في المجتمع العام له لسان يمدح فيه، فإذا كان في مجتمع صغير أمين، انقلب يذم وينتقد من كان يمدحه قبل ساعة، إنها حالة خطيرة من النفاق يصعب تصورها، كما يصعب علاجها.

المتعلم والمثقف

أبادر القول بأنه ليس الهدف من البحث «التعالم أو التفاصح» لا والله، بل تحديد مصطلحات كثيرة الاستعمال، يحيطها نوع من الغموض.

فالمثقف ـ في نظري ـ ذلك الإنسان الذي يعيش في مجتمع، بحيث يستوعب نظمه وعاداته وأخلاقه وأعرافه.

أما المتعلم فهو من حاز بعض العلوم والمعارف في تخصص ما.

لذا فليس كل متعلم ـ عندي ـ مثقفاً، ولكن وبشيء من التساهل، فكل مثقف متعلم.

إن المثقفين والمتعلمين هم «حُداة» الأمة، وقديماً قال الشاعر:

وما أسفي على الدنيا ولكن　　　على إبلٍ حداها غير حادي

وخلو الأمة من المفكرين والمثقفين الكبار، أو قلتهم بحيث لا يسمع صوتهم، أو كبتهم من الطبقة الحاكمة، وإلزامهم النفاق والباطنية، كل هذا يجعل ثقافة الأمة تنمو دون تسديد ولا توجيه، فتشرّق وتغرّب دون أساس سليم، كما يجعل الثقافة تموج بالتناقضات، فما تعتقد جماعة بأنه حق ترى أخرى بأنه عين الضلال.

وقد شاع هذا في مجتمعاتنا اليوم بشكل واضح.

وأريد أن أرتب على ما تقدم: أن المثقف أو صاحب الفكر، هو من يتحمل المسؤولية في الريادة، وهو من تجاوز مرحلة جمع المعلومات وتكديسها، والتباهي والتعاظم والتفاصح فيها، وتحول إلى مرحلة الوعي بها وبترابطها، ومن ثم التوليد منها واستثمارها، وحسن تطبيقها،

فيصير مالكاً لها، وليس أسيراً لمنطوقها ونتائجها المباشرة.

إن المثقف الجيد يتميز عن المتعلم ـ صاحب الشهادات ـ بامتلاكه للرؤيا الشاملة لمجتمعه، مدركاً لقضايا الخير والجمال فيه، كما يعرف جيداً رصيد مجتمعه من الإمكانات والطاقات، وهو يعرف بشكل جيد كافة التناقضات التي تحكم هذا المجتمع في مسيرته، وعلى وعي جيد بأخطار التغييرات السريعة والبطيئة في الأفكار والمعتقدات والأخلاق في مجتمعه، عارفاً ومميزاً بين الثوابت والمتغيرات.

هذا الوعي هو الذي يؤهل المثقف ليكون رائداً وقائداً لمجتمعه ومن ثم يتحمل مسؤولية كبيرة في نفس الوقت.

وهذا الوعي يحول المثقف من «فردانيته» إلى عموميته، فتصير هموم مجتمعه همه الأول، فلا تراه يهرول لجمع المال، ولا يتصارع على المناصب والمغانم، إنه يضحي بخصوصياته.

فإذا رأيت المثقفين يتنافسون على المغانم والمنافع المادية، على حساب ما يدعون له ويؤمنون به، فهؤلاء قد بلغوا الدركات السفلى في الانحطاط والأنانية.

مطلوب من المثقف الجاد، أن يطرح من الأفكار ما يساعد مجتمعه على العمل وتفجير الطاقات، ومن مهماته الأولى كشف الأخطاء ونقدها بشجاعة ودون مجاملة، وتصحيح مسيرة التنمية والنهوض.

وباختصار تصوير الوضع المستقبلي الذي ينبغي أن تكون عليه الأمة، ولن يتم ذلك إلا بالإخلاص والتضحية، والفهم السليم لحركة التاريخ، والمعرفة الجيدة بالسنن والقوانين العامة، لتقدم المجتمع وتأخره. إن المعرفة الجيدة بالحضارة وتقدمها وشروط ذلك، والتمييز بين الجوهر الأصيل والعرضي المتغير، شرط أساسي لوصف العلاج،

فكما تغش الطبيب بعض العوارض المرضية، فينهض لعلاجها دون المرض الأصلي، فكذلك يسقط المثقف في علاج الكثير من القضايا العرضية، شاغلاً نفسه ومجتمعه فيها، دون جدوى ولا منفعة، منصرفاً عن الأمور الأساسية وغافلاً عنها، فيتعب وقد يصاب باليأس، وقد يتهم المجتمع بالكثير من التهم ـ كما فعلت جماعات التكفير ـ والخلل فيها وفي فهمها أكثر مما في مجتمعها.

إن المجتمعات تمرض وطبيبها «المثقف» وطبها في معرفة حركتها وشروط نهضتها، ومن لم يكن أهلاً لذلك فليس بمثقف، وإن حمل أعلى الشهادات، فليس كل متعلم مثقف، وإن كان كل مثقف متعلم، ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾. [فاطر: ٢٨].

بين الثقافة والتربية

كل تربية يصاحبها ويزامنها نوع من المعرفة، ولكن التعليم قد يخلو من التربية، فالتعليم نقل علوم ومعارف للمتلقي، قد يكون بواسطة كتاب أو نشرة أو غيرها، لكن التربية لا تكون كذلك.

والثقافة ترفد التربية وتقدم لها مقوماتها الأساسية، من الأهداف إلى الوسائل.

لذا لم يعرف العالم تربية إنسانية، لا تستند إلى ثقافة ومعرفة ولو بدائية.

ويمكن القول بأنه لم توجد ثقافة بلا موحيات بأساليب معينة في التنشئة، ومع كل ذلك فإن التربية ليست انعكاساً مطابقاً للثقافة، إذ العلاقة بين الاثنين علاقة معقدة، تحكمها مجموعة من الظروف المختلفة التي تسود ميادين التربية.

فالفكرة التربوية الواحدة والأسلوب ذاته في مكانين مختلفين، يأتيان بنتائج مختلفة متباينة، بحسب الظروف التي تصاحب التنفيذ، والشعب المنفذ لذلك.

قامت الصين بوضع نظام للضريبة، ففشل فشلاً ذريعاً، واقتبسته اليابان وأجادت تطبيقه فنجح نجاحاً كبيراً.

وقد جرب «كينز» الاقتصادي المعروف أساليب واحدة في قطرين متماثلين في المناح ووفرة السكان، فنجحت الخطة في قطر وفشلت في الآخر، واليوم ينقل رجال التربية والتعليم المناهج والطرق الغربية عموماً، والأمريكية على وجه الخصوص، ولكن لا أحد في هذه البلاد

نجح في التربية والتعليم.

يلاحظ كذلك أن اليابان، عقب الحرب العالمية الثانية، فرض الأمريكان عليها النظام التعليمي وطرق التربية، فساد المجتمع الياباني لون من التوتر والاضطراب والمظاهرات، فلما رحل الأمريكان واستبدل النظام بآخر أكثر خصوصية، عاد للشعب الياباني انسجامه، وزالت التوترات، وراح الكل يعمل بروح العائلة الواحدة.

فهل يستوعب رجال التربية عندنا ـ وهم بحمد الله ـ أكثر من الهم على القلب المفلس ذلك؟

إن رجل التعليم عندنا يذهب إلى الغرب، ويدرس نظريات لا تمت بصلة إلى عقليتنا وثقافتنا وقيمنا، ثم يحاول أن يطبق ذلك على أبنائنا، فتكون النتيجة أكثر من عقيمة.

وبالمناسبة فحين قفز العسكر للحكم في البلاد العربية، وكانوا نكبة من أكبر النكبات، وتولوا المناصب كبيرها وصغيرها، طرح بعضهم نظرية مفادها: أن العسكري يصلح لكل شيء، حتى لو علمناه مدة نصف عام لصار طبيب أسنان ناجح.. عسكري من هؤلاء تولى وزارة الزراعة ـ أي والله ـ وذهب في زيارة إلى بعض دول أوروبا الشرقية، فأعجبه «عباد الشمس» فاشترى عشرين طنًا من البذور، وزرعها في بلد تصل الحرارة فيه صيفاً إلى ٤٧ درجة وإلى الصفر شتاء، وكانت النتيجة فشلاً كبيراً، لكن الوزير الهمام جمع موظفيه واتهمهم بأنهم تسببوا عمداً في فشل هذه التجربة؛ لأنه رأى بأم عينه (قرص) العباد وقد تجاوز نصف متر هناك، فلماذا تفشل التجربة هنا؟ ولما حاول بعض الموظفين أن يوضح السبب من اختلاف الجو، ووجود حشرات وغيرها، رفض الوزير كل ذلك وأصر على تآمر الموظفين، وهددهم بالطرد، بل قال إنه

مستعد لأن يتهمهم بالتجسس ويحكم عليهم بالموت.

وعسكري آخر تولى الزراعة أيضاً في بلد منكوب بالعسكر والعسكرة، وخلال تجواله في مزرعة وجد النخيل (البرحي) فأعجبه، فطلب زرع ستة ملايين نخلة في عام واحد، وهب الموظفون يشرحون استحالة ذلك، فمن أين يأتون بهذا العدد من «الفسائل» في عام؟ لكن موظفاً لوذعياً بارعاً، وقف وقال: يا سيادة الوزير نحن نفعل ذلك في عام واحد. وبعد انتهاء الزيارة هب الموظفون يعنفون هذا الموظف «المنافق» لكنه قال بحق: إن من تكون له هذه العقلية فلن يبقى في الحكم سنة، فلماذا الثورة؟

وبالفعل ترك الوزارة خلال ستة أشهر.

إن جل تجاربنا في التربية ـ للأسف الشديد ـ من نوع عباد الشمس وزارعة ستة ملايين نخلة في عام واحد، وإلى الله المشتكى. إن الواقع هو الذي يحكم بفاعلية التربية وفشلها، فإذا كان الواقع عبارة عن ترجمة سليمة لجوهر الثقافة، فيمكن لوسائلنا التربوية أن تنجح في صياغة الأجيال القادمة على الوجه المترجى والمطلوب، وإذا كانت الأقوال في جانب والأفعال في جانب قامت أزمة التربية، لأن الناشىء سيتمزق بين المُثل والواقع، المثل تطالبه بالصدق والعفة والأمانة، والواقع يلقنه الكذب وقلة الأمانة. والمحصلة تأزم ثقافي، وتأزم تربوي، في واقع متأزم.

فإذا أمكن للتربية أن تتخلص من هيمنة الثقافة السائدة، صار بإمكانها أن تحسن في الواقع، وأن تعدل في «تكوينة» الثقافة واتجاهها، وهذا من مميزات التربية الناجحة، والمثل الجيد لذلك اليابان، حين ألغت النظم التربوية التي فرضها الاستعمار الأمريكي، واستبدلتها بنظم تربوية

جديدة، تتسق مع ثقافة اليابان وخصوصيته، فسجلت نجاحاً كبيراً.

لقد أدركت اليابان مبكراً أن نهضتها تصنعها «الأم المعلمة» في البيت والمعلم في المدرسة، لذا فقد منحت الاثنين مركزاً اجتماعيًا لا يدانيه مركز، كما جعلت من المدرسة مكان جذب للطلبة ومزرعة أجيال لا وسيلة تعليم فقط.

أهمية التربية

لقد ترددت كثيراً في تقديم «أهمية التربية» على موضوع التربية والثقافة، وانتهيت إلى أن الموضوعين يشكلان وجهين لعملة واحدة.

ونبدأ بالسؤال: ماذا تعني التربية؟ أو ما الهدف الذي تتطلع التربية إلى تحقيقه؟

وأبادر للقول بأن التربية أو الهدف منها يختلف من أمة إلى أخرى، ومن ثقافة إلى أخرى، ومن حضارة إلى أخرى، بل من فئة إلى أخرى، فلو سألنا أهل الرياضة ماذا يريدون لقالوا: نريد جسماً قويًّا متناسقاً، ولو سألنا الصوفية ماذا يريدون لقالوا: إنساناً صاحب قلب رقيق، ولو كان بجسم عليل، ولو سألنا إنساناً غربيًّا ماذا يريد؟ لقال أريد إنساناً بعقل مثقف وسلوك مقبول، ولو سألنا راهباً بوذيًّا ماذا تريد؟ لقال: أريد إنساناً بروح قوية وقلب طيب. ولو سألنا فناناً عمن تبحث؟ لقال عن إنسان وسيم وصوت رخيم، وهكذا يختلف الناس فيما ينشدون من الإنسان ومن التربية.

إن أهمية التربية صادرة عن كونها تعني تأهيل الإنسان كي يحيا عصره، أخذاً وعطاء وفهماً.

والإنسان لو ترك دون تربية أو توجيه، بعيداً عن أخيه الإنسان لعاش مثل الوحوش، أو قريباً منم، أما الحيوان فيمكن أن يعتمد على نفسه وغرائزه، ويقوم بوظائفه دون مساعدة من أحد، فالحيوان حيوان بالغريزة، والإنسان إنسان بالتربية.

الإنسان يطور علومه ومعارفه وتربيته، والحيوان لا يعرف ذلك، فالأسد اليوم لا يختلف عن الأسد قبل مليون عام.

أما الإنسان فيولد جاهلاً ولا يموت حتى يجمع جبالاً من العلم والمعرفة، والإنسان اليوم غير إنسان الأمس.

قد يقول البعض أن ثمة أناساً لم يتعلموا، ومع ذلك تقدموا وربما نجحوا في حكم بلادهم. نعم هذا يصح إذا كانوا يحكمون شعباً أميًّا مثلهم، لكن الأمي اليوم في شعب كالشعب الألماني أو الفرنسي أو الياباني، لا يمكن أن يفعل ذلك، وجل ما يمكن أن يحصل عليه أن يكون عاملاً يدويًّا أو حارساً؛ لأن كل وظيفة تتطلب مؤهلاً وخبرة، ومن لا يملك ذلك قد لا يجد فرصة عمل مطلقاً.

وربما اعتقد البعض أننا نبالغ في أهمية التربية؛ لأن ثقافتنا وعملنا أقنعنا بذلك. لا. إن مبتدعات ومكتسبات الحضارة يتعذر نقلها للطفل، إلا عن طريق التربية، ولو ترك طفل دون تربية لكان إلى التوحش أقرب.

إن الحضارة وقيمها ومثلها لا تنتقل عن طريق الوراثة، لكنها تنقل عن طريق التربية فقط، وليتها انتقلت عن طريق الوراثة، إذن لصار ابن الطبيب طبيباً بالوراثة، وابن الفقيه فقيهاً بالوراثة!! إن بعض الشعوب العربية كانت يوماً في مقدمة شعوب العالم تحضراً ومعرفة، وهي اليوم في ذيل الدول المتخلفة، ونسبة الأمية فيها تتجاوز ٦٠ ـ ٨٠٪ من شعبها.

وبناء على ما تقدم، فكل طفل لا يعد الإعداد المناسب لعصره، فلن يعيش إلا على هامش مجتمعه، آخذاً غير معطٍ، وربما استغل من قبل غيره أبشع استغلال، وعاش في آخر السلم الاجتماعي، وإن كان أبوه من القادة والعلماء.

وسوف أستعرض نماذج لما يجده المربي في حياتنا اليومية.

الطفل والكرامة

التربية ـ كما هو معلوم ـ ليست نحت في شخصية الطفل فقط، ولكنها إغناء لشخصيته، وذلك من خلال توفير كل ما يسمح بنمو شخصيته نموًّا صحيحاً متكاملاً.

فالطفل يهتم إلى حد كبير بتقدير من حوله له، لذا نراه يسعى لرضى أهله، فإذا كبر ونمت شخصيته خضع لمجتمعه ومثله، فإذا كبر نظر إلى المثل، فهذا حق يفعله وذاك باطل يتركه.

وإذا كان الطفل يجب أن يكرم ولا يهان، فإذا عمل عملاً غير مرغوب فيه، وجب أن ينبه لذلك دون جرح كرامته، فإذا كان يكذب فليس من المستحسن أن نقول له كذبت، ونعلن ذلك أمام الآخرين، بل يكفي أن نعلن العكس.

وإذا أردنا نصحه وتنبيهه لأمر وقع فيه، فينبغي أن نفعل ذلك سرًّا، بعيداً عن إخوته، فالنصيحة أمام الناس تقريع، فإذا أكثرنا الأوامر والنصائح، وصار الطفل يتلقى عشرات الأوامر في الساعة الواحدة، فإنه تصير له مناعة ضد كل ذلك، فلا الأوامر تطاع، ولا النصائح تسمع. تعجبني مقولة بعض رجال التربية: إن الطفل ينبغي أن لا يتلقى أكثر من (١٢ ـ ١٥) أمراً في اليوم، ونحن نفعل أضعاف ذلك في ساعة واحدة، فتفقد تلك الأوامر والنواهي والنصائح كل مفعول لها في نفس الطفل، ويصير طفلاً معانداً مشاكساً. إن الإنسان الكبير يعجبه إطراء من حوله، والبعض إذا لم يجد من يمدحه راح يمدح نفسه، حتى يصل حد عبادتها، والطفل الصغير أحوج لذلك من الكبير، بشرط أن يكون بالحق، فبعض

الناس يدلل طفله فيتغني بالخطأ والصواب على حد سواء.

فإذا كثر التقريع للطفل فإنه سيذل، وتسلب كرامته، وعندها يهون عليه عمل القبائح وقبول الهوان.

الطفل مخلوق غريب عن مجتمع الكبار، وهو لا يفهم الكثير مما يعملون، وقد يقول كلاماً لأنه يسمع الكبار يقولونه، لكنه لا يصح أن يصدر منه، إلا أنه لا يفقه ذلك، وقد يشاكس الطفل لإثبات موجوديته، وانتزاع اعتراف من مجتمعه، وقد يتصرف ليشعر الآخرين بأنه كبر فيشرب السجاير، أو يحاول وضع ربطة الرقبة وأمثال ذلك، وعلينا أن نتقبل ذلك وألا نعامله كطفل صغير لا يعرف شيئاً.

الطفل والأمن

الأمن هو الحياة، ولا طعم للحياة مع فقدان الأمن والأمان، والطفل من أكثر المخلوقات حاجة للأمن والأمان، ووجود الحامي الذي يحميه، وهو قد يقوم بمغامرات، ويواجه صعوبات، وعلينا أن نشعره بوقوفنا إلى جانبه ودعمه ومساعدته، لكن علينا أن لا ننسى أن نعلمه الاعتماد على نفسه، وتدبير قضاياه الخاصة، في حدود إمكاناته، وتشجيعه على ذلك، كي يثق بنفسه أولاً، ويشب معتمداً عليها، لا على الناس.

نرى بعض الأمهات ـ من حرصها ـ تتدخل في كل أمر يخص ابنها، حتى بعد أن صار شابًا، فليس من حقه اختيار ملابسه أو حذائه أو أصدقائه، فكل ذلك من مسؤوليتها هي، حتى اختيار زوجته. وكل هذا يقضي على شخصية الشاب، ويجعله عالة على غيره.

من أجل أن يشعر الطفل والشاب بالأمن، علينا أحياناً أن نخفي بعض معاناتنا وحتى أزماتنا المالية ومشكلاتنا عنه؛ لأن ذلك يقلقه جدًّا، ويسبب له توتراً.

إن مسؤولية توفير الأمن للأطفال ليس مسؤولية العائلة فقط، بل مهمة المجتمع والدولة معاً. فإذا فقد الأطفال ذويهم، أو ابتعدوا عنهم بسبب من الأسباب، فعلى الأقارب والمجتمع والدولة أن تقف إلى صف هؤلاء، ولا تتركهم وحدهم.

ولعل من مشكلات العالم الثالث ـ ونحن منهم ـ مشكلة عمل الأطفال، فهناك ملايين تعمل ما بين سن (٧ ـ ١٤) سنة، ومع أناس لا تربطهم بهم رابطة، وهذا يعرضهم إلى مخاطر وضغوط لا يحتملها الصغير

وقد يصاب بأمراض بدنية أو نفسية، بسبب العمل وظروفه، وقسوة القائمين عليه.

لذا فالتوجه العالمي سائر نحو منع ذلك، وعلى الأقل ضبطه ومراقبته، وحماية الصغار من العدوان والإذلال والاستغلال.

الطفل والهوية والانتماء

كل إنسان بحاجة إلى هوية وإلى انتماء، والواجب علينا إشعار أطفالنا بانتمائهم إلى أمتهم، وتعليمهم شيئاً من مزايا وخصائص هذه الأمة وما قدمته، مع إطلاعهم على قدر كافٍ من التاريخ، ومآثر الأبطال، لأن هذا يهيىء الطفل للإندماج بمجتمعه، والاستقرار مع الاستمرار التاريخي، وتوكيد الشعور الجمعي؛ لأنه يورث نوعاً من الأمن والاستقرار.

إن محاولة إشراك الطفل في الآمال والأهداف الكبرى لشعبه وأمته، يولد لدى هذا الصغير مشاعر الانتماء، كما تتمحور شخصيته وآماله حول بعض هذه الأهداف، وهذا ينشط من فاعليته وروحه وعقله.

الطفل رجل بالقوة

الطفل رجل بالقوة ـ بالاستعداد ـ وليس بالفعل، وهو سيكون رجلاً أو إمرأة يوماً ما، لذا علينا أن نعينه في ذلك، وذلك عن طريق تيسير الألعاب المناسبة له ولطبيعته، كما هو متطلع متشوق يحب أن يعرف كل ما حوله، ومسؤولية الأهل والمجتمع أن يعاونه في ذلك، ولكن المدن الكبرى وازدحام السكان، جعل من الطفل سجين البيت أو الفصل الدراسي، والمدرسة عبارة عن بيت كبير، يحشر فيه الصغار حشراً. أما البيوت فهي شقق صغيرة، لا مجال لحركة الطفل فيها.

تقدم أن اليابان خططت بحيث تكون المدرسة في أجمل بقعة، كما تكون أفضل الموجود، وبذلك تجذب الطالب إليها جذباً، بدلاً من أن يهرب منها إلى غيرها.

وقد جعلت أمام كل فصل دراسي حديقة صغيرة، من مهمة طلبة الفصل العناية بها وزراعتها، وإذا ما فشل طالب في مهمته، فلا ينصرف الفصل حتى يؤدي هذا الطالب عمله على الوجه المطلوب.

والمدرسة يجري تنظيفها من قبل طلبتها، وكل ذلك ترسيخاً لجماعية الحياة، وإبعاداً للأنانية والفردية.

الملاحظ أن عدوانية الصغار في تصاعد، ربما بسبب البيوت الصغيرة، يضاف لها المعلم الكبير «التلفزيون» ففيما يعرضه على الأطفال من صور متحركة وغيرها، ساهم في عدوانية الصغار إلى حد كبير.

الإنسان بين الفردية والجماعية

بعض الناس فردي يعيش في شبه عزلة، تأملي ينظر إلى نفسه وإلى من حوله، وهو لا يحب الانصهار والانخراط مع الآخرين، وإلى جانبه إنسان اجتماعي، يحب الاختلاط ويحسن كسب الأصدقاء بسهولة وسرعة.

ومن الأنماط أن نجد إنساناً على استعداد جيد لقبول التوجيه والتكيف، بينما نجد له أخاً في نفس البيت يرفض ذلك ويتأبى.

الفردي سينجح في تحقيق فرديته، حتى ولو كان في ذلك الشطط، بينما يسعى أخوه إلى الانسجام والتماثل في الأفكار والعادات مع الآخرين، ولا يتطلع للخروج على العرف الاجتماعي.

في حالة الطفل الأول سينمو ويكبر متمرداً على مجتمعه، ضعيف التناغم والانسجام مع أفراده.

أما الثاني فسيكون الأنجح اجتماعيًا، لكنه قد يصبح «إمعة» لا شخصية مستقلة له، فهو يتنازل عن خصائصه الفردية بسهولة، من أجل التجانس والانسجام مع أفراد مجتمعه.

قد يكون الإبداع من نصيب الأول، وقد تكون الريادة والقيادة من نصيبه. ومن الحق أن نسلّم بأن من حق الفرد أن يدرك الحقائق المحيطة به بطريقته الخاصة، دون ضغط أو إكراه.

تبقى قضية أن الأهل عاشوا ظروفاً وتطلعات، وربما اقتنعوا بقيم ومُثل، فلما جاء الأبناء اختلف كل ذلك، فاختلفت القناعات، من هنا يطرح البعض فكرة الزواج المبكر، والأمهات الصغيرات، فهن في ذلك يكن أقرب لفهم الأبناء وما يحيط بهم.

وكل من رزق الأولاد على كبر، فهو يضيق بهم وبحركاتهم ومطالبهم وقناعاتهم ذرعاً، وحيث يحاول أن يربي أولاده كما يجب يصطدم بعقبات وعقبات.

وأذكر قضية ملخصها: أن جدي ربى والدي كما يجب؛ لأنه كان المؤثر الكبير، الذي لا يشاركه أحد، ولكن ابني صار يستمع للمعلم والتلفزيون والفديو والصديق ويرى المجلات، ويسافر معي في الإجازات، أما أبي وجدي فلم يغادر مدينته الصغيرة أو قريته في عمره، ولم يعرف التلفزيون ولا كرة القدم.. ولا ولا.. ومن هنا اختلف المؤثر، فاختلفت النتائج.

إن بعض الآباء يريد أن يحقق شيئاً فاته، وتلك قضية نفسية معروفة، فمن فاته شيء في حياته، حاول التماسه والحصول عليه في أبنائه أو أحفاده، لذا نجد الأهل يصرون أن يدرس ابنهم علوماً ومعارف يريدونها، مثل الطب والهندسة واللغات، بينما ينفر الابن من ذلك أشد النفور، ولا يتنبهون للخطأ إلا إذا فشل ابنهم وأخفق وتعثر.

نحن بحاجة إلى إنسان شجاع، يمكن أن يضيف إلى مجتمعه تنوعاً، بشرط واحد ألا ينفر منه ويبتعد عنه، وأن يتمتع بشخصية مستقلة، وفي ذات الوقت تكون منضبطة، لا تخرج عن المبادىء العامة والقيم والأهداف المشتركة.

نريد إنساناً يفرق بين الثوابت والمتغيرات، فلا يجعل كل ماضي الحياة ثوابت فيجمد، ولا كلها متغيرات فيضيع.

القيم والأخلاق

أزمتنا فكرية أم خلقية؟
الأخلاق بين الثبات والنسبية.
كيف تضعف فاعلية القيم.
لماذا ضعفت عندنا القيم؟
سبب ارتباكنا في حل المشاكل.

أزمتنا فكرية أم خلقية؟

لا جدال في أن أمتنا تعيش أزمة عمرها قرون، يشخصها البعض بأنها فكرية، بينما يرى آخرون أنها خلقية سلوكية، وقد يرى البعض بأنها سياسية أو اقتصادية.

وقبل طرح الجواب يمكنني القول بأن المرض الجسماني متى أزمن، ولم يجد العلاج الناجع، فإنه يفرز أمراضاً هنا أو هناك، كما يصبح العلاج صعباً.

وهكذا حال أمتنا اليوم، تطاول المرض، وأفرز أمراضاً أخرى، فما السر؟ ومن أين يبدأ العلاج؟

إن تصويب الأفكار والمعتقدات ينعكس على سلوك الناس وتصرفاتهم، يُذكر أن «المعتصم» الخليفة العباسي لم يكن مثقفاً، لذا أحاط نفسه بالمستشارين، وقد توصل إلى قناعة مفادها: أن أخاه المأمون كان موفقاً في سياسة الدولة، بينما يشعر هو بالإخفاق وعدم النجاح، لذا عرض الأمر على أحد مستشاريه «المصعبي» طالباً معرفة السبب في ذلك، لكن المستشار تهرب وطلب إلى الخليفة أن يعفيه من ذلك، فلما أصر على معرفة السبب قال «المصعبي»: هل أنا آمن إن قلت الحقيقة؟
قال المعتصم: نعم.
فأجاب المصعبي: لقد اعتمد المأمون أصولاً فأنجبت، واعتمد أمير المؤمنين فروعاً فلم تنجب، إذ لا أصول لها. وهنا قال المعتصم ـ والألم يعتصر قلبه ـ ويلك يا مصعبي والله لمقاساة ما أنا فيه أسهل عليّ من جوابك هذا. عمر هذه «الاستشارة» أكثر من ألف عام، ومع ذلك فما زالت سليمة، فمن لا

فكر له، فهو يخبط ويتخبط، ولن تنهض أمة وهي تفعل ذلك.

إن الكثير من المبادىء والقيم التي جاء بها الإسلام، وكانت من بين الأسباب لتقدم أمتنا في الريادة والقيادة، جرى «صرفها» فالقضاء والقدر كان ملهماً للفداء، فكان المسلم لا يهاب الموت، وشعاره «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» فمن كتبت له الشهادة سينالها، ومن لم تكتب له فلن يموت، ولكن هذه العقيدة صارت فيما بعد وسيلة تبرير لكل تكاسل وفشل، فكل قاعد عن العمل والكسب يحتج بالقدر، وكل فاشل في سعيه يرمي سبب فشله على القدر، وهذا ما جرى لكثير من المفاهيم الإسلامية، بحيث صار القدر «شمَّاعة» للكسل والفشل، وسوء السلوك والفعل. لذا لابد من إصلاح الكثير من المفاهيم، وعلى رأسها الإيمان، فقد كانت الأجيال المسلمة الأولى تعتقد بأنه اعتقاد يصحبه عمل، حتى جاء «المرجئة» فحصروه في الاعتقاد، فصارت الأمة بجمهورها العام «مرجئة» دون أن يدعوهم أحد لذلك، لأن دعوة الإيمان القلبي ما أيسرها وأسهلها، ولكن تصديق العمل لذلك صعب، ولذا جرد العمل واستبعد من الإيمان.

وأذكر ـ من قراءاتي ـ أن الإمام البخاري ترك أخذ الحديث، عن كل شيخ لا يعتقد بأن الإيمان اعتقاد وعمل، واليوم نرى كل منافق وعلماني يدعي الإيمان ويجادل، فإذا سألته عن العمل، قال: الإيمان بالقلب، وأنا مسؤول عن ذلك أمام الله فقط.

وما أسهلها دعوى وما أكبرها، فمن يعجز عن ادعاء الإسلام والإيمان، وهو لا يتكلف شيئاً، بل لا يكف عن حرب الإسلام والطعن فيه، والوقوف ضد كل مشروع إسلامي مفيد. أما من يعتقد أن سبب أزمتنا «خلقي» سلوكي فهو يرى أن الأديان السماوية كلها تجعل للأخلاق مكانة عظمى، والإسلام على رأس هذه الديانات، يمجد الأخلاق، والله تعالى حين أراد مدح صاحب الرسالة عليه السلام ما زاد على القول: ﴿إنك لعلى

خلق عظيم﴾. وقد بين صاحب الرسالة أن الأقرب منه منزلة يوم القيامة هم «أحاسنكم أخلاقاً». أخرجه الشيخان.

ويكثر هذا المعنى في السنة المطهرة. والأخلاق هي انعكاس للعقيدة، كما هي ثمرة لتطور الأوضاع التي مر بها المجتمع.

وكما هو معلوم فالأخلاق العالية السامية تساعد المجتمع على تجاوز الكثير من المصاعب والمحن، فإذا انحطت الأخلاق وساءت، صارت المحن وسيلة للكسب والربح.

إن القيم تضبط سلوك الناس من الداخل، على حين تضبط التشريعات والأعراف السلوك من الخارج.

والتشريعات مهما تعددت، والأعراف مهما تجذرت، والتقاليد مهما روعيت، فهي تغطي مساحات محدودة من حياة الناس الاجتماعية، وعلى الأخلاق والقيم يكون ردع كل من تسول له نفسه استغلال الفراغ التشريعي، بحيث يسيء لنفسه أو مجتمعه.

وهذه المهمة أو الوظيفة للأخلاق لا يمكن أن يقوم بها نظام أو سلطة مهما كانت صارمة، فالسلطة مهما راقبت الإنسان فلابد أن تغيب، أما سلطة الأخلاق والقيم فلن تغيب، ومن هنا يمكن فهم قول المصطفى ـ عليه السلام ـ وهو يعرّف الإحسان قائلاً: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه..**» وهذه الرقابة لن يفلت منها أمر صغير أو كبير، حقير أو جليل، وهذه قيمة الأخلاق. لذا فإن الأخلاق، الشخصي منها والاجتماعي ومثله الحضاري تشكل جزءاً من عقيدتنا، فالمواقف الخلقية «تكيف» الفعل، فمن يقرب زوجته بنية طلب العفة له ولها، فله الأجر والمثوبة، وهكذا يستطيع المسلم تحويل الكثير من الأعمال اليومية إلى عبادة، إن كان عمله مشروعاً وقصد به وجه الله تعالى.

الأخلاق بين الثبات والنسبية

لا يجادل أحد في ضرورة التحلي بالأخلاق الفردية والاجتماعية، كي يشعر بصلاحيته لنيل العضوية في المجتمع الذي يعيش فيه.

والسؤال الذي عمره قرون: هل الأخلاق ثابتة أم هي نسبية تختلف من عصر إلى عصر، ومن مجتمع إلى آخر؟

الأديان السماوية كلها تؤمن بثبات الأخلاق، فالصدق فضيلة والكذب رذيلة، ولم يحدث العكس.

ويمكن القول ـ وقد صار العالم قرية صغيرة ـ بوجود مبادىء خلقية يرتضيها العالم، فهو يرفض الكذب والغش والخداع، وإن مارسه الكبار قبل الصغار، ويستهجن العالم الظلم ويصفق للعدل وهكذا. والقول بنسبية المبادىء الخلقية بشكل عام غير مقبول.

ولكن هل تستطيع المبادىء الخلقية النجاة من المحن ومن التراجع؟

هناك أمور عدة تدفع بالمبادىء الخلقية نحو الضمور والتضاؤل، بل الانهيار أحياناً، ولعل من ذلك:

١ ـ أن لكل مجتمع مجموعة من القيم، يؤمن بها، وهو يرتبها في سلم خاص به، فهناك المتقدم والمتأخر، وهذا الترتيب غير ثابت ولا مستقر، فالظروف الطارئة تعمل، وتكلفه الالتزام تعمل، وتجذر تلك القيم في الثقافة يعمل. وكل مجتمع يعمد إلى سلسلة من التوازنات، حين يعمد إلى تنزيل هذه القيم على الواقع المعاش.

ففي الغرب مثلاً حين تتعارض صلة الأرحام وقضاء وقت مناسب مع

الأهل والأقارب، مع قيمة الوقت والعمل، يقدم الإنسان الغربي الوقت والعمل على صلة الرحم.

وفي الشرق يحدث العكس.

في بعض المجتمعات المسلمة حين تتعارض الأعمال التجارية والربح مع الصلاة نجد بعض المجتمعات تبادر للصلاة، حتى تغلق الأسواق وقت الصلاة، بينما يقدم العمل التجاري والربح على الصلاة في مكان آخر لذا رأينا ومازلنا العرف في الريف قويًا، وفي المدن الكبرى أضعف من ذلك بكثير، وكذا كثير من القيم الخلقية.

٢ ـ تسلط العقل على القيم: يرى مالك بن نبي ـ يرحمه الله ـ أن الحضارة تمر بثلاث مراحل متميزة، تبدأ روحية قوية، يعطى الناس فيها عطاء جيداً مخلصاً، دون البحث عن مغنم شخصي، يعقب ذلك مرحلة عقلية، تقوم على فلسفة المرحلة الأولى عقليًا، وفي المرحلة الثالثة تهيج الغرائز فتسقط الحضارة.

فإذا تسلط العقل على القيم الأخلاقية، وراح يقسمها ويوازن بين الاحتمالات، فهنا يبدأ التحلل من الأخلاق شيئاً فشيئاً. فإذا قلنا لشخص أنت غني ولديك ثروة لماذا لا تتبرع للوقف أو الفقراء؟ يجيبنا قائلاً: فلان أغني مني ولا يعطي شيئاً، أو يقول: أنا أدفع ربع دخلي القليل، وفلان يدفع الملايين، ولكنها بالنسبة لما يملك تعادل قروشاً قليلة.

إن القيم تموت متى تسلط عليها العقل، ووازن بين الاحتمالات، والملاحظ أن هذا لا يقع في مرحلة تكون الحضارة (المرحلة الروحية)، بل في المرحلة التالية، وهو إشارة إلى ضمور الروح، وإفلاسها أحياناً. ولعل مما له دلالته الخاصة أن المحدث ـ في أواخر العهد العباسي ـ كان يتقاضى راتباً يوميًا قدره نصف درهم، على حين كان راتب المشتغل بالفلسفة ثلاثة

دراهم، أي ستة أضعاف راتب المحدث، وحين زحف المغول ودخل جنودهم بغداد، لاحظ بعضهم ـ كما يذكر ابن كثير ـ أن الخليفة يجلس وأمامه جارية ترقص، فأخذ قوسه ورمى الجارية فماتت، وهذا يعني أن الخليفة غارق وغافل عما يتهدده ودولته من خطر، حتى دفع حياته ثمناً لهذه الغفلة. إن فلسفة الأخلاق تساعد على قيام مواقف لا أخلاقية وتبريرها، والموظف يرتشي، ولا بأس بذلك؛ لأن كل الموظفين يرتشون، وهو يكذب ويتهرب من عمله، ولا بأس بذلك لأن كافة زملائه يفعلون ذلك، وهكذا يبرر كل تجاوز للقيم والأخلاق ويفلسف!!

٣ ـ لكل مجتمع مجموعة من القيم، وله نظم عبارة عن تجسيد لتلك القيم، وينبغي أن يكون السلوك العام للمجتمع منسجم مع تلك النظم والقيم.

وتكون الحياة فاعلة مادام الانسجام قائماً بين القيم والنظم والسلوك. فإذا ما انفرط هذا العقد الترابطي لسبب ما، فإن قوة وفاعلية القيم تتراجع وتضعف، وحين يصير التمسك بخلق معين كالعفة والصدق والأمانة عاجزاً عن تأمين تحقيق الذات والمكسب المادي الضروري، فإن ذلك الخلق يتعرض لضغوط شديدة، كي يتخلى عنه صاحبه، فمن أودعناه طعاماً فجاع، فسيقاوم الجوع ثم لا يلبث أن يأكل ذلك الطعام، ومن أودعنا عنده مالاً فاحتاج للمال، سيتناوله بعد ممانعة، ومن هنا صح عن صاحب الرسالة قوله: « . . . **من علامات الساعة أن تتخذ الأمانة مغنماً**».

وحين يشيع الكذب في مجتمع، وتفتقد الأمانة، يصير الصادق الأمين شاذًّا، بل ينظر إليه كإنسان مغفل، ويقوم الناس بحث بعضهم لبعض على الكذب والغش، بحجة أن الكل يفعل ذلك. وهنا تتمثل الأزمة بشكل واضح.

٤ ـ القيم والأخلاق لابد لها من مرجع، سماوي أو عرفي أو تشريعي، ولكون القيم قابلة للتأويل والتجاوز، والتقدير المختلف، فإن الفاعلية تتوقف على نوعية الإطار المرجعي، الذي تستند إليه القيم، وتستمد منه قوتها وشرعيتها.

ففي الغرب تستمد القيم مرجعيتها من التشريع، فإذا أجاز التشريع العلاقة الجنسية بين الرجل والرجل، صار العمل مشروعاً، وإذا أجاز التشريع قيام علاقة جنسية بين رجل وامرأة دون عقد ولا زواج، فالابن ـ غير الشرعي ـ يصير مقبولاً في المجتمع غير منبوذ.

وفي الأمم الوثنية، ترتكز القيم إلى العرف والتقاليد، ففي أفريقيا تبدأ المرأة العمل قبل شروق الشمس وإلى بعد غروبها، لتؤمن الطعام للزوج والأولاد، على حين لا يقوم الرجل بجهد مماثل. وتعدد الزوجات يصل في هذه المجتمعات إلى العشرات، فقد كنت في رحلة داخل «نيجيريا»، وعلى الطريق العام وجدنا رجلاً يرقص، وقد اصطف أكثر من عشر من النساء يصفقن له ويضحكن، أوقفنا سيارتنا، وحين سألنا مرافقنا عن هذه الظاهرة قال: هذا رجل دين إحيائي (وثني) وهذه نساؤه، قلنا هذا غير معقول، فبعض النساء كبيرات في السن، بينما البعض في عمر بناتهن. قال: الإنسان الأفريقي يؤمن بالتعدد، حتى النصارى اضطروا لقبول التعدد.

بل وجدنا ظاهرة غريبة، ففي هذا المجتمع المسلم، يعتبر التعدد دليلاً على كرم النفس والسخاء، والاكتفاء بزوجة دليل البخل والشح، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن الزوجة الأولى تبقى في نزاع مع زوجها حتى يتزوج ثانية وثالثة ورابعة، وقد حدثنا أستاذ للثقافة الإسلامية في الجامعة، كيف أن زوجته مازالت تلح عليه كي يتزوج، وهي تتعهد بأن تخطب له إمرأة شابة جميلة، فإن لم يفعل ذلك فهو دليل على بخله وشحه. وفي مقابل

ذلك تحتفظ الزوجة الأولى بشخصية سيدة البيت، فلا تكلف من الأعمال ما يشق، وهي السيدة الآمرة الناهية.

ومن المفارقات أني غادرت نيجيريا إلى هولندا، ومنها إلى تركيا، فتعرفت على مدرس للغة العربية، فكان مما قال: إن القانون يعتبر الزواج من امرأة ثانية جريمة يعاقب عليها القانون، لكنه لو ضبط مع امرأة ثانية فادعى أنها صديقة أو خليلة، نجا من العقاب والمسؤولية.

وقال هذا المدرس: لو تزوجت ثانية، فإن زوجتي الأولى على أتم استعداد لقتلي، وفي أضعف الأحوال ترصد لي وتأتي بالشرطة لتضبطني متلبساً بالجرم المشهود، والويل لي بعد ذلك.

كيف تضعف فاعلية القيم

قلنا إن القيم الخلقية ترتبط بمرجعيتها، فمتى ضعف التدين انعكس ذلك على فاعلية القيم، وهذا الأمر واضح في حياتنا كل الوضوح، فالقيم الإسلامية لدى جيل الصحابة كانت قوية بحيث قلت الحاجة للقضاء والمحاكم وكان الخروج على القيم الإسلامية شبه معدوم، فإذا قفزنا خمسة قرون أو عشرة، نجد الالتزام بالقيم قد خف، فالتدين يمنح القيم قوة وثباتاً، وهذا الأمر عام في كل الديانات، وحتى المبادىء الوضعية، تبدأ قوية، ولأصحابها قناعة كبيرة بها، ثم تذبل شيئاً فشيئاً، يستوي في ذلك ديمقراطية الغرب وشيوعية ماركس، ونازية ألمانيا وفاشية إيطاليا.

أما في الغرب فإن التشريع خاضع للتغيير والتبديل، وكلنا يعلم أن أمريكا حرمت الخمر يوماً، ثم عادت فأباحته، وحرمت الكنيسة الربا بأكثر من ستة بالمئة، ثم عادت وأباحته، وحرم الغرب الطلاق والإجهاض، فعاد وأباح ذلك.

فأمر التشريع بيد الأصوات والبرلمانات المصوتة، وقد تحولت فرنسا من النظام الملكي الذي عمره قرون، إلى الجمهورية بفارق صوت واحد في التصويت، فلو صوت إلى جانب بقاء الملكية لبقيت، وقد يكون هذا المصوت لا يعلم ما يترتب على تصويته من أثر.

وفي البلاد التي ترتبط بالعرف والتقاليد، فإن مأزق الأخلاق يعود إلى عدم ثبات التقاليد، فكلما اتسعت دائرة الحرية الفردية، ضعفت التقاليد، وكلما احتل التشريع مساحة أكبر، خسرت التقاليد. وهكذا نجد مفهوم الأخلاق قد انحسر في الغرب لمصلحة التشريع، وقد عاد الغرب مجدداً يفكر

بالأخلاق والالتزام بالعائلة، بعد أن انفرط العقد وضاع الكل.

في اليابان حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، كان الامبراطور ـ ابن الشمس ـ إلهاً، لا يستطيع أحد أن يقابله أو يصافحه، أو ينظر إليه، وبعد الحرب ودخول الجيش الأمريكي، صار فرداً عاديًا، وإن بقي محترماً مبجلاً. إن الدين يضعف، والتشريعات تتبدل، والأعراف والتقاليد تفتر، وكل هذا يساهم في تأزم الأخلاق، والانقسام داخل المجتمع الواحد، فإذا أخذ المجتمع في التطور والتبدل، حصل الاختلاف داخل المجتمع، فما يراه البعض حقًا وخيراً، يراه غيرهم باطلاً وشرًا، وفي دولة عربية ينقسم شعبها انقساماً عجيباً، فالبعض يتهم الحكومة بأنها «إسلامية» أكثر من اللازم، وعليها أن تخفف من هذه «الجرعة» على حين يتهمها فريق آخر بأنها تتنصل من الإسلام، وتتهرب من تطبيقه، وعليها أن تزيد من «جرعتها» الإسلامية. ولا يمكن صدق المقولتين معاً.

لماذا ضعفت عندنا القيم

حتى يسقط إنسان طريح الفراش لابد أن تتناوشه أمراض، وتضعف قابليته للمقاومة، وكذلك الأمة الناهضة، لا تنهض بقرار ولا بيوم، ولا تسقط بقرار ولا بعام.

لقد توالت علينا محن حتى وصلنا إلى ما نحن فيه اليوم، بعضها داخلي منا وفينا، والبعض خارجي، وإذا سلّمنا بما يقوله توينبي في سقوط الحضارة بأن فساداً عامًّا، يضرب أعماق الأمة في أفكارها وسلوكها وآدابها وجمالياتها، إذا سلمنا بذلك فإن أمتنا لم يضر بها سبب واحد، ولم تصب بجرح واحد، ولكن ترادفت عليها المصائب وتراكمت، وبفعل هذا التراكم والإهمال أفرزت أمراضاً جديدة وعللاً شتى. يذكر أن التتار، ذلك الإعصار المدمر، الذي هب من أقصى الشرق، واكتسح أمامه كافة الدول، لو استعدت له الخلافة العباسية الاستعداد المناسب، لأمكن صده ورده على أعقابه، ولكن ما حدث كان العكس، فالناس في بغداد ـ عاصمة العالم آنذاك ـ كان فيها جيش فسّرح لأن الدولة أرادت توفير الأموال، وكانت البيوت تضج بآلات اللهو والمعازف، والإماء والجواري تملأ البيوت، وقد تقدم أن الجنود التتار وصلوا إلى شباك الخليفة، بينما كان غافلاً، يتفرج على جارية حسناء ترقص أمامه، ولم يفق من سكرته، حتى رماها عسكري تتري فأرداها قتيلة.

وحالنا في الأندلس كان أقسى وأنكى، فبفضل حكام الطوائف، تحولنا من أمة واحدة إلى هيئة أمم، لكل مدينة أمير للمؤمنين ومنبر، البعض منا يقاتل في صفوف الأسبان ضد أخيه وابن عمه، مُقصياً قوله تعالى:

﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ . [المائدة: ٥١]. وابتداء من القرن السادس عشر للميلاد، بدأ العد التصاعدي للغرب، على حين بدأ العد التنازلي عندنا، فلما دخلنا العصر الحديث كنا في غاية الضعف والتشرذم، على حين كان الغرب في غاية القوة والتحفز.

حاول الأتراك العثمانيون أن لا تسقط بلادنا فريسة، لكن كل الذي استطاعوه تأخير السقوط وليس منعه، حتى سقطوا هم فريسة الاستعمار والأحقاد، ومازلنا ومازالوا يعانون من الأحقاد القديمة، والأخطاء المتراكمة، ومحاولة الغرب السطو على خيراتنا والتحكم في قدرنا ومستقبلنا، ويمكن للباحث أن يشير بإصبعه إلى بعض أسباب أزمتنا الخلقية:

١ ـ إن أمتنا في بداية نهضتها كانت تهتم بعبادة الله، كما أمر، والعمل الجاد لعمارة الأرض، بما تسمح به علوم العصر. لكنها مع الأيام أغرقت في العبادة، فحصرتها في أضيق معنى، بل في الطقوس الخالية من الروح.

وأهملت علوم الحياة إهمالاً ليس فوقه إهمال، حتى صار الحلاق طبيباً، والمنجم عالم فلك، ووجدنا بلداً مثل العراق، يعيش فيه في العصر العباسي بما يقرب من ثلاثين مليوناً، أفضل عيش في العالم، صار فيه ثلاثة ملايين بعد الحرب العالمية الأولى، يعيشون على حافة الفقر، ومن مجموع أربعمائة نهر وجدول أجراها العباسيون، لم يبق سوى عدد الأصابع منها، وتحولت أرض السواد إلى أسباخ وممالح لا تصلح لشيء، وإذا فتشت البلاد طولاً وعرضاً فلا تجد أكثر من مستشفى عام، وبضعة مدارس ابتدائية، وضربت الأمية الشعب فجاوزت نسبة الأميين التسعين بالمئة، على حين كانت في العصر العباسي لا تزيد على عشرة بالمئة.

٢ ـ كانت تعاليم الإسلام تزود بالقيم الخلقية، وتحث المسلم ليطابق سلوكه هذه القيم، ومع كل ما أصاب المسلم، فقد ظل الولاء للإسلام وقيمه حيًّا في قلب المسلم، لا يدافعه ولا يصارعه عقيدة أخرى، ولا قيم

غريبة، وهذا مما حمانا من الانحدار أكثر، أو الانقراض، كما انقرضت أمم قبلنا وبعدنا.

وحين زحف الغرب نحونا مجهزاً بالأحقاد التاريخية، والتطلعات الحياتية، وعلوم العصر الجديدة، كان المسلم يعيش ظروفاً صعبة، وانهياراً حضاريًا لا مثيل له، فهو مثلاً فاقد الوعي لذاته وما عنده، وهو فقير جاهل، تضربه الطائفية والعشائرية، وتفترسه الخرافات والأمراض، عاجز عن توفير لقمة العيش، وكل هذا وغيره انعكس على خلق الإنسان المسلم وفكره ونشاطه، انعكاساً قبيحاً بشعاً، فالفصل بين القيم وأمور الحياة، ووسائل الكسب والإنتاج، والضغوط الاقتصادية والسياسية، كلها تتداخل وتتفاعل، ثم تفرز سلوكاً.

٣ ـ حين احتك المسلم بالغرب وحضارته الصناعية، حصل له انبهار بكل ما عند الغرب، وما لديه من قيم ومُثل.

وفي مثل هذه الحال يصعب جدًّا التمييز بين المفيد النافع والضار المؤذي، ويصعب التمييز بين ما ينبغي أخذه واقتباسه، وما ينبغي البعد عنه وتركه.

فالغرب لم يكن هذه المرة ـ كما في الحروب الصليبية ـ مجرد غاز، بل جاء يحمل معه علوماً ومعارف وقيماً وعقائد.

وكانت النتيجة نوعاً من الدهشة والحيرة لدى عموم المسلمين. ومن احتك بالغرب وحضارته جاء ليبشر بها، وبكل ما رأى، وتحول الكثير إلى وكلاء لترويج وتسويق بضاعة الغرب كلها، حتى قال ضياء كوك ألب: إنه يريد نقل كل ما لدى الغرب، حتى الجراثيم التي في البطون، واشتعل الحماس بين الطوائف غير المسلمة، فاندفعت نحو الغرب بكل جرأة وقوة، تروج له ولاستعماره وقيمه وكل ما عنده.

من جانب آخر كان الاستعمار الغربي مصمماً على تدمير النظم الاجتماعية حيثما حل، كما عمل على محاربة الثقافة الخاصة، وعمل على احتقارها، دافعاً بقيمه إلى تلك البلاد المفتوحة المنهوبة، ولأن الغرب كان قد دخل في حرب مع الكنيسة، كانت فيه الخاسرة، لذا جاء يحمل حرباً للدين وما يمت إليه بصلة، ثم حدث ـ في العالم الإسلامي ـ أن كانت المقاومة والثورات إسلامية، لذا فقد اعتبر الإسلام وقيمه العدو الأول، وضع الاستعمار البريطاني في الهند قواعد لأخذ الموظفين، وبموجبها يفضل أن يكون الشخص غير مسلم، فإن تعذر فينبغي أن يكون غير متدين، فإن تعذر فينبغي أن يكون مؤمناً بالغرب وقيمه، فإن تعذر فتعطى الوظيفة لمسلم ويعطى أقل أجر ممكن.

وعقد الاستعمار تحالفاً مع كافة الأقليات الدينية والعرقية، كي تخدمه ويخدمها، ومازال الكثير منها يتذكر «شهر العسل» ويحافظ على تلك الروابط ويتوارث ذلك الحب جيلاً بعد جيل.

كان الغرب ينشر قيمه، فقد جعل العلم بديلاً للدين، وروج شعاره القديم: العالم لا يكون متديناً، والمتدين لا يكون عالماً.

وروج للمتعة والاستهلاك والسيطرة على الطبيعة وقهرها، وقد تقبل ـ ومايزال ـ كثير من أبنائنا كل مايصدر عن الغرب، ظنًّا منهم أنهم سيلحقون به، ويتقدمون كما تقدم، ومع مضي أكثر من قرن مازلنا نراوح في مكاننا، ولم نتقدم إلا في الشكل والصورة، واستهلاك ما يسمح الغرب به وبيعه علينا، ومعلوم أن من يستهلك منتجات حضارة، فلا يعني أنه تحضر وإلا فإن العالم منذ عشرات السنين يستهلك ما ينتجه الغرب وحضارته، ولم يتقدم إلا من أخذ بشروط التقدم. لقد بقينا زبائن للغرب وحضارته، والزبون مجرد مستهلك، فإذا كان غنيًّا صار مسرفاً سفيهاً، قد يحتاج إلى من يحجر عليه.

إن بعض أبنائنا ألحد، والبعض «تعلمن» والبعض صار كالغراب الذي أعجبه قفزات العصفور ورشاقة حركاته، وجمال مشي الحمامة، فأراد الجمع بين الاثنين، فصارت مشيته أقبح مشية، فلا هي قفز كالعصفور، ولا مشي كالحمام، ولكنها «هركلة» قبيحة.

وهكذا تحول الكثير من أبناء المستعمرات إلى «غربان» فراحوا يحاربون الدين، ويضغطون على قيمه، ويسخرون من الآخرة، ومن كل عمل مشرف قدمته أمتهم وأجدادهم، وهم ينسلخون من جلودهم يوماً بعد يوم.

ولعل فيما كتبه المؤرخ البريطاني عن الأتراك الجدد خير دليل إذ يقول وهو يتحدث عن مأساة الأتراك في العصر الحديث، فقد حرضهم الغرب ليثوروا على دينهم وتاريخهم، على أمل «التغرب» فلما فعلوا كل ذلك احتقرهم، وبذا خسروا أصالتهم ولم يربحوا شيئاً.

يقول توينبي[1] : (... هاهم الأتراك يحاولون إقامة صورة طبق الأصل لدولة غربية، وشعب غربي، وعندما ندرك هدفهم الذي رموا إليه، لا نستطيع إلا التساؤل بحيرة: هل يبرر هذا الهدف حقًّا الجهد الذي بذلوه في صراعهم لبلوغه؟

من المؤكد أننا لم نكن نحب التركي التقليدي «المسلم المتحمس» لقد استطعنا أخيراً أن نحطم سلاحه النفسي، وقد حرضناه على القيام بهذه الثورة المقلدة، والتي استهلكها الآن أمام أعيننا.

وبعد أن تغير التركي بتحريضنا، وتحت رقابتنا، وبعد أن أصبح يفتش عن كافة الوسائل التي تجعله مشابهاً لنا ولشعوبنا الغربية، الآن نحس بالضيق والحرج، بل نميل إلى الشعور بالسخط والحنق. إن بإمكان التركي أن يقول لنا: إنه مهما فعل فهو مخطىء في نظرنا، وهو قادر على ترديد مقطع

---

(١) الإسلام والغرب والمستقبل، ترجمة د. نبيل صبحي، ص ٥٠ لعام ١٣٨٩هـ.

من كتابنا المقدس «لقد نفخنا معكم في القرب فلم ترقصوا، وحزنا معكم فلم تبكوا».

ما الذي سيكسبه التراث الحضاري، في حالة عدم ذهاب جهود الأتراك سدى؟؟ أي في حالة نجاحهم فرضاً؟ إن هذه النقطة تكشف طبيعة حركة «المقلدين» وهي تكشف عن ضعفين:

١ ـ الحركة التقليدية متبعة دوماً، وليست مبدعة، لذا فهي إذا نجحت جدلاً، فلن تزيد إلا كمية المصنوعات، في المجتمعات المقلدة، بدل أن تطلق شيئاً من الطاقة المبدعة في النفس البشرية.

٢ ـ في حالة النجاح الباهت، وهو أقصى ما يمكن للمقلد الوصول إليه، سيكون هناك خلاص ـ مجرد خلاص ـ لأقلية ضئيلة في أي مجتمع يتبنى طريق التقليد) اهـ.

التركي وغيره يحرض ليثور، فإذا ثار احتقر وأهمل، وأسيئت معاملته!!

سبب ارتباكنا في حل المشكلات

مشكلاتنا لا تجد الحلول المناسبة السريعة، ومع التطاول الزمني، يصير للمشكلة الواحدة إفرازات واختلاطات.

ومما نعانيه في معالجة قضايا الإنسان، تجزئة أعماله، والفصل بين مجالات نشاطه الحيوي، فنعالج القضية سياسيًا ونهمل بعدها الاقتصادي، أو نحاول حل القضية اقتصاديًا ناسين بعدها الاجتماعي وهكذا.

حتى صار فهمنا لقيام المشكلات، وآلية الحل في ارتباك واضح، فأي مشكلة تطرح لا نجد الصورة ولا الحل متقارباً، البعض مشرِّق والآخر مغرِّب، بعبارة موجزة نحن نفتقد الإجماع الثقافي، وفي بلاد كثيرة الإجماع السياسي كذلك، ولنضرب أمثلة:

١ ـ كثيرون يدعون للأخلاق والقيم، لكنهم لا يتوقفون عند الواقع الذي يعيشه الناس، والذي يجعل من الاستقامة والبعد عن المحرمات مأزقاً، بحيث يصير صاحبه فقيراً؛ لأن الواقع يفرض عدم الاستقامة، فهذا الموظف صاحب العائلة والمرتب القليل، والذي لا يكفي لأجرة السكن، كيف يعيش عفيفاً شريفاً لا يسرق ولا يرتشي، ويعيش عيشاً مناسباً؟ وهذا الإنسان أو الطفل المشرد أو المتسول، كيف ينشأ شريفاً عفيفاً؟ إن البعض ممن يمارس النصح والوعظ يعتقد أنه أدى كل ما عليه بمجرد النصح والكلام.

٢ ـ قضية التنمية ـ وهي قضية القضايا ـ وهم من أكبر وأعظم همومنا، لقد اعتمدت الدول التنمية وجعلتها من همومها الكبرى، ومع ذلك فلولا بعض النجاح في بعض دول الخليج، لحكم على التنمية بالفشل التام، فالتنمية تتطلب الثقة، لذا رأينا لجنة أمريكية تأتي إلى مصر، فتوصي

أولاً وقبل كل شيء، أن تنطلق التنمية من (المسجد) ليثق بها الناس، ولو قلنا هذا لقال البعض هؤلاء دراويش، يريدون ربط كل شيء بالإسلام، حتى التنمية.

فإذا كان الحاكم يصف الإسلام في كل خطبة بالرجعية، ويتحدث عن شيوخه بأنهم يقدمون الفتاوى للناس في مقابل «فرخة» وأنه أقام وحدة لم يستطع الإسلام أن يقيم مثلها، إذا كان هذا «العسكري الفاشل» الهارب من عسكريته للسياسة، كي يتمتع بلذة الحكم، إذا كان هذا هو تاجر التنمية فمن يثق به؟؟

لو طلب هذا الحاكم مني قرشاً لفضلت رميه في البحر على تسليمه له. لقد اقتلعوا التنمية من إطار مرجعيتها (الديني) بعد أن قضوا عمرهم في هدم هذا الإطار، زعماً منهم بأنه المعوق للتنمية، وجعلوا همهم الأكبر إرضاء هذه الدولة أو تلك، ولو بإعلان الحرب على الإسلام وأهله، وحشر الألوف في السجون، وتعليق البعض على أعواد المشانق.

إن المسلم يرى بأم عينيه قيمه تقتل عمداً، ليجري زرع قيم، أقل ما توصف به أنها فرعية هامشية، بينما تغتال وتذبح قم عمرها ألف عام، يثق بها الفرد المسلم، ويتمنى لها السيادة، وقد لا يرضى عنها بديلاً.

٣ ـ عمارة الأرض والتقدم الحضاري: المسلم مطلوب منه تحقيق هدفين كبيرين في حياته:

الأول: أن يعبد الله تعالى كما أمر من غير زيادة ولا نقص: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾. [الذاريات: ٥٦].

هذه العبادة لا تقبل الابتداع، ولا تقبل إلا إذا جاءت موافقة للشرع والعبادة ـ كما هو معروف ـ تأتي على معنيين: معنى عام وخاص.

فكل عمل مشروع قصد به المسلم وجه الله تعالى فهو عبادة. والمعنى

الضيق هو العبادات المعروفة من صوم وصلاة وحج وزكاة. وقد مضى الصحابة ومن بعدهم على الالتزام بالاثنين، فلما انحسر المد الإسلامي، اكتفى جمهور المسلمين بالعبادة بالمعنى الضيق، ومالوا للطقوس والشكليات، وغالوا فيها أحياناً.

الهدف الثاني: وهو عمارة الأرض ﴿هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾. [هود: ٦١].

هذا الهدف الكبير موازٍ للعبادة، وقد سجلت أمتنا خلال نصف قرن، ما لم تسجله أمم مماثلة خلال قرون، فكنا قادة العالم في العلم والمعرفة، وصارت بلادنا جنة وارفة الظلال. لقد كانت الأندلس تضاء شوارعها، وتمتلىء بالمدارس والحمامات على حين كان الإنسان في «باريس» ينام على القش، ويشاركه السكن حيواناته، ويعتبر الحمامات أماكن نجاسة لا يصح الاقتراب منها، وكل طالب علم يريد أن يبرز فعليه التوجه إلى قرطبة أو بغداد أو القاهرة، ليتلقى العلم مجاناً، ودون نظر إلى دينه أو جنسيته، ومازالت شكوى ذلك القس الأسباني من بني قومه الذين يتعلمون العربية ويهملون لغتهم، ولا يقرؤون سوى الكتب العربية.

وحين جاء التتر زاحفين على بغداد، وجدوا ثروة لا تحصى من الكتب، ويقول «ديورنت» في قصة الحضارة: إن مكتبة الصاحب بن عباد الشخصية كانت تحوي من الكتب أكثر مما تحويه كافة المكتبات العامة في أوروبا كلها.

وحين استولى الأسبان على الأندلس أقاموا محرقات عامة في الساحات لكتبنا، وقد استطاع شخص أخذ أكثر من تسعة آلاف مجلد من محرقة واحدة، ومع ذلك الإتلاف فمازال تراثنا يشهد لنا بالتقدم الحضاري.

ولكن مع توالي النكبات والحروب، وتسلط حكام السوء، فقد باشرنا

التخلي عن العمارة شيئاً فشيئاً، واقتصرنا على العبادة، وفي أضيق معانيها.

والمسلم في الماضي واليوم وربما غداً، لا ينشط لعمارة الأرض، وتنمية الموارد، والاشتغال بالحضارة، إلا إذا مر هذا عبر صلته بالله تعالى ومنهجه الذي يدين له بالولاء والطاعة، فنحن نعتقد أن الدنيا مزرعة الآخرة، فالزرع هنا والحصاد هناك ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾. [القصص: ٧٧].

فعلى «الحادي» الذي يريد منا أن نساهم في الحضارة وعمارة الأرض، عليه أن يحدونا بشيء حبيب إلى قلوبنا، قريب من عقولنا، وإلا فسيكون كمن قال: (مؤذنها تركي وهندي خطيبها).

أما الإنسان الغربي ـ وهو قدوتنا ونموذجنا ـ فإن الدين عنده قد ذهب، وقد شطر الحياة شطرين، واحداً للكنيسة، فهي تتولى الصلاة لمن حضر، كما تقوم بالوصايا وبعض الأحوال الشخصية، أما ما سوى ذلك فقد صار للدول تفعل فيه ما تشاء، ولا تسأل إن كان فعلها يرضي الله أو يغضبه، باختصار، الله تعالى يحكم في السماء ـ عند من لايزال يعتقد بوجوده ـ والدولة تحكم في الأرض، وسموا هذه القسمة «العلمانية».

فالشخص في الكنيسة مؤمن، وفي خارجها لا يعرف الله، ولا يسأله رأيه فيما يقول أو يفعل.

إن الإنسان الغربي الذي فك ارتباطه بالدين، ووثق صلته بالدولة، صارت قضية الدين عنده هامشية، على حين تحتل الطبيعة والسيطرة عليها وقهرها أكبر مركز في عقله ومنهجه وثقافته، وقد دفعه هذا إلى العناية بالدنيا وأمورها، ونسيان الآخرة ومتطلباتها.

يقول أحد المفكرين: إن الإنكليز يعبدون الله يوماً في الأسبوع، ويعبدون بنك (بركليز) بقية الأسبوع، ويقول الفيلسوف المتغطرس «نيتشا»

إجمع إجمع ذلك هو الشريعة والقانون، أي اجمع المال فهو كل شيء.

ويقول «ماركس» إن اليهود لا يعبدون الله ولكن يعبدون الكمبيالة.

إن الإنسان في الغرب يعيش دنياه بالطول والعرض كما يقال، ويمارس كل ما يحلو له من المتع دون حسيب ولا رقيب، ولقد شاهدت حواراً بين قس ومفكر، في قناة في لندن، كان البحث يدور حول زواج الرجل من الرجل، وانسحب إلى الزنا بالأقارب، فلم يذكر القس أن الدين يمنع ذلك، بل بقي يدور حول الآثار السيئة لهذا العمل، وكأنه ممنوع من ذكر هذه الحقيقة، التي تتواطىء عليها كافة الأديان السماوية، وغير السماوية.

فإذا تجهم «وعاظ» التنمية عندنا للإسلام وقيمه، فإن عمارة الأرض والاشتغال بالحضارة ومستلزماتها، لن يحقق إلا كما حقق «تجار» الاشتراكية، من القضاء على الغنى والأغنياء، وإبقاء الفقر والفقراء على فقرهم، وزيادة عدد اللصوص ممن يملك الملايين، ويتاجر بكل شيء من كرامة الأمة إلى أعضاء الإنسان، والبضاعة الفاسدة المغشوشة.

لقد انقسمت مجتمعاتنا إلى مجموعتين: مجموعة أقبلت على الدنيا ومباهجها، وهي تعمل ليل نهار لكسب أكبر قدر ممكن، عن طريق الحلال أو الحرام، أضر ذلك بشعبها وأمتها أم لا، فهم كما قال تعالى: ﴿الذي جمع مالاً وعدده. يحسب أن ماله أخلده﴾ ملايين ترص وتوضع بالبنوك وتؤخذ عنها الفوائد، وليكن بعد ذلك ما يكون!!

أما المجموعة الثانية فمازالت تتمسك بالإسلام وقيمه، لكنها لا تجعل عمارة الأرض من همومها ولا من مهماتها.

يذكر لي صديق طبيب أن مواطنين في الخليج يحضرون متأخرين عن الدوام ساعات، وهم أطباء، وإذا أذن لصلاة الظهر أسرعوا للمسجد، فإذا

انتهت الصلاة انصرفوا إلى بيوتهم.

وهناك آخرون يحرصون على الصلاة جماعة، ولا تفوتهم تكبيرة الإحرام مع الإمام، لكنهم ليس لديهم مثل هذا الحرص على الدوام والانصراف، البعض يحج ويعتمر سنويًا، وينفق في ذلك مبالغ كبيرة، فإذا طلب إليه أن يساهم في مشروع يخدم مواطنيه يتثاقل ولا يقدم شيئاً أو يقدم الأقل مما يستطيع.

وقلَّ أن نجد في عالم اليوم من يعبد الله تعالى كما أمر، ويساهم في عمارة الأرض كما يستطيع أو كما ينبغي.

فالإنسان في الغرب واليابان صارت الدنيا كل همه، ومحط نظره وعنايته، على حين صار بعض المسلمين معنيًا بالعبادة فقط، وقل أن نجد من يجمع بين الهدفين: عبادة الله وعمارة الأرض.

والسؤال الذي يفرض نفسه: هل يمكن أن نجعل من الفرد المسلم رجل دنيا وآخرة كما كان أجداده يؤدون العبادة ويسهمون في عمارة الأرض؟ كيف ذلك؟ وما السبيل؟

١ ـ لقد عانى الفرد المسلم من ألوان من الخسف والاضطهاد، منذ أواخر العهد العثماني حتى اليوم، وجاءت الدولة القومية، فكانت أشد عليه من سائر العهود، ويكفي أن يقف حاكم ليخاطب شعبه قائلاً: لقد خلقت فيكم العزة والكرامة، وهو خطاب لم يسمعه شعب من قبل، يضاف لهذا الفقر والحاجة والتخلف وما يحمله، لذا صارت التربية: سلّم تسلم ولا تحارب من إذا قال فعل، وكل من تزوج أمي صار عمي، لقد راحت أجيال تربي أولادها وأحفادها على الاستسلام، وقبول القهر، فصار المسلم المقهور يشعر بالمهانة، ويروض أولاده على قبولها والتسليم بها، باعتبارها قدراً لا مفر منه. وهذا مما يجعله يتقبل أشياء كثيرة يستنكف ويأنف منها

غيره، ويكفي أن ننظر إلى أولئك الذين يذهبون للغرب من عمال وطلبة، فهم يقبلون من الأعمال ما يرفضها المواطن الغربي، كما يقبلون بأقل أجر، في بلد منكوب بحاكم يشرد الشعب، ذهبت مجموعة من الأطباء إلى بلد، طلباً للعمل، فقيل لهم: لا يوجد من الأعمال سوى التدريس ببعض المدارسة المتوسطة، فقبل هؤلاء الأطباء العرض، فلما أخبروا بأن العمل هو في قرى لا يتوفر فيها الكهرباء ولا الماء، قالوا: رضينا، فقال لهم رجل: ما هذا؟

قالوا: يكفي أن ننام بأمان فلا تتخطفنا المخابرات ليلاً، يكفينا رغيف خبز مع أمان، فلن نموت جوعاً، لكنا قد نموت من الرعب وانتظار الموت!!

ولا أدري كيف يمكن أن تستثار حماسة إنسان ونخوته، وهو يعاني من القهر والذل ليل نهار، ومن حكومته وزبانيتها، وليس من أجنبي محتل.

سمعت شابًا فلسطينيًا يقول: حين يضربني اليهودي أقف في وجهه، وأشعر مع ذلك بالكرامة، ولكن حين تضربني الشرطة الفلسطينية أشعر بذل وإحباط لا مثيل له.

لذا ينبغي العمل بإخلاص لجعل المسلم يشعر بكرامته، وقدرته على الحصول على حقه، وأهليته للقيام بكل الأعمال، فهذا أمر أساسي لبناء شخصية أخلاقية، تعتز بنفسها وكرامتها، وترفض القهر والإهانة.

لقد كنت في زيارة لجمهورية جنوب أفريقيا، يوم كانت العنصرية قانوناً يطبق، وخلال نقاش مع بعض الأشخاص البيض لاحظت أنهم يرددون حجة واحدة: أن الأسود غير مؤهل لحكم البلاد. قلت من أين يأتي التأهيل ومتى؟ إذا كنتم تحتكرون الوظائف والأعمال، ولا تتركون للسود إلا الأعمال الشاقة الحقيرة؟ ولاحظت أموراً عجيبة فالإنسان الأسود منبوذ

بكل معنى الكلمة والقانون يمنع اجتماع أبيض وأسود في مكان واحد، فإذا جلس إنسان أسود، وجلس إلى جنبه شخص أبيض، فعلى الأسود مغادرة المكان فوراً، فإن ضبطته الشرطة على هذه الصورة، كتبت فيه مخالفة وأحالته للقضاء، ولو دافع بأن الأبيض أتى متأخراً، وجلس إلى جانبه، فالقانون يوجب على الأسود أن يغادر المكان فوراً.

وخلال هذه الزيارة كتبت الصحف أن مديراً لمصنع مات، فأقامت الكنيسة قداساً ـ صلاة جنازة ـ وحينما لاحظ القس وجود شخص أسود توقف، وطلب إلى الأسود النصراني أن يغادر، فلما رفض، توقف القس عن إكمال القداس. ولقد سمعت من مسلم أبيض قوله: إن العمل من نصيب الأسود، وأجرته قليلة كأن تكون «رنداً» واحداً، بينما يتولى الأبيض الإشراف، وتكون أجرته مائة رند وهكذا.

لقد كانت سياسة مرسومة، تعطي الكرامة والبيت والوظيفة الجيدة للأبيض، والفقر والمهانة وقلة الأجر للأسود، ثم يقال بعد ذلك أنه غير مؤهل!! فمن أين وكيف يحصل التأهيل؟ إن الإنسان المضطهد المهان المسلوب الكرامة، لن ينصر حقًّا ولن يحارب باطلاً، كما لا يهمه أمر الوطن ولا كرامة الأمة، وقديماً قال الشاعر:

لا أذود الطير عن شجر   قد بلوت المر من ثمره

وإن وطناً لا يحفظ كرامة مواطن ولا يعامله إلا كرقيق مملوك، لن يضحي من أجله، ولن يبكيه من يغادره ويهجره، فقد أوجب الله على المضطهدين المقهورين الهجرة، وهو يعاقبهم إن لم يهاجروا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾. [النساء: ٩٧].

٢ ـ دخلنا التاريخ أمة تعلن الشورى وتتمسك بها، وخلال

مفاوضات بين قوات الفتح الإسلامي للعراق، مع قائد الفرس، قال المفاوض المسلم بعد انتهاء المفاوضات: أريد أن أستشير أصحابي، سأله القائد الفارسي: ألست القائد؟ قال: بلى، قال الفارسي: فنحن لا نشاور أحداً في قراراتنا، فرد المفاوض العربي: ونحن لا نولي من لا يشاورنا. ومع تقدم القرون سقطت الشورى، وتبدل نظام الحكم، حتى صدق في ذلك قول المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«لينقض عرى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، وأولهن نقض الحكم، وآخرهن الصلاة»**. أخرجه الإمام أحمد ٥/٢٥، كما أخرجه السيوطي عن الحاكم.

ونتيجة لهذا التطور، راحت فاعلية الفرد المسلم ومشاركته تضعف يوماً بعد يوم، في مختلف أمور الحياة، كبيرها وصغيرها، فجمد الكثير من أخلاقنا وسلوكنا، وضعف تحمل المسؤولية إلى أبعد الحدود، لذا فمن الضروري العمل لدفع الفرد ينخرط في الحياة العامة، ويتعود تحمل المسؤولية، فهذا متى تحقق وحصل، فسوف يدفع بسلوكنا إلى نوع من الفاعلية والإيجابية، ويشحذ فاعليتنا الروحية، ويعيدنا إلى المساهمة في الحضارة، وهذا إن حصل فسيخفف من الشعور بالإقصاء، الذي تشعر به جماهيرنا، كما يخفف من التلاوم وإلقاء التهم، وإلصاق الوضع السيء بالحكام أو بعض القادة، مع التهرب الدائم من التبعات.

إن الشباب في كل مكان يحمل طاقات وتطلعات، وهو يبحث دوماً عن قنوات ليعبر فيها عن نفسه وأمانيه وتطلعاته، فإذا سدت الطرق فلابد من الانفجار، وما يحدث اليوم في بعض البلاد العربية من اقتتال، يمكن فهمه أو تفسيره في هذا الإطار، فالماء المندفع يمكن التحكم فيه بشكل أفضل عن طريق التحكم في القنوات، وليس مجرد وضع التراب أمامه، لأنه سيأتي الوقت الذي يجرف الماء التراب، فيغرق ويخرب، ويهلك الحرث والنسل،

فهل من مستمع؟

إن الطاقات لابد من تصريفها بالخير أو الشر، بالحق أو الباطل. والأسد والذئب والفيل، قد يدخل «السيرك» قد يتحول إلى حيوان آخر، لكن لا أحد يمكنه تصنيع «سيرك» لشعبه وتحويله إلى مجرد «دمى» يحركها كيف يشاء، وإن حركه يوماً أو سنة، فلن يحركه أبداً.

الإنسان صاحب عقل وإرادة، وعلى من يريد أن يقوده أن يتعامل معه كذلك، وليس كخروف يساق إلى المذبح، ولا كثور هائج، ليس له من حل سوى قتله والتخلص منه.

إن بعض حكامنا يتصور شعبه كفصيل من الجند، مهمته أن يصدر التعليمات، ومهمتهم تنفيذ الأوامر، ولا شيء فوق ذلك ولا بعد ذلك. البعض يعتقد أن بإمكانه إرشاء الكل بما يلقيه من فُتات، والبعض يريد أن يحكم كما حكم أجداده، قبل قرون، ناسياً أن الدنيا تغيرت، وإذا سألته هل يرضى أن يعيش كما كان أجداده يعيشون؟ مط شفيته، واستغرب لهذا السؤال الغريب.

مقياس الفاعلية

لو كان هناك مقياس لفاعلية الأفراد، فقسنا به الشعوب الإسلامية عموماً والعربية خصوصاً، فماذا سنحصل؟

من المعروف أن الموظفين عليهم أن يداوموا مدة لا تقل عن ثماني ساعات يوميًا، وقد قامت لجنة من هيئة الأمم باختبار على موظفين في دولة خليجية، فتبين أن الموظف يعمل ساعة وربع فقط، وفي دول عربية كبيرة، يوجد على ملاك الدائرة عشرة من الموظفين، لا يوجد منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة، والباقي (يعدد أياماً ويقبض راتباً)، وفي الحقيقة يموت موتاً بطيئاً، فهو معدود من الأحياء وليس منهم!!!

وما لم تشمل الفاعلية أكثرية شعبنا، وما لم تفتح له قنوات المشاركة، فسنبقى على هامش الحياة، نعيش كما تحيا وتعيش بعض القوارض، ليس أكثر.

٣ ـ الإنسان قادر على تأويل القيم، والقفز فوقها وتجاوزها، ثم إلقاؤها عمليًا لا قوليًا، وخُلق المسلم يمكن أن يصاب بصعقة كهربائية مدمرة، متى توفرت ظروف سيئة تسمح بذلك، بحيث تصير الفضائل والتمسك بها مجلبة للمصاعب والمشكلات، بل النشوز في المجتمع، وقد تجعله يشعر بأنه ضحية لما يحمل من معان خلقية، يؤمن بها ويلتزم.

فالصادق في مجتمع الكذبة، والعفيف في مجتمع الرشوة، والمستقيم في مجتمع منافق يصير «حامل السلم بالعرض» كما يقال.

إن الترف والفقر هما العدو الأول للأخلاق، فالمترف يغريه ماله وجاهه بعدم الالتزام، والفقير يريد الالتزام الخلقي فيمنعه فقره من ذلك،

فإذا صار المجتمع كله غنيًا ـ وهيهات أن يحصل ـ أو كان كله من الفقراء، فالحال أفضل، ولكن إذا ارتفع ناس إلى الترف، والتصق آخرون بالتراب، فهنا الكارثة.

فالفقير ينظر بعين إلى الغني وكيف يعيش، وينظر بعينه الثانية إلى معاناته وكيف يعيش؟ وهنا تصدق مقولة (كاد الفقر أن يكون كفراً) ومقولة ابن حزم الظاهري ـ قبل ما يزيد على ألف عام ـ: (عجبت لمن لا يجد طعام يومه، كيف لا يخرج حاملاً أو شاهراً سيفه)!! صحيح أن الله تعالى قسم الأرزاق، فجعل بعض الناس أغنياء فامتحنهم بذلك، وجعل البعض فقراء فاختبرهم بذلك، ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريًا﴾. [الزخرف: ٣٢]. إلا أن المجتمع والدولة عليهما أن يساعدا الفقراء، ومن في حكمهم، كي يجدوا فرصاً للعمل، ويبتعدوا عن الفقر المذل، وذلك بتأمين الضروريات من العيش الكريم، فإن أغمض المجتمع طرفه، وراحت الدولة تتشاغل بالإنفاق على الأنشطة التي لا تهم المجتمع ككل وتغض الطرف عن التجار وتلاعبهم بالأسعار، فإن الثقة بالدولة تموت، والولاء لها يتبخر، والمحبة للحاكم تصير كرهاً وزقوماً.

إن بعض ما تعانيه دول عربية معروفة، يمكن أن نجد له تفسيراً هنا، وليس في التحريض الخارجي أو غيره.

إن بعض شعوبنا اليوم ترى الرشوة جهاراً نهاراً، والاحتيال على قدم وساق، والكذب والنفاق، والمتاجرة بالكرامة، وحتى بالأعراض تحت عنوان «السياحة» أو غيرها، فكل هذا يعني أن معول الهدم قد نشط في هدم ودك سور الأخلاق، وتحطيم الحصن الذي تتحصن فيه. وعندها لن يجدي بكاء الباكين، ولا وعظ الواعظين، وفيما حدث للأندلس يكفي عبرة واعتباراً، وما تعانيه مجتمعات تنام على أصوات الانفجارات، لتصحو على

رصاص القنص والاغتيال عبرة. إن منظومة الأخلاق تحتاج إلى من يسقيها، كما يحتاج النبات للماء كي يعيش، فإذا سقينا المجتمع بالإهمال وبالفقر، وسمحنا لكل من يريد الغنى والترف أن يصل إليه، عن أي طريق يشاء، فلنقرأ السلام على الأخلاق، وإن بقينا نتغنى بها قولاً، لأننا نقتلها بالفعل، ولأمر ما قال الحق: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾. [البقرة: ١٨٨]. ولعل أصدق مقولة تركتها لنا الماركسية: (إن الحكم يوصل إلى الغنى والمال يوصل إلى الحكم). قنوات يوصل بعضها إلى بعض!!

وما نراه في بعض البلاد العربية يجسم هذه المقولة أكبر تجسيم، فلا يستطيع إنسان عمل مشروع ناجح، حتى يجعل خلف ظهره مسؤولاً كبيراً، ولقد شاع في المجتمع «هذا مدعوم» حتى تصور البعض أن توظيف عامل نظافة في الشارع بحاجة إلى دعم، وكل دعم خلفه «قبض» وإلى الله المشتكى، ما هو أدهى وأمر من كل ما تقدم، ولكنها مناطق «محرمة» فإلى الله نشكو، وبه وحده نستغيث.

٤ ـ ميزانيات الدول العربية معروفة، وبنودها كذلك، وهي بين فقيرة لا تساوي ما يصرف على القطط والكلاب في الولايات المتحدة أو فرنسا، وبين ميزانيات كبيرة، وصل بعضها إلى الحزب الاشتراكي في أستراليا، وإلى الجيش الجمهوري في إيرلنده، وإلى بناء الأوبرا وتخصيص الملايين للسياحة أو كرة القدم، وحتى رشوة الفنانين والفنانات، ولكن هل هناك بند واحد، أو حتى ربع بند خصص لمحاربة الكذب والغش، والرشوة والتبذير، أو عقوق الوالدين أو قتل الوقت، أو تبذير الأموال في كازينات فرنسا أو غيرها؟؟

إن على وسائل الإعلام والمؤسسات التي تعنى بسلامة المجتمع، أن

توجد آليات لنقد الاستهتار الخلقي، وتشجيع المواقف النبيلة والتنويه بقوة بكل شريف عفيف، حتى نغرس في الأجيال القادمة القيم النبيلة النافعة، ونقبح في أعينهم كل تصرف لا أخلاقي مهما كان وكان فاعله.

وجدت صدفة بعض الموظفين في وزارة، في دولة خليجية يعملون ليلاً، كما يعملون يوم الخميس، وتحريت إن كان هذا بأجر إضافي، فعلمت أنه من باب التطوع فهزني، فكتبت ذلك لبعض الصحف فتجاهلت النشر، وكتبت إلى المسؤول عنهم طالباً التنويه والشكر ليتشجع غيرهم، فلم يستجب أحد، علماً بأن الشكوى تبلغ عنان السماء، من تهرب الموظف، وعدم التزامه بالدوام، وتكاسله في أداء الواجب، فما السبب لتجاهل مثل هذا العمل الجاد الطيب؟ علماً بأني لا تربطني بهؤلاء رابطة عمل أو غيره، ولا أنتظر من ذلك نفعاً ولا مغنماً.

السبب في نظري عدم تعودنا على مثل هذا العمل، وربما عدم تقدير النتائج المترتبة على مثله.

٥ ـ كما يحتاج الطفل لقدوة يقتدي به في سلوكه، سواء أكان قدوة حسنة أم سيئة، فكذلك المجتمع يحتاج دوماً لقدوة، لكن القدوة التامة في كل شيء ذهبت، ذهبت بذهاب الأنبياء وتلاميذهم، ولكن هل يصعب على الواحد أن يكون قدوة في أمر من أمور الحياة؟

أسئلة

هل يصعب أن نجد فرداً أو أفراداً يصلحون للقدوة في خدمة الأقارب والأصدقاء؟ هل يصعب أن يكون الواحد منا قدوة في ضبط الوقت والمواعيد، بحيث لا يتقدم ولا يتأخر؟

هل يصعب أن نجد قدوة في العناية بالأرامل واليتامى؟

هل نجد صعوبة في حضور الموظف الكبير مع بداية الدوام، ليكون قدوة لمظفيه، أم من المجد أن لا يحضر إلا قبل الظهر بقليل؟

هل من الصعوبة أن نجد موظفاً كبيراً يرفض تغيير سيارته، وأثاث مكتبه لأنها جيدة؟

إن أمثال هؤلاء من القدوة الطيبة، تدفع بالمجتمع نحو الخير، وهم يشكلون مصدر إلهام وتجسيد للقيم.

إننا ـ بعد أكثر من ألف عام ـ مازلنا ننفعل بتضحيات الصحابة، وحسن سيرتهم، وبالأبطال الذين ضحوا بحياتهم في سبيل أمتهم.

مازال حرص أبي بكر على اقتفاء أثر رسول الله يبهجنا، ومازالت صرامة عمر تهز وجداننا، حتى أن طاغية مثل «الحجاج» ليقول: إنه يتمنى أن يقتل بعض العلماء، لأنهم مازالوا يتغنون بعدل أبي بكر وعمر، فيقوم الناس بإجراء قياس ما يفعله حكام بني أمية، فينقمون عليهم. إن الكثير منا ـ في البلاد المقهورة ـ لا يستطيع نقد الطاغية الحاكم، فماذا يفعل، يضرب الأمثلة بعدل الخلفاء، ثم يسكت، ولسان حاله يقول هذا ما فعله حكام الإسلام، فماذا يفعل طاغية اليوم؟؟!! ومن هنا جاء تخوف الحجاج.

ولا أشك لحظة في أن بعض الحكام، لو تمكن لمحا من التاريخ كل ما

يناقض سلوكه وطغيانه، ووصمه بخزي السلوك، وعار الهزائم. ولعل هذا ما تمنى الحجاج أن يفعله، خدمة لحكامه. لقد وقف الحجاج يوماً على منبر رسول الله في الكوفة وقال: يا أهل الكوفة والله لو أمرتكم بالدخول من باب، فدخلتم من غيره لحلت لي دماؤكم!! وهذا منطق الطغاة في كل عصر، يجد «الحجاج» الشجاعة في نفسه، فيقول ذلك، جهاراً نهاراً، ويخاف البعض فيقوله في نفسه وبين زبانيته، فلعنة الله على الظالمين، وألف لعنة ولعنة على الحكام المستبدين، والزبانية المنافقين، والمداحين الكاذبين، وليسمع هؤلاء وأولئك قول صاحب الرسالة ـ عليه السلام ـ: «**إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم يا ظالم، فقد تودع منها**) أي اغسل يدك منها.

٦ ـ للمسلم موقف خاص من الطبيعة وما عليها، فقد خلقها الله وسخرها للإنسان ﴿وسخر لكم ما في السماوات والأرض جميعاً منه﴾. [الجاثية: ١٣]. وعلى الإنسان أن ينتفع بها كما أمر الله، دون إسراف ولا تقتير، فلا يسرف في الماء ولو كان على نهر جار، ولا يحق له قتل حيوان إلا إذا كان للأكل والانتفاع، أو كان الحيوان مفسداً ضارًا كما ليس من حقه قطع الشجر وإتلافه، وإن كان لعدو، وفي المقابل يلزمه شكر الله المنعم، ولعل من لوازم الشكر أن يكون الاستخدام جيداً مقنناً.

بينما نجد الإنسان في الغرب له موقف مغاير تماماً من الطبيعة، فهو يسعى بكل طاقته لإخضاعها، بل لمحاربتها، وموقفه عدائي منها ـ كما يقول عالم الاجتماع اريك فروم ـ بل يحتقرها ويحتقر كل ما ليس بصناعي، وكل شعب لا يتعاطى الصناعة، بينما الصناعة مثل البناء جامدة، والطبيعة مثل الشجرة الحية، والحي أفضل ألف مرة من الميت.

العمارة قد تكون مزينة مزوقة، والشجرة قد تكون وسخة، قد تجمع حولها أشياء كثيرة، لكن ما أن يحل الربيع، وتورق الأشجار أو تزهر،

وترتفع الأغصان حتى يظهر الفارق بين الحي والميت.

إن الإنسان في الغرب معجب بنفسه، معجب كل الإعجاب بحضارته، حتى كأن العالم لم يعرف قبلها ولا بعدها حضارة، والتوجيه ينفخ في هذا الإنسان الغرور والتفوق ليل نهار، فأنت سيد العالم، وحضارتك هي الأولى في العالم، وكل الذي فوق التراب تراب.

لك أيها الغربي المال والجيوش والعلم، وفي يد دولك عصا غليظة، تضرب بها كل رأس يرتفع، فلا تخف، وعش حياتك بالطول والعرض، ولا تنظر لما يقال لك، فالحق للقوة، والقوة للمتقدم، فلا تخش ولا تخف.
هذا فحوى الرسالة اليومية للإعلام الغربي.

٧ ـ تقف الأديان عموماً، سماويها وغير سماويها ضد الظلم والطغيان، وتشارك في هذا أكثرية النظم الوضعية، حتى فطرة الإنسان ترفض الظلم، فكل من يرى إنساناً يُظلم، عرفه أم لم يعرفه، يقف إلى صف المظلوم ضد الظالم.

وربما كان الاستثناء هو دول الغرب، فهي مع المصلحة، والموقف من الفلسطيني وإسرائيل والشيشان وكشمير خير دليل، وأحياناً تلتجىء دول الغرب إلى النفاق، فهي في اللسان مع شعب البوسنة، ضد الكروات والصرب، لكنها في القلب عكس ذلك، والأدلة كثيرة.

والإسلام يشن حملة قوية ضد الظلم ـ بكل صوره وأشكاله ـ فالله تعالى لا يحب الظالمين، ومن يمل ـ مجرد ميل ـ إلى الظالم فعقوبته النار ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾. [هود: ١١٣]. هذا لمجرد الركون والميل، فكيف بمن يمارس ظلم غيره أو شعبه ليل نهار، والمفروض أن يحميه من الظلم والطغيان؟!

الظلم ظلمات يوم القيامة، كما ورد في السنة، وفي الحديث القدسي:

«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا».

لقد ذهب الإسلام لأقصى ما يمكن تصوره، حين منع التفرج ـ مجرد التفرج ـ على مظلوم يضرب ظلماً، أو مقتول يقتل ظلماً، لأن اللعنة تنزل على كل متفرج لم يدافع عنه، قال عليه السلام: **«لا تقفن عند رجل يقتل مظلوماً، فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه، ولا تقفن عند رجل يضرب مظلوماً، فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه»**. اهـ.

ولعل ذلك عائد لأن رؤية وقوع الظلم وتكرره، يجعل الإنسان يستسيغه ويقبله، ثم لا ينفر منه.

تبقى قضية جديرة بالذكر، وهي أن الطغاة هم أكبر أعداء الدين والتدين والمتدينين، ذلك أن الدين يعادي هؤلاء، ويمنع من موالاتهم، ويشجع الناس على تحديهم والوقوف في وجوههم، جاء في الحديث: **«سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»**. فمن وقف في وجه الظلم والانحراف، ودفع حياته ثمناً لشجاعته، فهو ليس مجرد شهيد، بل سيد الشهداء.

وقد ورد على لسان الصادق الأمين: **«ستكون أمراء تعرفون وتنكرون ـ أي من سلوكهم ـ فمن كره بريء، ومن أنكر سلم، ولكن من رضي وتابع، قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: لا، ما صلوا»** اهـ. (كنز العمال، الحديث ٣٢/ ٩٤٠٩). ولو قام الدعاة بواجبهم، لما كانت حال المسلمين كما نراها، ولقل الظلم، واختفى الطغيان، ولكن الطاغية لا يعدم من يقف إلى صفه ويمدحه، بل يحسن وجهه القبيح الكالح، وأذكر أن رجلاً يحمل أعلى الشهادات، كان يقف أمام أكبر طاغية سفاك للدماء، يقف هذا المنافق ليقول: لقد أنسيتنا بعدلك عدل عمر، ولو قال: ذكرتنا ببطشك بطش الحجاج لما كذب، إني أفهم أن يسكت المثقف عن نقد الطاغية، خوفاً على

حياته وحياة أولاده، لكن أن يتحول إلى منافق كبير، طلباً للدنيا، وللفُتات يلقيه إليه الطاغية، فهذا مرفوض مرفوض، ولعنة الله على الآخذ والمعطي، فالساكت عن الحق شيطان أخرس، فماذا سيكون المنافق المداح؟؟

المثقف والنفاق

أنا أعلم جيداً أنه ما من مجتمع شرقي يخلو من منافق مداهن كذاب، ومن نماذج سيئة نفعية جبانة، تزن كل شيء بالربح والخسارة، ولكن المؤلم الموجع أن ترى الكثرة الكاثرة من هؤلاء بين صفوف المتعلمين، الذين صارت الدنيا والدرهم كل همهم، وهدفهم الذي لا يعلو عليه هدف، ولو كان هذا المنافق أميًا فقيراً لعذرته، والتمست له ألف عذر، لكن ما عذر سدنة الثقافة وأرباب الشهادات العليا، والمناصب الكبيرة، حين ينافقون، وبدلاً من أن يقولوا للأعمى أنت فاقد البصر، يذهبون للتغزل بجمال عينيه وقوة بصره؟ ماذا نقول لضابط ركن كبير، يشير إلى القمر ويعلن: أنه يحمل صورة الزعيم الأوحد، أو الأوحل أو الأحول على وجه القمر؟

إن تماسك المجتمع، والحرص على نظافته واستقامته، قد يكون فيه نوع ضمان لمحاصرة الشر والنفاق، والكذب والتزوير وأهله. ومتى كان المجتمع معافى في عمومه، فلا يضره حفنة من الدجالين المنافقين، ولكن الويل كل الويل حين يكثر هؤلاء، ويصل الطاعون إلى النخبة المتعلمة والقيادة الفكرية، فهنا يكون الهلاك، وغسل اليد من الأمة ـ كما جاء في الحديث الشريف ـ.

وبعد هذا وقبله نحن نعلم أن القيم لا تفرض بالعصا، لكنها تجذب عن طريق القدوة والمثل الطيب، من الكبير قبل الصغير، ومن الغني قبل الفقير، ومن الحاكم قبل المحكوم.

يعجبني ويطربني حوار نقله «ديورنت» في كتابه القيم «قصة الحضارة»، الحوار يدور بين الحكيم «كنفوشيوس» وأحد تلاميذه، يتعلق

بالسياسة والثقة، بين المواطن وحاكمه. وماذا على السياسة أن تؤمن؟

أجاب الحكيم: على السياسة أن تؤمن ثلاثة أشياء أساسية:

١ ـ لقمة العيش الكافية لكل فرد.

٢ ـ قدر كافٍ من التجهيزات العسكرية.

٣ ـ قدر كافٍ من ثقة المحكومين بحكامهم.

سأل التلميذ أستاذه «كنفوشيوس»: إذا كان لابد من الاستغناء عن أحد هذه الأشياء الثلاثة فبمن نضحي؟

أجاب الحكيم: بالتجهيزات العسكرية.

عاد التلميذ ليسأل: وإذا كان لابد أن نستغني عن أحد الشيئين الباقيين، فبمن نضحي؟

الحكيم: في هذه الحالة نستغني عن القوت؛ لأن الموت كان دائماً مصير الناس مهما عاشوا، ولكنهم متى فقدوا «الثقة»، لم يبق أي أساس للدولة.

أتمنى أن يقرأ بعض طغاة العرب هذه الجمل، وأن يعوها، فقد ماتت الثقة بهم، بل هي تموت يوميًا، وعلى رأسهم ذلك الحاكم الجديد الذي أقام لشعبه (محكمة دولة) قبل أن يقيم الدولة، والذي يبطش بشعبه ويداهن ويتملق عدوه.

وإذا كانت القيم لا تفرض بالقوة ـ كما تقدم ـ بل لابد من قدوة وجذب، فإن الامتثال الاجتماعي لا يقوم دوماً على القناعة، وإذن فلابد من وجود وتوفر قدر من المسايرة والخوف، فالله تعالى وهو العالم بالبشر يقول: ﴿يعبدون ربهم خوفاً وطمعاً﴾. [السجدة: ١٦].

فالعبادة وهي حق للخالق، وواجب على العبد، بحاجة إلى حافزين «الخوف والطمع»، الخوف من العقاب والعذاب، والطمع والرغبة بالثواب.

ومعلوم أن الإسلام يحترم أكبر الاحترام إرادة الإنسان، لذا قال تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾. [البقرة: ٢٥٦]. والمكره على تصرف لا قيمة لتصرفه، فالحرية الفردية مضمونة، وكذلك حرية الضمير والاعتقاد، والحرية الشخصية.

لكن المواقف غير الأخلاقية مرفوضة، فليس من حق أحد مثلاً أن يشكك الناس في عقائدهم، وليس من حق أحد نشر القضايا المضرة بالأخلاق، كالصور العارية، والقضايا المتعلقة بالمتع الجنسية، مما يعرف بالأدب المكشوف. ومن يسقط سقطات خلقية، فعليه أن يكتم ذلك ولا يعلنه، فإن أعلن ذلك، عوقب مرتين: مرة عن الجرم الذي تعاطاه، وثانية عن إعلانه عن ذلك، والآيات القرآنية والأحاديث النبوية تتضافر في ذلك.

لذا وجدنا الصحافة «المشبوهة» تركز هنا أكبر اهتماماتها، وكأنها تدعو البعيد والغافل ليمارس ذلك، ولا يفوتها أن تقول بأنها تريد علاج هذه المشكلات، وهي موجودة، فلماذا نهرب منها؟

إن وسائل الإعلام يمكن أن تكون رادعاً لكل متلاعب بأقوات الناس، غاشًا لها، فإذا ما استعمل هذا السلاح استعمالاً جيداً بأن قال للمحسن أحسنت، وللمسيء أسأت، صار وسيلة تقويم وتأديب، كما يمكن أن يكون وسيلة فساد وإفساد.

المجتمع

المجتمع وقوانينه.
المجتمع وانقساماته.
المجتمع بين الحرية والتماثل.
الضبط داخل المجتمع.
الفرد والجماعة: أخذ وعطاء.
تفكك المجتمع.
تعدد الانتماء والولاء.
الأسرة والمدرسة والدمج الاجتماعي.
المجتمع وتجديد شبابه.
التجدد الاجتماعي.
التغيير بين البطىء والسريع.
الإسلام والحياة.
المجتمع الذي ننشده.
المجتمع وضوابطه.
من معالم المجتمع الناجح.

المجتمع وقوانينه

حين خلق الله الكون، جعل له سنناً عامة تضبط حركته ودوامه، وهي ما يعرف اليوم بـ «قوانين الطبيعة»، ومعرفة هذه السنن تيسر فهم الكون أولاً، وحسن التعامل معه ثانياً.

هذه السنن لا يمكن تجاهلها، ولا القفز فوقها، وهي لن تخرق أو تتوقف إلا إذا أراد لها خالقها ذلك، والنموذج لذلك معجزات الأنبياء، فهي عبارة عن خرق إلهي لسنة من السنن، فالنار تحرق المواد القابلة للاشتعال، ومنها جسم الإنسان، فلما ألقي فيها إبراهيم عليه السلام، أوقف الله تعالى هذا القانون، في هذه الحالة فقط، فلم يحترق خليل الرحمن، كي يرى قومه ذلك فيهزهم الحدث هزًّا ليدفعهم نحو الإيمان، أما من لم ير المعجزة، فيقرأ ذلك كخبر من الأخبار.

وكل أمة تريد المساهمة في الحضارة، فعليها أن تبذل جهداً كبيراً في فهم هذه السنن، والتعرف على القوانين الكونية، وإلا سيكون تقدمها زحفاً بطيئاً إلى أبعد الحدود.

ومثل السنن الكونية توجد سنن بشرية، وعلى كل من يروم التقدم أن يعرفها معرفة جيدة، وأن يتعامل معها التعامل السليم الصحيح، وإلا فإن تقدمه سيكون كحراثة في بحر، ليس غير.

ويذكر أنه حين غزا الفرنسيون المغرب، واقتربوا من (فاس) خرج المتصوفة وبأيديهم الدفوف يهزجون ويغنون: «فاس فاس ما عليك من باس»، ومعلوم أن ألف دف ينقر، وألف أهزوجة، لا تساوي طلقة، وهكذا سقطت المدينة، بل سقط الشمال الأفريقي كله بأيدي الاستعمار،

وكلفنا رحيله أو ترحيله ملايين الشهداء، وأكثر من ذلك من الأموال، ومازلنا حتى اليوم نعاني من آثاره المدمرة.

وقد أخبرت قبل أيام من قبل صديق أنه اشترى «حاسوباً» وراح يغذيه بموضوعات الفقه، فلما علم بذلك صديق له (صوفي) قال: لم كل هذا الجهد والعمل؟ عندك الشيخ فلان وبإمكانك أن تسأله وتحصل على الجواب فوراً.

إنه حاسوب جديد ماركة «تصوف» فأين رجال الصناعة في اليابان من هذا الحاسوب الجديد؟!!

إن القارىء لكتب التصوف ـ على تعدد فرقهم ـ يجد قاسماً مشتركاً بينها، هو تجاهلها التام لسنن المجتمع، وسنن الكون أحياناً كثيرة ـ وأرجو أن لا أتهم بالمبالغة ومعاداة التصوف ـ فهذا أبو حامد الغزالي، لا أحسب أن أحداً ينكر علمه وذكاءه، وهذه كتبه مازالت تقرأ، بل تدرس منذ قرابة ألف عام، ومع قدراته العالية في النقد، فقد بهر ـ ومايزال ـ نقده للفلسفة، حتى قال كثير من الباحثين، لم تقم للفلسفة قائمة، منذ تصدى لها أبو حامد في كتابيه (مقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة). فإذا أمسكت كتاب «إحياء العلوم» فستجد شخصية ثانية للغزالي، تقبل من الخرافات التصوفية، ما يجعل الإنسان يقف حائراً في نسبة هذا الكتاب للغزالي.

ولعلمي بأن قارىء اليوم ـ غير الصوفي ـ لا يقرأ الإحياء، وربما ولا غيره، حتى بحثي المتواضع هذا ـ لذا سأتطوع بنقل نصوص قليلة، وأشير قبل ذلك إلى واقعة، فقد سقطت القدس ـ على عهده ـ بيد الصليبيين، وسالت دماء المسلمين في الشوارع ـ كما تسيل اليوم ما بين الفلبين والبوسنا والشيشان وكشمير ـ وكانت صدمة لا مثيل لها، ومع ذلك فهذه كتب «حجة الإسلام» خالية من أي إشارة لهذا الحدث!!!

وحتى لا يرشقني عشاق أبي حامد ـ وقد أكون واحداً منهم ـ بسهامهم واتهاماتهم، فأنا أذكر بعض الأمثلة، وأترك للقارىء الحكم.

١ ـ يقول أبو حامد ـ نقلاً عن أحد وجوه التصوف ـ أنه أقلقني الشوق إلى الخضر عليه السلام، فسألت الله تعالى أن يريني إياه، قال فرأيته، فما غلب على همي ولا همتي إلا أن قلت له: يا أبا العباس علمني شيئاً إذا قلته حجبت عن قلوب الناس، فلم يكن لي فيها قدر. (وحصل ذلك، فتعلم دعاء طويلاً، راح يردده) فماذا كان؟؟

يقول أبو حامد: إنه صار بحيث «يستذل ويمتهن»، حتى كان أهل الذمة يسخرون منه، ويسخرونه في الطريق، يحمل لهم الأشياء، لسقوطه عندهم، وكان الصبيان يلعبون به، فكانت راحته في ركود قلبه، واستقامة حاله في ذله وخموله.

ثم يعقب على ذلك قائلاً: فهكذا حال أولياء الله تعالى، ففي أمثال هؤلاء ينبغي أن يطلبوا)[1] اهـ. فأين صارت عزة المؤمن؟

٢ ـ قال أبو حامد: (قال كرز بن وبرة ـ وهو من الأبدال ـ قلت للخضر عليه السلام: علمني شيئاً أعمله في كل ليلة قال: إذا صليت المغرب إلى صلاة العشاء مصلياً، من غير أن تكلم أحداً، واقرأ فاتحة الكتاب، ثم «قل هو الله أحد» سبع مرات، في كل ركعة، ثم اسجد بعد تسليمك، واستغفر سبع مرات، وقل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، سبع مرات، ثم ارفع رأسك من السجود، واستوِ جالساً، وارفع يديك وقل: يا حي يا قيوم، ياذا الجلال والإكرام، يا إله الأولين والآخرين، وصلِ على النبي، وأدم الصلاة عليه حتى يذهب بك النوم.

(١) إحياء علم الدين ٥/ ٢٥٧.

قلت: أحب أن تعلمني ممن سمعت هذا؟ فقال: إني حضرت محمداً عليه السلام حيث علم هذا الدعاء، وأوحي إليه به، فكنت عنده)[1] أي حضر نزول الوحي!!!

٣ ـ يعرّف الشريف الجرجاني القطب الصوفي فيقول[2]: (يسمى غوثاً باعتبار التجاء الملهوف إليه، وهو عبارة عن الواحد الذي هو موضع نظر الله في كل زمان ومكان، أعطاه الله «الطلسم» الأعظم من لدنه، وهو يسري في الكون وأعيانه الباطنة والظاهرة، سريان الروح في الجسد. بيده قسطاس الفيض الأعم، وزنه يتبع عمله، وعلمه يتبع علم الحق، وعلم الحق يتبع الماهيات غير المجعولة، فهو يقبض روح الحياة على الكون الأعلى والأسفل، وهو قلب إسرافيل، من حيث حصته الملكية الحاملة مادة الحياة والإحساس. .) اهـ.

هذا النص العجيب، إضافة لما يحويه من كفر، فهو يحمل تصوراً لا أساس له في الإسلام، وربما جاء من البوذية أو غيرها.

وختاماً فالتصوف ـ بشكل عام ـ يتجاهل السنن الكونية، وربما منح «الغوث» صلاحية العبث بها، وجعل عاليها سافلها وبالعكس. بينما لم ينقل ذلك عن رسول الله عليه السلام مثل ذلك. فمن أين جاءت هذه «الشطحات»؟؟؟

---

(١) الإحياء ٢/ ٣٣.

(٢) كتاب التعريفات ص ١٧٧.

المجتمع وانقساماته

كل مجتمع بشري ينقسم في العادة إلى وحدات أو جماعات كثيرة متعددة، قائمة على أسس مختلفة، فهناك جماعات الأقارب النسبية والأصهار، والإقليمية المكانية، المنتسبة للقرية أو المدينة أو القطر، وهناك الجماعات المهنية والثقافية، إلى غير ذلك من أنواع الروابط.

ولعل الدافع هو الإلفة أو المصلحة أو سهولة الفهم، أو المصالح الاقتصادية أو السياسية.

والمجتمع ـ كما هو معلوم ـ مجموعة أنظمة وعلاقات، والإنسان حين يجتمع مع مثيله، يتفاعل معه، وهو لا يستطيع ذلك إلا من خلال مجموعة من النظم والقيم والمعايير.

وكلما تقدم المجتمع ازداد تعقيداً، فمجتمع القرية مثلاً سهل التعامل لبساطة النظم والقيم التي تحكمه، فإذا انتقل أهل القرية إلى العاصمة مثلاً، وجدوا صعوبة في العيش والتأقلم، ومن هنا يرصون صفوفهم للتغلب على الحياة الغريبة الجديدة المعقدة، وقد يتركون العاصمة ـ رغم المغريات ـ ليعودوا للقرية ثانية، أو يظلون يترددون على القرية، تنسماً لجو البساطة والعفوية والمحبة، الذي يفتقدونه في العاصمة، أو المدن الكبرى. من هنا رأينا أبناء المدن يصفون كل إنسان قطري بسيط بأنه «فلاح».

إن مجتمعات المدن الكبرى، تظل بحاجة إلى بلورة نظمها وعلاقاتها وتوضيحها، حتى لا تنشب نزاعات وخصومات، نتيجة سوء الفهم، أو تحقيق مصالح غير مشروعة كالاستغلال أو التزوير والخداع، وهو ما نرى سوقه رائجة في المدن الكبرى، ولا نراه في القرى الصغيرة.

هذه الجماعات المختلفة المتمايزة، لابد أن تقوم بينها علاقات منظمة، تخضع لمعايير وقواعد محددة ـ سليمة أو غير سليمة ـ ومن الطريف أن الإنسان لا يكتفي بالانتساب لجماعة واحدة، بل ينتمي إلى أكثر من ذلك، لكن هذه الروابط ليست من طبيعة واحدة، فبعضها جبري ـ لا خيار فيه ـ مثل الانتماء للأسرة والقبيلة والقرية أو المدينة، مولداً ونشأة. بينما الكثير من هذه الروابط طوعي، كالنقابات والأندية والأحزاب[1] .

(١) عرف العالم العربي لوناً من الحزبية لا مثيل له في العالم، يسمح بالانتساب، بل يجبر الناس ـ وخصوصاً الطلبة والموظفين جبراً ـ ومع ذلك ليس من حق هذا «المجبور المقهور» أن يستقيل، ومن حق الحزب أن يطرده متى يشاء، أليس هذا نوع من «رق جديد»؟؟

الروابط بين الجبرية والطوعية

تقدم أن الروابط منها جبري وطوعي، ويلاحظ أن الجبري يأخذ شكلاً رسميًا في كثير من الأحيان، يؤمّن نوعاً من «المرجعية»، أما الروابط الطوعية فتحقق وتؤمن بعض الحاجات النفسية، كما تحقق بعض الأهداف والحاجات الأساسية، كما في النقابات مثلاً. ويلاحظ أن الانتماء الطوعي تكون درجة تفاعله وعطائه أعلى وأجود.

كما يمكن القول بأن وفرة الانتماءات الفردية الاختيارية، تعتبر مؤشراً على حيوية الفرد وانفتاحه على مجتمعه، وفي ذات الوقت تعتبر وفرة الخيارات الطوعية وتنوعها دليلاً على تقدم المجتمع وحيويته، وإمكانية استيعاب تطلعات أفراده، كما في العواصم والمدن الكبيرة.

أما المجتمعات التي لا يوجد فيها سوى الروابط الجبرية القهرية، مثل القرى، ومجتمعات الحزب الطليعي الأوحد، فإنها تكون إلى الركود والسكون أقرب وألصق.

المجتمع بين الحرية والتماثل

تميل المجتمعات عادة إلى ضبط سلوك أفرادها، مع اختلاف في قدر ذلك الضبط، بين القرية والعاصمة، والدولة والدولة، كما تسعى لتحقيق نوع من التجانس، وذلك وفق قيم ومعايير تسودها. من هنا يمكنالادعاء بأن المجتمعات تمارس على أفرادها أنواعاً من الضغوط، كي تحافظ على وحدتها وتماسكها، ويجعل المجتمع من أفراده حراساً ورقباء على سلوك الفرد، ودفعه للتجانس مع الآخرين، إلى أقصى حد ممكن.

ومعلوم أن الطفل لا يعرف ابتداء إلا نفسه، ومن ثم نراه يريد كل شيء يراه، وقد يغتصبه من صاحبه، كما لا يعرف قوانين المجتمع، ومنها الحياء، فيمكن أن يتعرى أمام الناس، فإذا صار صبيًّا، فهو يرفض ذلك، لأنه علم أن المجتمع لا يرضى عن التعري مثلاً.

ثم يباشر الخضوع لمجتمعه، فيفعل كثيراً من الأفعال، لأن المجتمع يريد ذلك، فكثير من العادات الاجتماعية، من الزيارات والولائم والأفراح، والمآتم، لا يؤمن بها الفرد، ومع ذلك يفعلها إرضاء لمجتمعه، فإذا ترقى أكثر من ذلك تخلص من ضغط المجتمع، وتحول إلى القول: هذا حق لذا ألتزمه، وهذا باطل أحاربه، وقد يخالف فيه مجتمعه في ذلك، ولكن قلة قليلة تصل إلى هذا المستوى، وتقوى على الالتزام به، وغالب هؤلاء من الانطوائيين، وهم في العادة ممن يتطلع إلى إحداث تغييرات جذرية في مجتمعه.

يلاحظ أن أعضاء كل جماعة، وهم يحاولون الانسجام مع أهداف جماعتهم، إلا أنهم لا يرتفعون إلى المستوى الذي تريده الجماعة، لكنهم في

ذات الوقت لا يهبطون عنها كثيراً جدًّا.

أما المغامرون والمجازفون في التحرر من قيود جماعتهم أو مجتمعهم، فهم في العادة قلة، تجمع عادة بين شاذين وعباقرة كبار، وضعاف عقول، أما سواد المجتمع أو الجماعة، فإن التماثل يجعل منهم مرآة عاكسة لبعضهم. والكل يسأل نفسه: كيف أبدو لزملائي في الجماعة؟ وكيف يفسرون سلوكي؟ وهل أنا راضٍ عن تقويمهم لي أم لا؟

وهنا يصل الحال بالبعض إلى مجرد «وسوسة»، فلا أحد يهتم به، ولا يقوّم سلوكه وتصرفه، لكنه خوف من النبذ، ومحاولة لإثبات الاستحقاق لعضوية الجماعة أو النادي أو الحزب بجدارة يفعل ذلك.

الضبط داخل المجتمعات

إن درجة الضبط في المجتمعات لسلوك أفرادها تختلف، فكلما كانت الجماعات صغيرة يعرف بعضها بعضاً، تحسن الضبط، واشتدت الرقابة الاجتماعية، وكلما اتسع المجتمع وكثر أفراده وتنوعوا، خف الضبط والرقابة، ويتضح هذا جيداً في الفرق بين القرية الصغيرة، والمدينة الكبيرة.

كما تتأثر ببساطة الثقافة وتعقدها، فالثقافة المتنوعة المعقدة الثرية، تسمح بأنماط كثيرة متنوعة من السلوك، كما تسمح بمواقف اجتماعية أكثر تنوعاً وتبايناً، ففي الغرب نجد هذا واضحاً، بينما لا نجد له مثيلاً في الشرق، ونجده في العاصمة بما لا مثيل له في القرية.

ويصاحب هذا التنوع عادة نمو للقيم والمعايير الشخصية، على حساب القيم والمعايير الاجتماعية. فحرية الفرد في الغرب تحتل مساحة أكبر وأوسع من بعض المجتمعات، هنا أو هناك. ولعل في الاكتمال الحضاري، وتقدم المجتمع، ورضاه عن نفسه، ما يشجع على تلك الحرية، أما المجتمعات النامية أو المتطلعة للنمو فلا تسمح بهذا القدر من الحرية، وهي تخاف من الانقسام والتفكك إن سمحت بذلك.

إن الضغط أو الربط الاجتماعي يساهمان في استقرار المجتمع وحسن تجانسه، واستمرار الجماعة، لكنهما يفرزان بعض الأضرار، فينشط النفاق الاجتماعي، والمباهاة والرياء، لأن المجتمع يأخذ بالتحول من الجوهر إلى الشكل، ومن الحقيقة إلى الصورة. كذلك تسجل الكثير من إحباط المبادرات الفردية، على مستوى الفكر وكذا العمل.

ومن أجل تلافي ذلك فلابد أن تتساند جهود الأسرة والمدرسة،

ووسائل التربية الفردية الأخرى والجماعية، كوسائل الإعلام، لتعمل على تنمية الوازع الأخلاقي لدى الفرد، وأن تشجع روح المبادأة لدى الإنسان الفرد، ويربى على إفساح صدره للنقد والمناقشة، وقبول الرأي الآخر برضاً ورحابة صدر، وإلا فإن الأخطاء ستتراكم، والانحراف سيقع، وإن كانت تمت برقع صفيق.

الفرد والجماعة: أخذ وعطاء

العلاقة بين الفرد وجماعته تتسم بالأخذ والعطاء المتبادل، فالجماعة تريد من الفرد التجانس والتماثل، وهي بالمقابل تقوم بإشباع حاجات كثيرة، لا يجدها الفرد خارج الجماعة. ولذا فالجماعة لا تستطيع فرض قيمها ومعاييرها الاجتماعية، إلا بالقدر الذي تستطيع أن تقدمه لأفرادها، بصفتها جماعتهم التي يعتزون بالانتساب إليها، فإذا عجزت عن تقديم شيء تركوها، خصوصاً في الجماعات الطوعية كالنقابات والنوادي والجمعيات والأحزاب.

وقد حدد الإسلام موقفاً وسطاً دقيقاً، في هذا المقام، فعلى المجتمع أن يقدم كل ما يستطيع من تعاطف وتضامن نحو أبنائه، ومواساتهم، ومشاركتهم الأفراح والأحزان، ويوجب على الفرد أن يحرص على سلامة مجتمعه، والانسجام معه، خصوصاً فيما يشكل خروجاً على معتقداته وقيمه وعرفه وتقاليده السليمة.

ولما كان التفاضل لابد منه بين الناس، فقد طرح الإسلام مبدأ أخلاقيًا ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. (الحجرات: ١٣).

فالتفاضل قائم على أسس اكتسابية لا نسبية، فبمقدار ما يحمل الفرد من خصال الخير والكمال ـ من وجهة النظر الإسلامية ـ يكون مقامه ومنزلته، بعيداً عن أصله وجاهه وماله ومكانته.

فالرسول عليه السلام يولي قيادة جيش، فيه كبار الصحابة لمولى شاب، هو أسامة بن زيد، وعمر يتمنى حياة مولى لأبي حذيفة ليوليه الخلافة من بعده، لأنه في نظره كان يحب الله ورسوله، وسلمان الفارسي يتولى إمارة

في العراق، وجمهور الصحابة كلهم أحياء، وبلال الحبشي يرتقي سطح الكعبة ليؤذن في الناس، وقد كان جمهور العلماء في العهد الأموي من الموالي.

ولا يعرف المجتمع الإسلامي التمييز العنصري، ولا الاغتراب، فالرسول عليه السلام على جلالة قدره كان يستجيب للمرأة تدعوه لبيتها، أو توقفه في الطريق لتسأله، كما كان يزور المرضى من المسلمين وغيرهم، وزار مرة شابًا يهوديًا يحتضر، فدعاه للإسلام فأسلم، ففرح رسول الله بذلك أكبر فرح، وحمد الله تعالى لذلك.

كما كان يشارك الناس أفراحهم وأتراحهم، ويسأل عن الغائب والمريض، وكان خلفاؤه من بعده يفعلون ذلك، فقد طلب أبو بكر أن يصحبه عمر ليزورا امرأة، كان رسول الله يزورها. وكان المجتمع الإسلامي على مدى عصور يوقف الأموال من أجل الفقراء والخدم، كما عرف لون من الوقف هدفه توفير الملابس والحلي للعرائس من الفقراء، وفي تركيا كان هناك حجر منحوت، يأتي الغني فيضع فيه النقود، ثم يأتي الفقير فيأخذ منه ما يحتاج، وفي دمشق كان هناك وقف للحيوانات السائبة، التي تركها أهلها، وهناك أشخاص كانوا يسلون المرضى ويواسونهم طلباً للأجرة، وقد ظلت الأوقاف تقضي من حوائج الناس الشيء الكثير، حتى جاءت الحكومات القومية فأكلتها ومازال تأكل البقية الباقية، كما يأكل الجراد كل نبات أخضر، يكون في طريقه. ولأن الحاجة المادية لها أثرها في الترابط الاجتماعي، لذا رأينا الإسلام يأمر بدفع الزكاة لمن يحتاج، وكذلك الصدقات والكفارات والنذور، إضافة للقرض الحسن دون فائدة، وحين كان الإسلام عقيدة حية، كان العطاء ثراً، دون منّ ولا تظاهر، وكانت المجتمعات الإسلامية أكثر أمناً وأخوة، أما اليوم فلا يعرف الإنسان جاره، ولا يعلم حاجته، بل لا يلقي السلام عليه، إلا إذا كان يعرفه.

وقد كان الأفراد ـ على مدى قرون ـ يساهمون في بناء المجتمع، والتطوع في مل مشكلاته، وتأدية الحقوق العامة، دون مطالبة من أحد، فكفالة الأيتام، وإكرام الضعيف والقريب، والإحسان إلى الجار، وقبل ذلك الدفاع عن الوطن، وبذل النفس والمال في محاربة أعدائه، والمحافظة على كرامته وسمعته، كما كان مبدأ الدعوة للحق والخير، ومنع الانحراف والشر، من المبادىء المحترمة في المجتمعات الإسلامية، إلى عهد قريب، وأخيراً إن كرامة الفرد من كرامة مجتمعه، وقد قال «مصدق» يوماً: لئن أكون شرطيًا في بلد كريم مستقل، خير من أن أكون وزيراً في بلد مستذل مستعمر.

وقد قام شاب أمريكي في تايلند برش بعض السيارات بدهان، فحكم عليه بالجلد عشر جلدات، فاتصل الرئيس «كلنتن» تلفونيًا ليمنع تطبيق هذا العقاب على هذا الشاب، وهناك للأسف الشديد، حكومات عربية تطارد أفراد شعبها في كل مكان وتشردهم، وتطالب حكومات أخرى بتشريدهم، لمجرد أنهم لا يحسنون التسبيح، وترديد قصائد الغزل في الزعيم الأوحد، والبطل الذي جلب لشعبه أكبر الهزائم وأخزاها.

إن المجتمع الذي لا رابط يربط أفراده، سيتحول إلى حشد بشري، لا تربط بينهم رابطة قوية، ولن يصمدوا أمام عدو، ولن يقفوا في وجه كارثة، وفيما حدث في حرب ١٩٦٧م أكبر عبرة لمعتبر.

تفكك المجتمع

كل تجمع، وكل دولة، وكل حضارة تبدأ قوية جادة، فيها الكثير من العطاء ونكران الذات، ثم تذبل وتشيخ، مفسحة الطريق أمام تجمع جديد، يقوم على أنقاض الأول؛ إلا أنه يتميز عنه بروح جديدة تسري في المجتمع، وربما قيم جديدة، ثم يدركه ما أدرك سابقه، ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾. (آل عمران: ١٤٠).

وهكذا يتجدد شباب المجتمع والدولة والحضارة، والسؤال: ماذا يعني تفكك المجتمع؟؟

إنه الانهيار، فالجماعات يصعب أن تستأصل ـ كما حدث في الأندلس ـ لكنها تشيخ وتهرم، فتستبدل القيم الحية النشطة بشكليات لا روح فيها، وفي بعض الدول تعمد الطبقة الحاكمة إلى رفع العصا في وجه كل طالب للتجديد والتغير، وقد تفرض عقيدة على شعبها فرضاً، لكن كل هذا وغيره، لا يغير في المصير، وقد يؤجل التغيير فقط، إن الفساد الذي ينتشر بين الناس لا تنفع فيه عمليات «تجميل» وتجاعيد الشيخوخة في الوجه، لا تستطيع الأصباغ أن تخفيها أو تزيلها.

إن تحول المجتمع إلى مجرد «حشد» لا رابطة تربطهم سوى المكان والزمان يعني سقوط وسائل الربط والتجميع، وغياب الأهداف، ومبررات البقاء.

تساؤل

والسؤال: ما هي العوامل التي تسهم في التفسخ الاجتماعي؟

١ ـ كل مجتمع مهما صغر أو كبر لديه مبادىء ومصالح، والمهمة الأولى للثقافة وكذا المجتمع، هو تأسيس قيم ونظم، تحفظ تماسك المجتمع من جهة، وتحقق للأفراد مطامحهم المشروعة، وطموحاتهم المقبولة، وفق المبادىء العامة، التي هي العمود الفقري للعقيدة الاجتماعية. وإن الوهن الاجتماعي يدب حين يشعر أفراد المجتمع، بأنه لم يعد بإمكانهم أن يحققوا مصالحهم المشروعة، من خلال مجتمعهم وعقيدته الاجتماعية، ونظمه القائمة، عند ذاك يجازفون ويذهبون بعيداً، لتحقيق مصالحهم بطرقهم الخاصة، وهنا قد يسقطون في الانحطاط الأخلاقي، بل قد يتحولون إلى وسيلة هدم ودمار لذلك المجتمع، الذي تجاهلهم، أو حال دون تحقيق مطامحهم، أو وقف منهم الموقف المعادي، الذي يرفع العصا في وجوههم، ويسد الأبواب في وجه طموحاتهم، وأحسب أن العنف في بعض البلاد العربية وغيرها، يمكن فهمه في هذا التفسير.. وأسارع للقول ـ ليس خوفاً ولا تملقاً ـ بأني بطبعي لا أحب العنف، ولا أستسيغ رؤية المصارعة ـ مجرد رؤية ـ وأصاب بألم شديد إذا ما رأيت إنساناً يضرب آخر، ولو على شاشة التلفاز.

وكنت في الثمانينيات قد كتبت (التكفير: جذوره، أسبابه، ومبرراته). وتقدمت به للترقية إلى الأستاذية مع كتاب آخر، وقد لاقى الكتاب قبولاً عجيباً، فطبع ثلاث طبعات متوالية في أقل من ثلاث سنوات، كما وردتني رسائل من مصر والسودان وموريتانيا وغيرها، تطلب الكتاب، وتطالب بتوفير نسخ كافية منه في الأسواق، وطلب شاب أن آذن له بترجمته

إلى الفارسية، كما طلبه صديق ليترجمه إلى التركية.

والخلاصة: لست ممن يحب التطرف، ولا ممن يشجعه، ولكني هنا مفسر ليس إلا. وقد يصح تفسيري وقد لا يصح، فأرجو أن لا يحمل كلامي على غير هذا، والله حسبي ونعم الوكيل.

وعودة لأصل الموضوع أقول: إذا وجد في المجتمع من يرى أن طموحاته مصادرة، وأن النظم وحتى التشريعات تتعمد غلق الأبواب في وجهه، فلا عجب أن نراه يحمل سلاحه ضد هذا المجتمع، ويحاول هدمه. كما سنجد قلة من ذات المجتمع، تكافح من أجل إحياء وتنشيط فاعلية النظم، والبرهنة على إمكانية تحقيق الطموحات المشروعة من خلال النظام، دون حاجة للعمل على هدمه وتقويضه. ولكن الثمن سيكون شعوراً بخيبة الأمل، حيث يجدون الأكثرية على خطأ، وأنهم يضحون من أجل مجتمع لا يقدر ذلك ولا يستحقه، أو يصلون إلى قناعة مفادها: أن من بيده القوة والحل، لا يريد حلاً، نظراً لامتيازاته التي يحصل عليها، دون حق مشروع ولا خدمة صادقة، وهو يحارب ليس خدمة لمبدأ ولكن حفظاً لامتيازات، وهنا قد تتحول هذه القلة إلى فئة مهاجرة، بعد عجزها ويأسها من الإصلاح، أو إحياء فاعلية النظم.

ولعل من الابتلاء في الحياة، عدم تطابق المصالح والمبادىء بشكل دائم، ففي الأزمات ترجح المصالح على المبادىء، وفي الأحوال العادية قد ترجح النظم والقيم على المصالح، والعافية في التعادل، بحيث لا يطغى جانب على آخر. كذلك يلاحظ مستقرىء أحوال المجتمعات أنه قل أن يشعر أفراد مجتمع كلهم بأن مصالحهم متطابقة ومتوافقة مع مبادئهم وقيمهم، وأنه يمكن الوصول إلى ذلك بشكل مستمر ودائم.

كما يمكن القول بوجود جماعة ـ تقل أو تكثر ـ تشعر باستحالة تحقيق

وجودها إلا من خلال الخروج على النظام، وقلتهم لا تشكل مشكلة، ولكن كثرتهم قد تشعل صراعاً، أو حرباً أهلية.

والمجتمع «المعافى» هو من يشعر سواده الأعظم بالانسجام، بين النظم والمصالح، وبفضل هذه الكثرة يجري تحجيم الشواذ والمرضى والخارجين على المجتمع ونظمه وقناعاته، وبإمكان المجتمع المعافى تحمل المفرزات السلبية لسلوك القلة الناقمة غير المنسجمة.

لكن الأمور تنقلب إلى كارثة، وطامة كبرى، حين تنصب العقوبات والحرمان والخسائر، وضرب المصالح، لهذه الطبقة التي تلتزم بالقيم، وتسعى لتحقيق المثل، وتعمل جاهدة لخير المجتمع وصلاحه، وأحسب أن بعض البلاد العربية والإسلامية تغرق منذ مدة في هذا البحر المظلم.

ولعل في قول صاحب الرسالة ـ عليه السلام ـ: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»، ما يشير إلى مثل هذا الخلل أو بعضه.

قضية أخرى: قبل انتشار المواصلات والاتصالات، كان بإمكان الدولة أو المجتمع أن يغلق نفسه، ويعيش في عزلة تامة داخل حدوده، والذين كتبوا تاريخ اليابان، حددوا مدة قرنين ونصف، أغلقت اليابان حدودها، فلم تؤثر ولم تتأثر بأحد. ولكن بعد شيوع الطائرات، ووسائل الاتصال، تعذر هذا «الانغلاق» فأي حدث يقع في أقصى الأرض، يعلم به العالم خلال دقائق، بالصوت والصورة. فحين مات الإمبراطور «نابليون» في منفاه، لم يصل خبره إلى بلاده إلا بعد نصف عام. وبناء على ذلك، فإن كل مجتمع يريد المحافظة على تماسكه ووحدته، عليه أن يطور من ثقافته ونظمه، لتصير قادرة على طرح وإنتاج قيم مناسبة، قادرة على الصمود والبقاء.

فمن القيم السائدة اليوم المساواة بين المواطنين، أمام القانون، وأمام الفرص، مع تكافؤ صادق، لا تغتاله وساطة ولا نفوذ، وتوفير قدر جيد من الحرية الشخصية، المنضبطة بحدود واضحة، وقيود معقولة، ومحاولة جادة صادقة ـ لا شكلية ـ نحو الأفضل، واحترام آدمية الإنسان، والالتزام بالنظام من قبل الحاكم والمحكوم على قدر سواء، وعدم احتكار السلطة وكنز الأموال وتجميعها بأيدي قلة قليلة من أفراد المجتمع، وحرمان الأكثرية منها. والالتزام الجاد بحقوق الإنسان، وحسن الجوار وعدم الاعتداء، هذه ـ قد تكون ـ أهم القيم اليوم.

تساؤل

والسؤال: هل تتنافى هذا القيم ـ بجملتها ـ مع ما جاء به الإسلام؟
والجوبا: لا ثم لا.
ويمكن أن يكون الخلاف في سلّم الأوليات فقط، فما يقدمه غيرنا يمكن تأخيره وتقديم غيره عليه. ولكن ما علينا حسمه بسرعة وبصدق وجدية، هو البعد بين الواقع الذي نعيشه، والمبادىء التي نؤمن بها، ونلوكها ليل نهار.

فنحن نتحدث ـ دون ملل ـ عن الأخوة الإسلامية، على حين نعامل بعض المسلمين وكأنهم جاءونا من كوكب آخر، بحيث لا تربطنا بهم حتى رابطة إنسانية.

نتكلم عن الحقوق ووجوب ردها، وعن مطل الأغنياء، وننظر للواقع فلا نجد حقًّا يعطى إلا بشق الأنفس، ونجد الأغنياء وليس الفقراء، يماطلون ولا يدفعون ما عليهم.

نتحدث عن التواضع ومحبة الفقراء، وننظر للواقع فنجد النقيض، ولا أبالغ إذا ما قلت: إن البعد القائم بين الاعتقاد والسلوك، هو أحد أبرز عوامل تخلفنا، ووسيلة لعدم احترامنا.

أما المحصلة لهذه المفارقة فهي انهيار لبنائنا الاجتماعي، وعجز عن هضم قيم العصر، أو إنتاجها، ولرب قائل يقول: ما الحل لكل هذا؟ فأقول: مجاهدة وصبر، بحيث نبلور قيم الحياة، وإعادة ترتيبها، فلا نقدم المهم على الأهم، ولا نقدم النافلة على الواجب، ولا المكروه على المحرم، ولنبتعد عن الرياء والمباهاة، وقبول المدح الكاذب، والإطراء المنافق،

ولنجدد القيم بحيث تكون منسجمة مع عقيدتنا، إلى جانب بث الفاعلية في أنظمتنا وتشريعاتنا، بحيث تضبط السلوك فعلاً، لا صورة وشكلاً فقط.

وأخيراً لنحترم الكفاءة ولنبعد «الواسطة» والمحسوبية و«الدعم».

الطوارىء والانقسام

كل مجتمع معرض للطوارىء، فإذا كانت خبراته في تلمس الحلول ضعيفة أو معدومة، فإن وعي المجتمع يكون ضعيفاً، وهذا مما يعرضه للانقسام على نفسه، وفي خضم الانقسام تضيع معايير الخطأ والصواب، والحق والباطل، والنافع والضار، وتكون النتيجة «فتنة داخلية» تجعل الحليم حيراناً، ويمكن أن أشير في ذلك إلى استشهاد الخليفة عثمان رضي الله عنه، وما أعقب ذلك من اقتتال واحتراب، حتى وجدنا الأخ في معسكر، وأخاه في معسكر آخر، ووجدنا قبيلة كبيرة مثل «طي» نصفها يقاتل في معسكر الإمام علي رضي الله عنه، والنصف الثاني يقاتل مع أهل الشام. والفتنة حين تقبل لا تكون الرؤية واضحة، وتتضح فيما بعد، ولعل وصف رسول الله عليه السلام يكون أروع وصف «**ستكون فتن كقطع الليل المظلم**. . .» ومعلوم أن العقيدة الاجتماعية، وهي حاصل جمع المبادىء والمصالح، وهي تشكل مركز الموازنة بين الاثنين ـ كما تقدم ـ الفتنة تترك آثارها في الثقافة والوعي والنظم، كما تتأثر ثقة المجتمع بنفسه وأخلاقه ومستقبله، وأفغانستان خير دليل.

فما الحل في مثل هذه الحالة؟؟

إن التسكين، كما اقترح القعقاع على أهل حرب «الجمل» وما اقترحه الحسن على والده، من ترك القتال والتوجه للحوار، لقد بقي الإمام علي رضي الله عنه يعتمد الحل العسكري، حتى أواخر أيامه، وأخيراً توجه إلى اقتسام البلاد بينه وبين معاوية، ولكن اغتياله ـ من قبل الخوارج ـ أنهى القضية لصالح معاوية ومعسكره.

وبعد بيعة الإمام الحسن لمعاوية، عاد المجتمع للالتئام من جديد،

وتخطى تلك الفتنة، وذلك الاقتتال المدمر.

إذن ليس من حل أمام المجتمع سوى رفض القوة، واللجوء إلى الوسائل السلمية والشورى وقبول التحكيم، كما على المجتمع أن يسارع ليعيد النظر فيما عنده من خبرات، ومحاولة بلورة عقيدته الاجتماعية، على صورة تعيد للمجتمع تماسكه وتضامنه وتلاحمه من جديد. أما إلقاء الجيش وقواته في هذا التيه، فإنه يشكل كارثة بكل معنى الكلمة، فالجيش وجد للعدو الخارجي، واستعماله في الداخل يقضي عليه وعلى سمعته، ويعرضه للتمزق ويدفعه نحو القيام بانقلاب، واستلام السلطة، دون علم ولا معرفة، فتتوالى الكوارث على غرار حرب عام ١٩٦٧م، والتي مازلنا حتى اليوم نعاني من ويلاتها وما خلفته وأفرزته.

تعدد الانتماء والولاء

الدارس لبعض دول العالم والمجتمعات مثل: الولايات المتحدة وروسيا والهند وإيران مثلاً، يجد المجتمع قد تكون من أصول مختلفة، وأعراق وديانات وثقافات مختلفة، كما نجد داخل كل مجتمع تعدداً في الانتماء والولاء، فتكثر الأندية والنقابات والأحزاب.

في بعض البلاد يكون الانتماء الأقوى للمجتمع، وفي البعض الآخر يكون الانتماء قويًا، والولاء عظيماً للجماعات الصغيرة، من قبيلة ولغة ومذهب، ففي إيران مثلاً هناك العرب والتركمان والبلوش والفرس والأكراد، ولكل لغته وثقافته، هذا بالإضافة إلى الخلاف المذهبي، وقل مثل ذلك وأكثر في الهند.

لكن الوضع يختلف في أوروبا والولايات المتحدة، فالولاء الكبير للمجتمع والدولة، ولا تعارض ولا تقاطع بين الولاءين.

فالمجتمع السليم المعافى، يسمح بتعدد الانتماء والولاء، إلا أنه يدمجها في الولاء الأكبر للمجتمع والدولة، وهنا لا يشعر الناس بضرورة التصادم والتقاطع، بين الانتماء للقبيلة والنقابة والنادي والحزب، وبين الولاء للمجتمع الكبير، فلكل انتماء وظيفته الخاصة، والتزاماته كذلك، وفي كثير من الأحيان يخدم الولاء الخاص الولاء العام، ويقوي النسيج الاجتماعي، ويساعد المجتمع في تحقيق أهدافه وتطلعاته، لكن: في مقابل ذلك، وفي أماكن أخرى نجد الانتماءات الخاصة قد كبرت وتعاظمت على حساب الانتماء للمجتمع الكبير وأهدافه، فتصير هذه الانتماءات ـ على

صغر حجمها ـ شوكة تؤذي المجتمع، وتهدد وحدته وسلامته.

والملاحظ أن الاستعمار حيث حل، ينعش الولاءات الخاصة، حتى تصير مرضاً من أمراض المجتمع.

ففي بعض البلاد العربية ـ في المشرق ـ حرك الأقليات الدينية والعرقية، وفي الشمال الأفريقي، حيث لا وجود لأقليات دينية، حرك الأقلية العرقية، ومازال يستعمل هذه «العملة» ويتاجر بها، فإذا رضي عن الحكومة سكت، وإذا غضب، أشعل نار الفرقة، وربما قدم السلاح والدعم من أجل الحرب.

وهناك في الغرب معاهد تعنى بالتاريخ القديم للأقليات، وتعليم لغات ميتة، وبث آداب لا يعرفها أحد، كل ذلك خدمة لأغراض لم تعد مجهولة، على أنه لا يقدم لشعوب هذه الأقليات من عون يذكر وقضاياهم تكون طي الموت والنسيان، حتى تغضب هذه الدول على تلك الدولة، فتجعل من قضية الأقلية قضية مثل «حقوق الإنسان». ففي بلد عربي يقدر عدد المعتقلين السياسيين بأكثر من عشرين ألفاً، بعضهم معتقل منذ سنوات دون محاكمة، فلما اعتقل أربعة «يهود» من شعب الله المختال، قامت صحافة الغرب عموماً، والصحافة والإعلام في أمريكا، بلطم الخدود وشق الجيوب على المعتقلين، وتذكر حقوق الإنسان المنسية، وفي فلسطين المنكوبة بسياسة الغرب، لا يمر يوم واحد لا تعتقل فيه إسرائيل فلسطينيًّا أو أكثر، أو تغتال وتصطاد فلسطينيًّا أو أكثر، فلا يذكر الخبر إلا في مكان قصي من الجريدة، أو لا يذكر، ولكن ما إن يُضرب صهيوني أو يطعن مستوطن أو يقتل، حتى تقوم الدنيا ولا تقعد، والتعذيب الذي تقوم به الدولة العبرية، بناء على قرار من محكمة غير مستنكر، ولا يشغل بال الصحافة الأمريكية، ولو اعتقل حرامي أو نشال في السودان مثلاً، تهتز

وسائل الإعلام الأمريكية والغربية على الفور.

كذلك ألاحظ مفارقة، فالجماعات المنشقة في إنكلترا «الجيش الجمهوري» وجماعة «الباسك» في أسبانيا وخارجها، تعتبر خارجة على القانون، وتطارد وتحارب بقوة، ولكن «جون قرنق» في السودان يصير بطلاً، في خدمته دول الغرب وكنائسه ويملك من الأسلحة ما لا تملكه حكومة السودان، وإنكلترا تقطع علاقاتها مع السودان أكثر من مرة والسبب «الجيش الشعبي» الانفصالي في جنوب السودان.

كذلك يلاحظ أن الجيش الجمهوري إذا فجر قنبلة مملوءة بالمسامير في السوق التجاري بلندن أو مانشستر، فالبيان يدين ذلك، وقد يصفه بعمل إرهابي، فإذا فعلت ذلك جماعة صغيرة من العرب أو المسلمين، نسب الفعل الإرهابي للإسلام، وإذا قام طبيب، تعلم في أمريكا، واستعمل سلاح الحكومة في رش المصلين الساجدين في مسجد الخليل، قيل في الإعلام الأمريكي: بأنه من عمل فرد طائش متعصب، ولم ينسب ذلك للتطرف اليهودي، حتى قاتل رابين، لم يوصف بأنه يهودي متطرف، مع أنه طالب حقوق، لكن لو كان مسلماً أو فلسطينيًّا، لطالبت الصحافة الغربية بإغلاق الجامعة التي «آمير» بعض طلبتها، ويدرس القانون فيها، وبالمناسبة فبيته لم يهدم، كما تهدم بيوت الفسطينيين!!!

المهم: الغرب عموماً شعوب اجتمعت فكونت مجتمعاً ودولة، ونحن مطلوب منا أن نتحول إلى «هيئة أمم» ففي بلد مثل العراق يشكل العرب فيه ٧٥٪ ويشكل الأكراد ٢٠٪، وتشكل كافة الأقليات العرقية والدينية ٥٪، لكن ما إن وضع الاستعمار البريطاني الخبيث قدمه في العراق، حتى جعل من هذه الأقليات هي الشعب كله، وحول الأكثرية إلى أقلية مضطهدة، وأشعل ومايزال نار الطائفية والقبلية والقومية، وفعلت فرنسا مثل ذلك

وأكثر في سوريا ولبنان. لقد صار أبناء الأقليات ـ من كل شكل ولون ـ مواطناً من الدرجة الأولى، على حين صار أبناء الأكثرية مواطناً من الدرجة الثالثة أو الرابعة، فإذا أريد رد كل إلى مكانه وحجمه قامت الدنيا، واشتعلت الحرب الأهلية، والويل لمن يتجاوز الخط «الأحمر»!!

ويبقى السؤال: مادمنا قبائل مختلفة، وأعراق مختلفة، وديانات أو مذاهب مختلفة، وأحياناً ثقافات ولغات مختلفة، فكيف يمكن أن نتعايش، ونشكل مجتمعاً واحداً متجانساً، يحمل أهدافاً كبرى واحدة؟؟

والجواب: يكون بتحقيق العدل بمعناه الواسع، والاجتماعي بمعناه الضيق، فلا يتقدم أحد إلا بكفاءة، على حين ترعى السلطة الجميع ـ دون تفريق ـ وتسمح بأن تحقق كل جماعة مصالحها المشروعة دون تميز أو تحيف أو استفزاز.

فلسنا وحدنا في العالم نملك جماعات لها انتماءات متعددة، ولها أصول وثقافات مختلفة، فلماذا يكون «الاحتقان والتشنج» من نصيبنا فقط؟ ولماذا لا نُترك دون تهييج ولا تثوير؟؟

لقد عشنا قروناً في صفاء وانسجام، حتى جاء شيطان الاستعمار، فاحتل قلوب وعقول بعض مواطنينا، فصاروا ـ وهم القلة القليلة ـ يتحكمون بالأكثرية ويمنعونها حتى من أن تتبع دينها وعقيدتها وقيمها!!

الأسرة والمدرسة والدمج الاجتماعي

دمج المجتمعات وإحداث أكبر قدر من التقارب ومن الأهداف المشتركة، تقوم بها جهات: أولها الأسرة وثانيها المدرسة، وثالثها وسائل الإعلام من مرئية ومسموعة، وقد يضاف لذلك التجنيد الإجباري والمعسكرات.

إلا أن الناظر اليوم في أمور الحياة، يرى التعب أو العجز في الأسرة والمدرسة، بينما يرى تعاظم النشاط في وسائل الإعلام.

في البيت قد تكون الأم أمية أو نصف أمية، فلا تحسن التربية، فإذا أضيف لذلك أعباء البيت، أو كون الأم عاملة، تخرج صباحاً ولا تعود إلا في المساء، متعبة تحمل هموم ومناكفات العمل، فكيف العمل؟؟ لذا رأينا الأم اليابانية ولقبها «الأم المعلمة» تترك العمل إذا تزوجت، فإن لم تفعل ذلك، تركته مع إطلالة المولود الأول، لتتفرغ له، فلا يشغلها شيء عنه، ولا عن تربيته وتعليمه، فهي مشارك له في صغير الأمور وكبيرها، وهي تتابعة دون كلل ولا ملل، على حين تبعث بعض العائلات في الغرب أولادها إلى سكن داخلي، يربيهم ويرعاهم، أما الأهل فتكون زيارتهم في المناسبات فقط.

لقد تحولت الكثير من المدارس إلى علب تعليم، فالمكان صغير، وعدد الطلبة كبير، والبقاء في المدرسة محدود، لأن المكان تستعمله أكثر من مدرسة واحدة، فإذا أضفنا لذلك تذمر المعلمين من قلة الرواتب، علمنا سر الأداء الناقص، فإذا أضفنا لكل ما تقدم ضعف المعلم، والذي يتحول مع الأيام إلى شخص أمي، فلا قراءة ولا دورات ولا اطلاع.

المعلم لا يعرف سوى الكتاب المدرسي، يحفظه وينقله لطلبته، وإذا وجد معلم يقدم معلومات أكثر مما في الكتاب المدرسي، سجل ذلك ضده، وإذا اكتفى بالكتاب فقط قيل معلوماته محدودة لا تتجاوز الكتاب، ويحتار المسكين ماذا يفعل، فهو الملام في الحالين!!

الجديد في حياة المعلم في البلاد العربية، توجهه للدروس الخصوصية، فالكثير حول بيته إلى مدرسة، ومن عجز تراه يطوف على البيوت بيتاً بيتاً ليعلم الطلبة هناك، وكل هذا على حساب كرامته أولاً ونشاطه في المدرسة بعد ذلك.

وقد وصلت الدروس الخصوصية ـ للأسف الشديد ـ إلى أساتذة الجامعات، وحجتهم الحاجة، فثمن أو أجرة المحاضرة أقل من دولار في الجامعة، والراتب زهيد، فلم يبق سوى الدروس الخصوصية.

والخلاصة: لقد أفرز الوضع المذكور ـ فيما أفرز ـ هوة بين الآباء والأبناء، فلا يفهمون بعضهم، ويعجز الآباء عن تلبية رغبات الأولاد وتطلعاتهم، الأولاد يتحدثون عن السيارات الفخمة الجديدة، والتي راحت صورها تملأ البيوت، أو عن كرة القدم وأبطالها، والذين تزاحم صورهم صور السيارات، أما القراءة فلا تتعدى الكتاب المدرسي، وهي تتجرع كما يتجرع الدواء المر. والبركة بعد كل ذلك في التلفزيون والفديو والكومبيوتر!!

إن هذا الوضع كفيل بزرع توترات اجتماعية كثيرة، كما يمكن أن يدفع ويساهم في تغييرات متسارعة، غير مدروسة، يصعب على المجتمع احتواؤها والتكيف معها. وليس الحل يسيراً كما أتصور، لأن الأمر يتطلب علاجاً اقتصاديًا يتمثل في رفع أجور الأساتذة، وتقليل عدد الطلبة، والتحسين في المدرسة مكاناً ووسيلة، وإعداداً جيداً للمعلم، وربطاً جيداً

بينه وبين الطالب، وكل ذلك يتطلب أكثر من علاج واحد.

ويمكن أن يضاف لما تقدم: الإكثار من حلقات تدريس وتحفيظ القرآن الكريم في المساجد وخارجها، وإعطاء المعلم مركزاً كذلك الذي تعطيه له اليابان، لينهض بواجباته على الوجه المطلوب، ولا يسمح مطلقاً بالسخرية منه في وسائل الإعلام، بل أذهب لجعله جريمة يعاقب عليها.

ففي بلد عربي منكوب، يعاقب كل إنسان بالقتل إذا أساء للحاكم، فإذا سب الله تعالى يعاقب بالحبس ثلاثة أشهر، وقد صور شاعر المفارقة فقال:

يقـــاد للسجـــن إن ســـب الـــزعيـــم وإن
ســـب الإلـــه فـــإن النـــاس أحـــرار

لقد كان معلم اللغة العربية بالذات، محلاً للسخرية مدةزادة على أربعة عقود، فحط من شأنه، ومن شأن اللغة العربية معه، كما زامن ذلك سخرية لاذعة لمعلم «الكتاتيب»، ولم تختف إلا بعد اختفاء هذه الكتاتيب.

أما وسائل الإعلام فهي اليوم فارس الميدان، خصوصاً المرئية، وهي تجتث قناعات وتزرع أخرى، تحسن ما تشاء وتقبح ما تشاء، ويمكن القول بأن ذلك يقع دون رقابة جيدة، ولا وعي كبير.

وتذاع عادة مواد متعارضة، تصل إلى حد التناقض، فما يقوله فلان عن الحشمة، والالتزام الخلقي، تأتي التمثيلية، بعد ذلك مباشرة، فتمسح كل ما قال، وتضع قيماً ومفاهيم مغايرة، ولست أدري أثر ذلك في نفس المستمع المراهق أو غيره، وهو يحتار. يقبل مَن، ويرفض مَن؟؟

لذا فقد يكون من المفيد وضع برامج دراسية، تتعلق بالقيم، مع شرح يوضح التغييرات الاجتماعية، وتفصيل للأهداف الكبرى، وبيان المخاطر الناتجة عن التفكك الاجتماعي.

إن تربية الأجيال التي سبقتنا كانت تعتمد على المربي، أما اليوم فيستمع الناشىء لجملة توجيهات في وقت واحد. فالأب والأم يقولون شيئاً، بينما يقول الأصدقاء شيئاً آخر، المعلم في المدرسة يوجه والتلفزيون يوجه، وكل هؤلاء يصبون في عقل الناشىء وقلبه فيحتار لمن يسمع.

يلاحظ بعض الزملاء أن الأولاد يتناولون الطعام، وعيونهم مسمرة على شاشة التلفزيون، ويشك في تذوقهم لما يأكلون، ويقول بأن هذه العادة بقيت مستمرة حتى لدى الذين دخلوا الجامعة.

ويشكو صديق مر الشكوى، بأن أولاده انقسموا في تشجيع النوادي والفرق الرياضية، وصاروا يتشاجرون ويتعاركون بسبب ذلك، فأحالوا هدوء البيت إلى هرج ومرج وهذه حالة جديدة، تضاف إلى أشياء أخرى، تضيف للبيت وأهله متاعب.

بعد كثرة القنوات التلفزيونية، تصاعد الشجار والنزاع بين الأولاد، هذا يريد أن يتابع التمثيلية على قناة كذا، وأخوه يريد غيرها. يقول «أب غلبان» لم أجد حلاً لهذا البلاء، فاشتريت أكثر من تلفزيون «لفك الاشتباك».

وبعد هذا جدت اشتباكات أخرى تتعلق بالكمبيوتر، والذي تحول إلى مجرد لعبة، فهذا الولد يجلس الساعات، فإذا جاء أخوه يطلب نصيبه طرده، وحصل النزاع.

يتساءل هذا الأب الصديق ما الحل؟ وما العمل؟

المجتمع وتجديد شبابه

هل يمكن أن يجدد المجتمع شبابه؟؟

سبق أن قدمت بدهية حضارية ملخصها: أن المجتمعات ومثلها الدول وكذلك الحضارة، تولد فتية قوية، ثم تتناوشها الأمراض، وتنتابها العلل، حتى تشيخ وتهرم وتموت. هذه سنة من سنن الله في الكون والإنسان والحضارة، لا يفلت منها أحد، ولا يستطيع تجاهلها مجتمع أو حضارة، وهذه السنة العادلة هي الأمل والسلوة لمن يسير في ذيل القافلة، أن يتشجع ويقوم ليستلم القيادة، متى أهّل نفسه لذلك، وأخذ بشروط ومستلزمات التقدم. أما من أهمل وتقاعس فخسر الريادة والقيادة، فعليه أن لا ييأس، فكما تقدم أول مرة، يمكن أن يعيد الكرة، بشرط أن يدفع الثمن الواجب.

فتجديد شباب المجتمع أو الدولة، أو إعادة الحيوية لحضارة ذبل كل ما فيها، كل ذلك ممكن ولكن بثمنه، ليس بالأماني ولا بالأحلام، ولكن بالعمل الجاد والصادق، ومعرفة جيدة بمتطلبات التقدم والنهوض.

فالله تعالى لا يحابي أحداً، ولا ينصره ولا يسلمه قيادة، لم يكن لها بأهل، ولم يبذل في سبيلها ما يجب، فالبداية ـ صعوداً أو نزولاً ـ تأتي من الإنسان ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾. (الرعد: ١١).
﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.
﴿الأنفال: ٥٣).

﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾. (الشورى: ٢٠). إن المجتمع يستطيع أن يحتفظ بتماسكه ووحدته وحيويته، كما يستطيع أن يهمل

كل ذلك، حتى يشيخ ويهرم، وعندها يتنحى المتعب جانباً، ليفسح المجال لمن هو أقوى منه وأشجع، ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾. (آل عمران: ١٢٠). ولو فعل هكذا، لرأيت جيوش «المنافقين» تزحف كالنمل، لا حبًا في الإيمان، ولكن طمعاً في «الأصفر الرنان». لذا فقد تكرر في القرآن: ﴿كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً﴾. (الإسراء: ٢٠).

ويقول ـ بمنتهى الوضوح: ﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين﴾. (آل عمران: ١٤٥).

بقي أن أشير إلى أن الناس يعامل بعضهم بعضاً ـ في المجتمع ـ وفق قواعد وقيم ومعايير معينة معروفة، وهي بحاجة دائمة إلى تلقين وتنشئة جديدة، فالناس عادة يحبون المألوف المعروف، وينفرون ويتخوفون من الجديد الطارىء، لعدم الألفة ولخوفهم من العواقب المترتبة على الجديد.

لذا رأينا الأفكار الجديدة، والمبادىء المستجدة تروج بسرعة بين الشباب، وليس لها ذلك السوق بين الكبار.

وهذا يجري على الأديان، فمن يدرس أعمار الصحابة يجدهم من الشباب، أما كبار السن، فقد ابتعدوا، وعلى رأسهم جد رسول الله ﷺ وعمه.

وقد كنت ومازلت أحفظ حديثاً ـ من أيام التتلمذ ـ لرسول الله ﷺ يقول: **«أوتيت بالحنيفية البيضاء، فحالفني الشباب وخالفني الشيوخ، فأوصيكم بالشباب خيراً»**.

بقي أن أشير إلى أن كل مجتمع، ومثله الدولة والحضارة، يحاول «تحنيط» نفسه، وعزلها عن تيارات التجديد والتغيير، ولكن هيهات، إنه مجرد تأخير لوصول البديل، فالمجتمع متى هرم ومثله الدولة والحضارة،

ووصل إلى الطريق المسدود، بسبب جموده وركوده، وبعده عن فهم الواقع، وحسن التعامل معه، فلابد للجدار أن يسقط، على يد الأبناء أو الأعداء، أو بكارثة تحيق به، ليقوم على رماده مجتمع جديد، أو دولة حديثة، أو حضارة مستجدة، قد يكون الوليد الجديد أسوأ حالاً من القديم، فقد خلف البرابرة الأسباب عرب الأندلس، وحكم المغول بغداد، بعد أن استلبوها من أيدي العباسيين، وهذه هي السنة الكونية، التي علينا فهمها، وحسن التعامل معها، وليس تجاهلها أو القفز فوقها، أو محاولة توقيفها وتعطيلها.

ليس كل تغيير سيكون للأمام، كما يقول هيفل وتلامذته من الماركسيين، ولكن متى تمت شروط التغيير، فلابد من حصوله، رضي الناس أم سخطوا، أحبوا أم كرهوا، نحو الخير أو الشر. وبالأمس شهدنا الانفجار الاجتماعي في المعسكر الشرقي الشيوعي، وغداً ربما حدث انفجار مماثل في أمريكا أو الصين، ولا أحب أن أجادل أحد في أن ما حدث في روسياوتوابعها، هو آخر الانفجارات حدوثاً، فهذه السنة الكونية ماضية، وعجلة الحضارة دائرة، ولن تتوقف مجاملة لأحد، مهما كان هذا الأحد مستفرداً أو متغطرساً، ففرعون ونيرون وهتلر وستالين، لم تنقصهم الغطرسة، ولكن كان ينقصهم فهم السنن، وقوانين تحرك المجتمع، وكل «ستاليني» أو «فرعوني» سيسقط غداً، مهما أحاط نفسه بالزبانية، واتخذ من وسائل الإرهاب ما اتخذ، والتاريخ لا يرحم أحداً، ولا يحابي أحداً، ومن لا يصدق فليقرأ ما قيل عن فرعون ونيرون وهتلر وستالين والحجاج، وليقرأ قبل ذلك سيرة أبي بكر وعمر، والخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز وصلاح الدين الأيوبي، ففي ذلك كفاية لمن ألقى السمع وهو شهيد.

نحن نرى اليوم «أقزاماً» تقف على أطراف الأصابع، وتمد الأعناق وتحسب أنها طالت السحاب، وبلغت مبلغ الأبطال!!

لا يا سادة، فالتاريخ لا يغش بكثرة المنافقين المصفقين، ولا ينبهر

بعدد المداحين الكاذبين، وإن حدث ذلك، وهيهات أن يحصل، فالموعد غداً، والحكم هو الكبير العادل، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فإن فاتكم العقاب في الدنيا، فهل تطمعون أن تفلتوا غداً كذلك؟؟!!

التجدد الاجتماعي

أكره أن يتحدث إنسان عن نفسه، بل أجد صعوبة في تقبل حتى مجرد التعريف، ولكني حين أكتب أجدني مضطراً لمخالفة ذلك، كي يوضع حديثي في مكانه المناسب، ومن هذا المنطلق أود أن أشير بكلمات لما عايشت وتعلمت من الحياة، فقد نشأت في حكومة ملكية، كانت تسمح بمساحة كبيرة من الحرية، إذا ما تذكرت الحكومات الثورية التي أعقبتها، والتي بقيت تلعنها صباح مساء، فإذا الحكومات الثورية تصادر الحريات، والأموال، والكرامة، وتزرع من صنوف الفساد والإفساد ما لم نعرف عشر معشاره في الحكومات السابقة، وأصاب المواطن من الإرهاب والعنت فوق الوصف، ثم جاءت أيام تنسمنا روائح الحرية، فسارع ضباط صغار العقول والنفوس، فأطاحوا بالحكم وأهله، ودخلنا في نفق مظلم، وحمام من الدماء غزير مازال يتدفق، ورجعنا إلى الوراء قرناً كاملاً أو أكثر.

ومهما حاولت تجاهل هذه الفترة وما قاسيت، وقاسى أهلي وأبناء وطني، فإن الواقع المؤلم يستصرخني، فيكون كمن يوخز بإبرة غليظة. ولقد مرت أيام عصيبة خشيت فيها على نفسي وعقلي، فقد رأيت خراب وطن تكاتف أهله لعشرات الأعوام حتى بنوه، ووضعوا فيه عصارة عقولهم ودمائهم وأموالهم، وإذا كل ذلك ينهار في أيام معدودة، لتعود البلاد وكأنها خرجت لساعتها من الحرب العالمية الأولى. وإذا كان بعض الناس يختل عقله، إذا ذهب ماله دفعة واحدة، أو صودرت أراضيه وعقاراته دفعة واحدة، فبماذا يمكن أن يصاب إنسان، وهو يرى وطنه يهدم فوق ساكنيه، ويتحول من الغنى إلى التسول، ومن الاستقلال إلى الوصاية، ومن الكرامة إلى المهانة؟؟

الذي وعيته ـ من الحياة والقراءة معاً ـ إن نسيج المجتمع معقد، ومكونات العقيدة الاجتماعية كثيرة متنوعة، لا تسير على نمط واحد، ويمكن الادعاء والقول بأنها محكومة بقوتين: قوة تجذب وقوة تنبذ وتطرد، وهنا يحدث عجب، فالحياة الاجتماعية تطفح بالتوافق والتنافس في وقت واحد. والناس على أصناف، فمنهم الراضخ للعرف الراضي به، ومنهم الراضخ، وإن كان غير راضٍ، ومنهم «قلة» من المفكرين والمصلحين والأفذاذ، يرون ما لا يراه جمهور الناس، فينفذون إلى الواقع، بصورة فردية، فلا يرضون عنه، ويحاولون بكل إصرار نقل رؤاهم وتصوراتهم، بل أحلامهم إلى مجتمعهم، ليبذروا فيه بذور التغيير والتبديل ويحضرني في هذا أسماء مثل: الحسن البصري، وأئمة المذاهب الكبرى، والغزالي، وعبدالقادر الجيلاني وغيرهم كثير، فمن يقرأ لهؤلاء نقدهم لمجتمعهم، يجد صدق ما أقول، بل فوق ما أقول وأزعم. فإذا انتشرت الأفكار، وتراكمت إلى جانبها الخبرات، وساعد على ذلك نوع من التقدم في المعاش، واستقرار في السياسة والحكم، فكل هذا ييسر ويسهل في عملية تغيير المجتمع، وانتقاله من طور إلى طور.

بقي أن أشير إلى أن بعض الأعراف الاجتماعية تكون من القوة بحيث تأبى بطبيعتها، أو على الأصح بقوتها النقاش، فهي ـ كما يبدو ـ تحيا خارج منطقة الوعي الاجتماعي، لذا نجد بعضها قادر على الاستمرار قروناً، دون أن يحصل لها تغيير يذكر، أو تبدل في الجوهر.

لكنني أعرف جيداً أن «منطقة الوعي» ليست ثابتة المساحة، وعلى حالة واحدة، فقد تواتيها فرص فتتمدد، وهنا تدخل في محيط دوائرها وهيمنتها أشياء أخرى، قد لا تكون داخلة قبلاً، وهنا يثار النقد، لهذا التوسع غير المقبول.

وألاحظ أن عصرنا الحاضر، صار يختلف عن العصور التي سبقته، فبسبب تفوق الحضارة الغربية وانتشارها، طرحت مذاهب فكرية واجتماعية وفلسفية، وحتى منطقية، وواقعية ونفعية وعدمية، إلى نظم اجتماعية وسياسية، فدفعت الناس نحو مناقشة كل شيء، من الثوابت إلى المتغيرات، وأشعر ـ مرة أخرى ـ بأن «التقاليد والعادات» أخذ بريقها يخفت، وراح الكثير يتذمر لأننا نعطي أهمية زائدة لعادات وتقاليد لا تستحق ذلك كله.

وهذه المراجعة ـ شأن الكثير من المراجعات ـ تقوم بها أطراف عدة، بعضها يريد أن يتجاوز الكل، ويقفز بعيداً عنه، والبعض يريد التحرك بحذر وحيطة، وربما كان الموقف من التراث، يشكل نموذجاً جيداً، ومثل ذلك الأصالة والمعاصرة، والمحافظة على الهوية، إلى أشياء كثيرة. وهنا تبرز قضية «المرجعية» في عملية الغربلة، فمن هو المرجع؟؟ هل هو الغرب وحضارته، أم القيم الإسلامية، أم المصلحة الوطنية، أم مصلحة الأمة؟؟

إن توجهنا صار يميل إلى جعل المنهج الرباني جزءاً من تراثنا وثقافتنا ـ كما لدى بعض أحزابنا ـ كما ألاحظ أن «البعض» يحاول إلباس كثير من الشعائر والعبادات لباس التقاليد والعادات، وليست منها، ففي ذلك خطر على الدين، وقلب للحقائق، فالمفروض أن يكون المنهج الرباني هو المهيمن على ثقافة المجتمع، والموجه لها، لا أن يصيرا جزءاً منها، فتهبط قيمته.

لذا فالمطلوب أن تتحول مناقشاتنا لتقاليدنا وعاداتنا، حول انسجامها مع قيمنا الإسلامية بالدرجة الأولى، ثم حول تحقيقها لمصالحنا بالدرجة الثانية، وليس العكس.

التغيير بين البطيء والسريع

أعتقد بصدق وقوة، أن التغيرات السريعة، ومثلها التحولات العنيفة، كثيرة الضرر، قليلة النفع، فقابلية المجتمع ـ خصوصاً في العالم الثالث ـ ضعيفة لتقبل الجديد، فإذا كان التغير عنيفاً متتابعاً ـ كما في الثورات العربية ـ أدى إلى تفجير الأنظمة الموجودة، وإلى صعوبة إحلال جديد مكانها، وعجز مخيف على هضم التغيرات وأقلمتها مع أطرها العامة، والمرجعية العليا، وهنا يختل التوازن الذي كان قائماً، وتظهر الثورة المضادة، وأحياناً الأفعال الطائشة، وثمرة كل ذلك فقدان الإجماع الثقافي والسياسي، وانقسام الوعي، وتجمد معايير الخطأ والصواب واختلافها، فما يقول عنه البعض أنه حق وصواب، يقول آخرون إنه باطل وضلال، وقد قدمت نموذجاً: ففي بلد عربي هناك موقفان: الأول يقول عن نظام الحكم بأنه إسلامي صورة، ويطالب بزيادة الجرعة الإسلامية، ويتهم طرف ثانٍ النظام قائلاً: بأن جرعته الإسلامية قوية جدًّا، والمطلوب التخفيف منها، لا يعقل هذا في نظام واحد. وقضية المرأة وحقوقها، تدخل في هذا الحيز، فما يريده لها طرف، يرفضه كليًّا طرف آخر.

وأخلص مما تقدم إلى قناعة قوية عميقة، قد تصل إلى الحتم، بأن التغيير الاجتماعي أمر لابد منه، لذا فالواجب ليس المقاومة المستميتة، وإعلان الحرب، بل الترشيد من خلال مراقبة دقيقة، تضع «خطوطاً حمراء» حول الثوابت والأصول والأهداف الكبرى، ثم تشجع كافة الوسائل على الإبداع، بعيداً عن الخطوط الحمراء، كما نعمل بجد وهمة لتنشيط وظائف نظمنا الاجتماعية، من صلات الرحم إلى الأوقاف، إلى العناية بالأيتام والصغار والأرامل، وباختصار شديد، العمل بهمة لتحقيق آمالنا وأهدافنا السامية في هذه الدنيا، كما ترسمها مرجعيتنا.

الإسلام والحياة

إن الإسلام جاء بالشورى، لكنه لم يوضح الطريقة، وجاء بالنظام السياسي، لكنه لم يأت بالتفصيلات، وبالمثل أغفل متعمداً الكثير من الوسائل والأدوات التي تنظم شؤون حياتنا، لكنه في المقابل فصل في العبادات والأحوال الشخصية والتعازير، إن عدم التفصيل يتيح لنا حرية الحركة، وقبول التجديد والتغيير، والإبحار بشجاعة صوب المجهول.

والواجب يملي علينا أن نمتلك الشجاعة والفاعلية، للاستفادة من هذه الشريحة في الحرية، واستعمالها في ترقية شعبنا وإصلاح أمور مجتمعه.

نحن لا نملك مثلاً مساحة للتحرك في «الحدود» وذلك لوجود النص الواضح الصريح، إلا أننا نملك حرية واسعة في «التعازير» بحيث يمكن أن نرفع العقوبة فيها لتصل إلى القتل، ونهبط بها، في ظروف أخرى لتصل إلى النصيحة.

وبالمثل يمكن أن نجعل عقوبة مروّج المخدرات القتل، فإذا ابتعد الناس عنها، هبطنا بالعقوبة إلى السجن أشهراً، أو إلى الغرامة. (هذه مجرد أمثلة لتوضيح الفكرة).

المجتمع الذي ننشده

كل مجتمع إنساني يتكون من وحدات، يربط بينها روابط ووشائج، ولها معايير، تؤدي في مجموعها إلى بقاء المجتمع متماسكاً، وعدم تفسخه أو تحلله.

ومن مهمات الثقافة، أن تحدد لكل مجتمع أهدافه، مع بيان طرق ووسائل تعامل أفراده مع بعضهم، كما تحدد صور تضامنه وتواصله الروحي والأخلاقي.

وبالنسبة للتقدم ـ وهو هدف اجتماعي كبير ـ هناك تقدم مادي، وتقدم روحي، قد يتزامنان، وقد يفترقان.

وقد كان الغرب يحلم ـ إلى عهد قريب ـ بأن التقدم المادي سيجلب بالتبع، تقدماً روحيًا، لكن ذلك لم يحصل، ولا أحسب أن نجد في الغرب من يحلم اليوم بذلك.

التقدم المادي له أدوات يعرف بها ويقاس، مثل نسبة المتعلمين، أو الدخل القومي، أو استهلاك الكهرباء، أو غير ذلك.

ومع هذا يظل نسبيًا، فكندا مثلاً أقل تقدماً من ألمانيا، لكنها أكثر تقدماً من البرتغال وهكذا.

أما التقدم الروحي والأخلاقي، فالثقافة هي المقياس لذلك، ومن هنا فمواصفات تقدمنا لا يجوز أن تكون بعيدة عن ثقافتنا وقيمنا، وهذا لا يعني الانغلاق، وعدم الاهتمام بالقيم العالمية، مثل التعددية في الأفكار، وحقوق الإنسان، والخصوصية الثقافية.

ولكن ذلك يعني بوضوح: أننا نملك «تقويمنا» الخاص، كما عندنا

سلّم للأولويات، قد نخالف فيه غيرنا، وعندنا حلال وحرام، ليس عند غيرنا، كما لدينا أمور وردت فيها نصوص صريحة، يصعب علينا أن نتجاوزها، ويمكن أن نشير في نقاط إلى ما ننشده في مجتمعنا، ونتطلع بشوق كبير لتحقيقه، وذلك ليس ترفاً، ولكن لأجل التقدم الذي نريده، ونعمل له بوعي وإرادة، وليس بالتمني والحلم.

١ ـ وأول قضية، بل رأس القضايا ـ كما أتصور ـ أن الأهداف الكبرى للمجتمع، لا يمكن أن نتركها للبشر، فذاك فوق طاقتهم، فالرشد الإنساني، مهما بلغ، فهو عاجز عن أن يحدد للفرد والمجتمع، الغايات الكلية للحياة والوجود، دون استشارة للوحي، وبعيداً عنه.

وقد بقيت الفلسفة تبحث منذ العهد اليوناني، عن الهدف النهائي للحياة الاجتماعية، لكنها وإلى يومنا هذا لم تتفق على شيء.

فلو سألنا رجلاً مثل «أوكست كانت» عما ينشده لقال: إنه يمكن أن يكون الهدف تحقق تقدم للجنس البشري، من أجل تلبية لنزعة فطرية، يريد أن يحسّن مركزه في الحياة، على اختلاف نواحيها.

بينما يرى رجل مثل «سبنسر» أن هدف الحياة الاجتماعية هو تحقيق السعادة، متمثلة في المنفعة.

ورتب ـ مثل أفلاطون ـ على ما تقدم بأن الإجراء المناسب تجاه العجزة ومثلهم الشيوخ، وحتى الأيتام يتكون بتركهم دون مساعدة حتى يموتوا، وعلل هذه الفلسلفة بأن أقواله هذه تتمشى مع قوانين الطبعية، فهي مثلاً تعتمد البقاء للأقوى.

بل ذهب فلاسفة إلى ضرورة قتل المجرمين والتخلص منهم، وكل هذا لأن اعتماد مقياس بعينه، مثل المنفعة، يمكن أن يوصل إلى قناعات غريبة عجيبة. فإذا سألنا رجلاً مثل «دوركايم» عن هدف الحياة الاجتماعية، أجاب: إن الحياة الاجتماعية هي الغاية التي ليس فوقها ولا

بعدها غاية. فلا يجني البشر من الحياة الاجتماعية، سوى الحياة نفسها، فهي هدف ذاتي وجوهري لكل إنسان.

أما الناقد البريطاني «كولن ولسون» فهو يصرح: إذا كان للإنسان أن يحيا حياة أفضل من حياة الخنزير فلابد له من دين.

أما الفيلسوف «راسل» فهو ينظر للحياة نظرة مغايرة لزملائه، ورجال عصره، فالحياة إذا أريد لها أن تكون إنسانية، فيجب أن تستهدف غاية خارج نطاق الإنسان، مثل الله تعالى أو الحقيقة أو الجمال.

ثم يقرر بقوة: إن الذين يخدمون تقدم الحياة، لم تكن الحياة غايتهم، بل كان خلفها أمور أخرى.

وتوجه «راسل» هذا ـ في تصوري ـ لم يستلهمه أحد في الغرب، ولا أثر له هناك.

فلقد طغى طلب اللذة والمنفعة والاستمتاع بالحياة، والتطلع إلى مزيد من السعادة، كل ذلك طغى ومايزال، على أي صوت آخر، ولو كان لراسل أو كولن ولسون وأمثالهم.

إن التوجه العام الجارف هو للمنفعة واللذة، والمزيد من السعادة، ولو كان عن طريق الشذوذ الجنسي أو تعاطي المخدرات، وتناول الكحول والإدمان عليها.

أما هدف الحياة عندنا فهو الحصول على رضاء الله تعالى، وذلك بعبادته كما أمر، والمساهمة في عمارة الأرض، والتقرب إليه بكل عمل مشروع في أصله، نافع ومفيد في تطبيقاته.

فإن كان الله تعالى لا يرضى عن العمل هدفاً أو وسيلة، فليس من حق المسلم عمله أو اقترافه.

تبقى قضية لا يمكن تجاهلها، فالغرب ينشر فلسفته وحضارته في كل

مكان يستطيع، ويتخذ لذلك ألف وسيلة ووسيلة، لذا فقد تأثرت مجتمعاتنا تأثراً مختلفاً، يمكن أن نلمسه بين القرية والعاصمة، بين الاسكندرية ومدن الصعيد مثلاً، بين استانبول ومدن شرق الأناضول وقراه.

إن إحساسنا بالقيم والأهداف الكبرى ضعف، وبعض أبنائنا اليوم يتبنى الأهداف الغربية، ويعتقد أنه متى أقنع مجتمعه بها حصل على التقدم، أو لحق بالغرب وحضارته، ويفوت هؤلاء قضية، فالإنسان لا ينسلخ عن قيمه ومعتقداته، كما ينزع ثوبه أو يغير ملابسه، والتاريخ لم يعرف أناساً تحضروا بمجرد تقليد الآخرين، أو استعمال ما طرحته حضارة، واستعمل ذلك أبناء حضارة أخرى، فكل العالم اليوم يستعمل منتجات الغرب، ومع ذلك هل تحضر الكل؟

الأمر أصعب من ذلك وأعقد من ذلك بكثير.

وقد توالت الهزائم العسكرية على الآتراك العثمانيين، فحملهم ذلك على التفكير والقول: كنا بالأمس في انتصارات متوالية، واليوم نحن في هزائم متوالية فما السبب؟

وراح كل يطرح فكرة وسبباً، حتى قام سلطان عثماني وقال: يجب أن أعرف لماذا تأخرنا، وتقدم الغرب علينا؟ فسافر إلى أوروبا، كما يسافر المصطاف اليوم، فلا يرى من الحياة إلا المظاهر، وعاد السلطان ليقول - بملء الفم - وجدتها: إننا نلبس الطربوش ولا يلبسونه، ونطلق لحانا وهم يحلقونها، ونساؤنا محجبة ونساؤهم بلا حجاب.

وأشهد أن الكثير من أبنائنا اليوم لا يختلفون كثيراً عن ذلك السلطان العثماني وتشخيصاته، كما لا يختلف اقتاصديونا ولا سياسيونا كثيراً، إلا ببساطة السلطان وأمثلته، وتعقد رجالنا وأمثلتهم، وعلى من لا يعجبه ما أقول أن يقرأ «مستقبل الثقافة» لطه حسين، وما كتبه المعاصرون له من أمثال

سلامة موسى، وأحمد أمين، وما يكتبه البعض في صحف ومجلات اليوم.

إننا أمام مسؤولية تتمثل بضرورة معرفة أن (رضاء الله) هدف كبير لنا، وعلينا استعمال كافة الوسائل النافعة لتحقيق ذلك، ما كان منها إعلاميًا أو تربويًا، وإلا فإن مجتمعاتنا ستفقد التوجه، كما تفقد سفينة اتجاهها، لأنها فقدت «البوصلة».

كما علينا أن نجد ونجتهد في ذلك، وأن لا نبقى ندور في جدل لا نهاية له، وحلقة مفرغة لا بداية لها. ولرب سائل يقول: لماذا هذا التطلع؟؟

فنجيب بأنا نريد مساعدة البيت والمدرسة، في الوصول بالتربية الاجتماعية إلى أدوارها النهائية، بما نوفره لها من خدمات ومستلزمات، ومنها المعلومات النافعة، والعمل على حل مشكلاتها المستجدة، هذا إضافة إلى الرعاية للمحتاجين. كما نستهدف تخفيف العبء عن الدولة، وذلك بتحمل قسط من مهامها، كي تتفرغ لمهام أخرى أكبر وأعظم. ومن المهمات أيضاً تحفيز الطاقات الخيرة ودفعها لخدمة المجتمع.

فبدلاً من التسكع في الشوارع والمقاهي، يتمكن المجتمع من استيعاب هذه الطاقات، وإفساح المجال لظهور المواهب والقدرات.

إن مجتمعاتنا مازالت بعيدة عن المشاركة الاجتماعية، لذا رأينا الشاب يشغل نفسه بـ«التفحيط»[1] أو سرقة السيارات، أو السهر طوال الليل، ثم النوم طوال النهار، أو الاستغراق في لعب «الورق» ساعات، على حساب الدراسة والاشتغال بالواجبات.

أما المؤسسات الوسيطة، فتقف بين الدولة والأفراد وتعمل على تأمين

---

(١) التفحيط السير بالسيارة بسرعة وكتابة رقم (8) أو السير على عجلتين فقط، مما يهدد الأرواح، ويقضي على السيارة بسرعة.

التجدد الاجتماعي، بما تملكه من طاقات بشرية ومادية، وبما تحت يدها من روح البذل المجاني، فجمهور المتطوعين يعطي في العادة عطاء جيداً، حين يوجه ويُستشار.

وهذه المؤسسات هي الأقدر على تحليل الواقع من الأفراد، ولذا فهي يمكن أن تؤمن التجديد المتدرج المستقر، وهو ما نحن بأشد الحاجة إليه، وهذا ما يمكن أن نلمس مثله الجيد في الإغاثة، ودورات التعليم المجانية في العطل، ودورات تعليم البنات وغيرها.

٢ ـ كل مجتمع يضع لنفسه سلم أولويات، فيرتب الأمور فيقول هذا مهم وذاك أهم، وهذا يقدم وذاك يؤخر وهكذا.

ونحن من هذه المجتمعات، لذا لابد من معرفة سلم الأولويات، حتى لا نقدم المهم على الأهم، ولا نقدم المندوب على الواجب، ولا نحارب المكروه أكثر من المحرم، ولا نتشنج عند مظهر لا نرضاه، ونغمض العين عن عيب كبير، لأننا لا نراه في الظاهر.

الكليات الخمس

لقد رتب علماؤنا الحاجات الإنسانية في خمسة أصول، أطلقوا عليها «الكليات الخمس» وهي حسب الترتيب: حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال، وهي محور ثقافتنا العامة.

فالمسلم عليه أن يحفظ دينه وعقيدته من الإلحاد والابتداع في الدين، وإن كان الواجب عليه الإبداع في الحضارة.

وعلى الإنسان المسلم حفظ نفسه فلا يعرضها إلى الهلاك، وأن يحفظ عقله من كل مؤثر عليه، من شرب مسكر أو مخدرات أو تعاطي الشعوذة والسحر، أو قبول الكهانة وأمثالها.

كما عليه حفظ عرضه وعدم الاعتداء على الأعراض بالفعل أو القول. وأخيراً عليه أن يتصرف بماله تصرفاً رشيداً سليماً، بعيداً عن السفه والتبذير أوالتقتير.

وهذه المطالب تتعدى إلى الآخرين، فالمسلم يحمي عرضه وعرض غيره، ويحفظ ماله وأموال غيره، وهكذا يشعر كل مسلم بحرص مجتمعه عليه، وعلى حقوقه وممتلكاته، حتى إذا وجد المجتمع فرداً يعتدي على آخر، وقف إلى صف المظلوم وناصره، ليوقف المعتدي عند حده، ولا خير في مجتمع يتخذ موقف المتفرج، وهو يرى أحد أبنائه يظلم ويفتات على حقه، أو يعتدى على كرامته وآدميته.

ولكن ما العمل إذا صار حارس العدالة هو اللص؟ وما الحيلة إذا صار الحاكم جزاراً لشعبه، ساطياً على أعراضهم وأموالهم؟

وما الحيلة إذا صار الحاكم أسداً علي وفي الحروب نعامة؟

لمن نشكوا إذا هادن الحاكم العدو، وأعلن الحرب على شعبه؟

وأخيراً: ماذا نقول لحاكم أنشأ محكمة «أمن الدولة» قبل أن يستطيع إنشاء دولة، أو عشر دولة؟

ماذا نقول لحاكم يأمر باختطاف مواطن، فيأمره العدو بإطلاقه؟!!

إن الإسلام قد شرع جملة عقوبات، لمن تسول له نفسه الاعتداء على الكليات «الخمس» السابق ذكرها.

تبقى قضية هامة وهي تنفعنا هنا، وهي ترتيب أمور الحياة أو توزيعها بين ضروري وحاجي وتحسيني، فإذا اصطدم أمر ضروري مع غيره، قدمنا الضروري وهكذا.

فحفظ حياة الإنسان من الضروريات، ولكن ستر العورات ليس كذلك، فلو اقتضى أمر المحافظة على حياة امرأة أن تكشف عن عورتها كشفناها، حفظاً لحياتها.

وإذا تعارض حفظ النفس والمال، قدمنا النفس على المال وهكذا. فسلّم الأولويات معروف، وقد نحتاج فقط إلى التذكير به، وتنشئة الأجيال على ذلك، يضمن لمجتمعاتنا تجانساً ثقافيًّا وتربويًّا نحن بأمس الحاجة إليه، كي نتحرك وننطلق من قاعدة واحدة، ومن قناعة مشتركة، فإن فقدنا ذلك صرنا حشداً بدون رابط يربطه، أشبه ما يكون بقطار طويل يحمل بشراً من جنسيات مختلفة، وثقافات متنوعة، فلا يجمعهم شيء سوى المكان. فإذا أضفنا لكل ما تقدم ما يفعله الأعداء من تهييج وتحريش مبيتاً، أدركنا ضرورة التذكير بأصول ثقافتنا، طمعاً في إجماع ثقافي متى فقدناه تحولنا إلى هيئة أمم.

لقد حفظ لنا القرآن الكريم واللغة العربية، نوعاً من الوحدة والتلاحم، ويسر لنا الإسلام قاعدة ثقافية، فمتى أهملنا ذلك رجعنا إلى

جاهلية «داحس والغبراء»، وصار لنا على كل شبر أرض «أمير للمؤمنين ومنبر» ونشيد وطني وعلم وإذاعة وتلفزيون، ولله في خلقه شؤون.

٣ ـ مطلوب من كل مجتمع الوعي بذاته، والمعرفة الجيدة لموقعه في سلم الحضارة، مع معرفة طيبة بإمكاناته وتطلعاته، والمشكلات التي تواجهه، والآفاق البعيدة والقريبة التي يتطلع إليها، إضافة لإدراك جيد للتناقضات التي تحفل بها حياته.

كيف نستيطع اكتشاف ذلك؟ وما المرجع؟

لابد من معرفة جيدة بالثوابت والمتغيرات عندنا، والتي يمكن أن تمدنا بإطار ثقافي معرفي، لننطلق منه.

والمجتمع في سيره، ومع تطاول الزمن عليه، يحتاج إلى تحديد لاتجاهاته، والوعي يتكفل بذلك، كما يعمل الوعي الذاتي على تحديد المشكلات أولاً، ثم يقوم بتصنيفها، حسب سلّم الأولويات.

والمجتمع صاحب الوعي بذاته، يدرك جيداً خطورة الانحرافات السلوكية، التي تدب فيه، لذا يسارع إلى محاصرتها، وهنا يبرز دور «الحسبة» من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يسمح بأن يكون المنكر معروفاً، ولا المعروف منكراً.

كما يحاول المجتمع العمل بجد، لتجاوز الشطحات الفردية المخلة بانسجامه، والشاذة والمنافية لتوجهه العام.

فإذا ضعف الوعي، نشطت الانحرافات، كما تنشط الأمراض في الجسم الضعيف.

لذا فكل سقوط حضاري، يسبقه سقوط وفساد يدب في نفوس الناس، حتى تسقط الصفات الجيدة، ويحل مكانها صفات سيئة، ويتحول المجتمع من العناية بالجوهر، إلى العناية بالعرض والمظهر، ومن الصدق

والصراحة والشجاعة، إلى النفاق والتملق والكذب. وعلى المجتمع أن يميز بشكل واضح بين ما هو أصلي وما هو فرعي هامشي، فيسمح بتطور الفرعيات والهوامش، ليجعل منها وسائل لإثراء المجتمع، وعدم جموده أو تحجره، ويسمح هنا بقدر كبير من الحرية، ولا يفعل مثل ذلك في الثوابت، من عقائد وعبادات وأحوال شخصية. عليه أن يتشدد في وحدة العقيدة، حفاظاً على وحدة المجتمع، وأن يتسامح في الفرعيات وقضايا الخلاف والجزئيات، وأن يراعي ـ بشكل واعٍ ـ ما يختلف باختلاف الأعراف والأزمان والأماكن. وهو في كل نشاطه يميز بين الجوهر والعرض.

وعليه فوق ذلك أن يعمل جاهداً لبلورة ثقافة أبنائه، ففي المجتمع الواحد هناك ألوان من المعرفة، فهذا يعرف أمور الدين، وذاك يعرف قواعد اللغة، وثالث يعرف الطب، ورابع يشتغل بالهندسة وهكذا، ولابد لهؤلاء من قاعدة ثقافية تجمعهم، وإلا فسنرى الطبيب عندنا أقرب للطبيب في الغرب، والمهندس كذلك، وسيشرق طالب العلوم الشرعية، ليغرب طالب علم الاجتماع والسياسة، ومع الأيام نفتقدالتلاقي والتلاقح.

لذا لابد من قدر مشترك من المعرفة، يجمع المجتمع الواحد. وأرجو أن لا يفهم من كلامي أن ينحصر الوعي بنخبة قليلة، وإنما المطلوب إشاعة ذلك بين أفراد المجتمع، ووسائل الإعلام لا تعجز اليوم عن هذا وأمثاله، إنها اليوم نزرع قناعات تريدها، وتقتل وتغتال أخرى قائمة لا تريدها ولا تحبها.

والهدف الكبير من هذا، ليس ضمان سلامة المجتمع وحيويته فقط، وإنما الهدف الأكبر هو تفادي انقسام المجتمع على نفسه، وخصوصاً أيام الشدة والمحن.

إن مجتمعاً لا يعي ذاته، كوارث صارت إليه ثروة عظيمة، لكنه

يجهلها، ولا يعرف قيمتها، فيضيعها خلال أيام، أو يبيعها بأبخس الأثمان، ومن يجادل في هذا فعليه أن يتذكر كيف ولماذا ضاعت الأندلس، بعد وجود حضاري رائع عمره أكثر من سبعة قرون؟؟!!! كما أرجو وآمل أن يدرس المجتمع الياباني وكيف حافظ ومايزال على وحدته، بل على تقاليده، حتى الغريب منها، كتبت بعض الصحف اليابانية تنتقد «تبول» البعض في الشوارع، مما يثير سخط واشمئزاز السواح، فردت الصحف بلسان واحد: هذا العمل من تقاليدنا، رضي السواح أم سخطوا!!!

وقبل مدة قريبة، وقف رئيس الوزراء الياباني ليناشد شعبه، أن يعمل أقل مما يعمل، ولينفق أكثر مما ينفق، فجاء الرد من الصحف القومية: أيها الرئيس أنت مجنون، فديننا يعلمنا أن نعمل كثيراً وننفق قليلاً، وأنت تطالبنا بعكس هذا.

٤ ـ حياة الناس في أي مجتمع تكون أفضل وأرغد، حين يكون التواصل جيداً، والترابط قويًا، فإذا تقطعت الأواصر، وصار كل إنسان يعيش لنفسه، فلا روابط اجتماعية قائمة، ولا روابط عائلية سائدة، فالحياة تفقد طعمها ورونقها.

المجتمعات الغربية فقدت دفء العلاقات الاجتماعية، كما فقدت التضامن الأخلاقي، الذي يحتاجه الإنسان دوماً وأبداً، لقد تقطعت الأرحام، وتجمدت العواطف.

لي صديق له زوجة في دولة غربية، تعاقد للعمل سنوات في بعض دول الخليج، وكانت المرأة موظفة، فبقيت حيث هي، وكان يعيش على بعد أمتار منها والدها، وحيداً فريداً، إلا من كلب يؤنس وحدته، ومع ذلك فلم تحاول البنت العيش مع والدها، ولا تحول الرجل العجوز للعيش مع ابنته، مع وجود بعض الأخطار من سرقة ومرضى مفاجىء.

إن الحياة في الغرب تسودها المنفعة الخاصة، وتتحكم فيها الفردية، على صورة بشعة من الأنانية، وكان من ثمرة ذلك، تعاظم الشعور بالملل، وفقدان اليحاة لطعمها، إلى جانب الخوف والقلق، وصار الهم الأكبر للكبار: كيف يقضون بقية أيامهم وأين؟؟ قابلت شابة ألمانية، تحولت من النصرانية إلى الإسلام، رأيناها في مكتبة في استنانبول، ودعوناها لزيارتنا، لبت الدعوة بحرارة، ثم كانت تتصرف وكأنها أحد أفراد العائلة، تدخل المطبخ، وتعد الشاي، وتفعل هذا وغيره ببساطة وعفوية، وكانت تقول: أنتم أهلي وأخوتي، لقد جمعنا الإسلام والإيمان، سألتها: ماذا تشعرين بعد أن هداك الله للإسلام؟ قالت: كنت أعيش قلقة خائفة، أضع رأسي على الوسادة فلا أنام إلا بعد ساعات، أفكر في المستقبل وماذا ينتظرني، فلما حباني الله بالإسلام، استراحت نفسي، وفارقني القلق، وصرت آمنة مطمئنة. ثم زادت: لي والدة تعيش في مكان وأعيش في مكان، وقد اعتدت زيارتها بالمناسبات، وبعد اتصال تلفوني. وهكذا نعيش في الغرب عموماً.

ومجتمعاتنا الشرقية الإسلامية، رغم كل ما أصابها من عطب وتخلف، مازالت في عافية وخير من ناحية التواصل الاجتماعي، والترابط العائلي، والتضامن الروحي والأخلاقي.

إن المؤسسات الخيرية والوقف، مازالت تسد الكثير من الخلل الناجم عن النظم الاقتصادية القائمة، والتي مازالت تقلد النموذج الغربي وتتأثر به، بل تعيش أزماته، ويطلب إليها المشاركة في فكها، ولو على حساب أبنائها.

والمطلوب اليوم، وبشكل ملح أن نزيد من تواصلنا، ونحسن من وسائل ذلك التواصل، فننشط الجماعات الخيرية، وجمعيات الزكاة والوقف والإغاثة، وأن نقوم بسن النظم التي تجسد الرعاية الاجتماعية، ونبرز

القدوة الحسنة في ذلك، وأن نتوسع في بناء المؤسسات الخيرية، التي تعمل بصدق، في ميدان التراحم والتعاون على الخير والتقوى، وتربية أولادنا في البيت والمدرسة على ذلك، وتدريبهم عليه عمليًا. وأن تقوم وسائل الإعلام بالتشجيع على ذلك، حتى نتمكن من تحصين مجتمعنا من أمراض الحضارة الغربية، خصوصاً في هذا المجال، وليس ذلك بالأمر الصعب، متى صحت النيات وخلصت، والوقاية خير وأفضل من العلاج.

٥ ـ يقدم الغرب حضارته على أنها وارثة الحضارات كلها، وقدر العالم الذي لا مفر منه، ويوصف كل متمسك بحضارة أو ثقافة، بأنه معادٍ للغرب وحضارته، ولصديقنا اللدود إسرائيل جهود معروفة في هذا الميدان، فهي تصف المسلمين عموماً والعرب خصوصاً بأنهم أعداء ألداء للغرب وحضارته، وهي الصديق بل العاشق لهذه الحضارة، المدافع عنها، وهي فوق هذا «واحة الديمقراطية»، ولا يملك الإعلام الغربي إلا أن يؤمن على ذلك!!!

إن هذا الطرح يعني قطع الطريق علينا، ومنعنا من امتلاك نماذج تربية وتنمية خاصة بنا.

وهكذا صار كثير من المخططين لنا، مجرد وكلاء ومسوقين للنموذج الغربي، ليس في التنمية فقط، بل في كل شؤون الحياة، من الأفكار والمعتقدات، إلى الملابس ووضع السلاسل في الرقبة للرجال، حتى الحلاقة وتصفيف الشعر، وموديلات الأحذية، مما له علاقة بالتقدم والتنمية، وما لا علاقة له بذلك. وهذا التوجه متى تعاظم وتواصل مده، سيؤدي دون أدنى شك، إلى الإجهاز على الثقافة المحلية، وطرحها ونبذها، وعندها تذهب معالم الشخصية الوطنية عندنا، لتحل مكانها شخصية مهزوزة، لا شرقية ولا غربية، خرجت على فطرتها، وهجرت أصالتها، وفي ذات الوقت

لم تندمج بالغرب وحضارته[1] ، والسؤال: ما الحل؟ وماذا نعمل؟

والواجب يقتضي المسارعة في القيام ببناء نموذج لكل مجتمع إسلامي، يلاحظ الخصوصية بشرطين اثنين: لا انعزالية مغلقة، ولا إعجاب بالنفس (نرجسية) متعالية.

وهذا لن يحصل قبل توفر قدر من تيسير الله، ومراقبته، وعدم التعالي على غيرنا، لمجرد كونهم فقراء ونحن أغنياء.

كما يتطلب الأمر العمل بصدق، لإيجاد نوع من التكامل بين المجتمعات الإسلامية، وتداول الخبرات بينها، دون تعالٍ ولا مباهاة أو احتقار، ليكون هذا بديلاً عن الارتباط بالمجتمعات الغربية، ذات الثقافة المناقضة لكثير من قيمنا ومفاهيمنا. ولن نحصل على ذلك بقرار من سلطان، ولا بالتمني، ولكن الأمر يحتاج إلى رؤية واضحة، وعزم صادق، ووعي جيد بالذات وبالإمكانات، وبالتنازل عن كثير من الرغبات.

إن لنا في اليابان عبرة، ذلك البلد الشرقي، الذي سبقناه في الاتصال بالغرب نصف قرن، ومع ذلك، فقد خطط بشكل جيد لما يريد، لقد أراد من الغرب علومه ومعارفه، نظمه السياسية والاقتصادية، لكنه احتفظ بنظاميه التربوي والاجتماعي، فظل الترابط قويًا، والولاء للأسرة والشركة أقوى.

وإن كان لحقه ما لحقه من أمراض الحضارة، فبنى ـ على سبيل ـ المثال قوة اقتصادية رأسمالية، مع قوة عسكرية قوية، فأدركته الرغبة بالاستعمار، حتى راح، ما بين الحربين العالميتين يتوسع ويتوسع، حتى استعمر جنوب وشرق آسيا كله، وفعل ما فعله الاستعمار الغربي، علماً بأن

---

(١) أكتب هذا البحث في مدينة (يلوا) التركية، وأرى مصداق ذلك في كثير من البنات المراهقات، وقد كشفت عن بدنها، حتى الصرة وغطت القليل، تقليداً للبنات في الغرب.

تاريخ اليابان بطوله لا يعرف الاستعمار، ولا قَبِلَ الاستعمار.

والدرس المستفاد ـ من تجربة اليابان ـ أن من يقلد حضارة الغرب، تضربه أمراضها، ومن يتجنبها فقد يسلم من تلك الأمراض.

ولكن ماذا نقول لإنسان ـ منا ـ يقول أريد حضارة الغرب، حلوها ومرها، وآخر يقول: نريد حتى الجراثيم التي في أمعاء الإنسان الغربي؟!!!

هنا تكون القضية ولهٌ وعشق، والعاشق لا يعرف المنطق ولا يخضع له، بل لا يرى في معشوقه إلا الكمال والجمال، وأشهد أن بعض أبنائنا يعشق الغرب، فلا يفرق بين تينه وعجينه.

٦ ـ مما نتطلع إليه بجد وشوق، أن تكون العلاقات بين أفراد مجتمعنا قائمة على التعاون والتفاهم ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾. (المائدة: ٢).

كما نأمل أن يكون الإقناع والمجادلة بالحسنى ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾. (النحل: ١٢٥). من سمات مجتمعنا.

فمن المعروف أن المجتمع متى حدد أهدافه بوضوح، وبين الوسائل للوصول إلى تلك الأهداف، كما حدد محاوره التربوية، وأشاع روح التضحية والتعاطف، المفروض في مثل هذا المجتمع أن يكون قادراً على إقامة علاقات سليمة، بحيث يتمكن كل إنسان أن يصل إلى حقه بسهولة ويسر، كما يضمن ـ مثل هذا المجتمع ـ التعاون والاقتدار على تطوير نفسه، وحل ما يصادفه من مشكلات وعقبات، دون حاجة إلى استخدام العنف أو التسلط، أو حتى التهديد بذلك.

فإذا كانت أجهزة الشرطة والأمن سليمة، وإذا كان القضاء عادلاً نزيهاً، بحيث يستطيع كل مهضوم الحق أن يأخذ حقه بسهولة ـ ودون

واسطة أو دفع مال أو كرامة ـ فلماذا يلتجىء إلى العنف، بل لماذا يفكر فيه؟ وإن مارسه فلابد أن يكون مريضاً يحتاج إلى علاج، وقد يكون العلاج صارماً، كأن يقتل أو يسجن.

ولكن المصيبة الكبرى حين تسدالطرق ـ كل الطرق ـ أو يصير الحال كما قال الشاعر: (إذا كان خصمي حاكمي كيف أفعل؟). إذا سدت الطرق، ولم يبق سوى طريق الصدام فماذا يعني؟؟ إنه يعني أن خللاً كبيراً قد أصاب أساليب التربية الاجتماعية، كما يعني فقدان التفاهم، وانقساماً كبيراً حادًّا في الثقافة، بحيث تحول المجتمع الواحد إلى «جزر» معزولة لا تواصل بينها.

وهكذا تكون التربية الاجتماعية، قد سجلت فشلاً ذريعاً، فبدلاً من دمج «الشرائح» الاجتماعية في إطار واحد شامل، وتوجيهها وجهة واحدة، صار المجتمع حشداً لا يجمعه إلا المكان، وهنا يموت الولاء، وتحيى وتنتعش العصبيات والولاء للجماعات الصغيرة، وربما الثقافات المضطهدة، وجماعة الأقليات.

مما هو جدير بالذكر والملاحظة، أن الترابط الاجتماعي، شديد الإرهاف والحساسية لكل ضغط يوجه، كما أن طبيعة القيم ـ بشكل عام ـ تأبى وتنفر من الإلزام، لكن تعمل بشكل جيد من خلال القناعات والجاذبية الخاصة.

لذا فإن مجتمعاتنا ـ نظراً لما تعانيه منذ مدة ـ فهي بحاجة إلى مداراة كبيرة، كما هي بحاجة شديدة إلى حل مشكلاتها، التي أزمنت وتطاولت، وذلك عن طريق فكر مستنير غير انفعالي، مع بذل سخي، يستهدف أهله وجه الله وثوابه، شعارهم في ذلك: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المتقين﴾. (العنكبوت: ٦٩). فإن أهملت أمور المجتمع

وأزمنت، وتطاول حل المشكلات، وكثرت «الاحتقانات» في المجتمع دون علاج، سوى رفع العصا، عندها سينسحب جماعات ـ صغيرة أو كبيرة ـ من المجتمع ليتحولوا إلى معاول هدم فيه وفي أصوله، وعندها ستقوم فلسفات وفلاسفة لتبرير ذلك، وهنا يدخل العدو ويرمي بثقله، على أمل تفجير المجتمع من داخله، بدلاً من الهجوم عليه من الخارج. . إن الانفجارات الداخلية أخطر على المجتمع من الغزو الخارجي، فالغزو الخارجي يوحد المجتمع، أما التشققات الداخلية فتهلك الكل، وتقضي على المجتمع .

من التاريخ

ومن ذاكرة التاريخ ـ والتاريخ ذاكرة البشرية ـ أستمد أمثلة فبعد استشهاد الخليفة عثمان، أصيب المجتمع بشروخ، تسببت في حروب أهلية، فتوقف الفتح، وصارت الأمة الواحدة أمماً يقول شاهد عيان: صار الناس فرقاً، عليّ في الكوفة، ومعاوية في الشام، وفرقة في مكة والمدينة، ليسوا مع هؤلاء ولا هؤلاء، وهم خير الناس.

وقبل سقوط بغداد، على أيدي التتر، شهدت اقتتالاً بين الحنابلة والشيعة، وفي الأندلس تمزق المجتمع، لدرجة أن يحارب المسلم أخاه وابن عمه، إلى جانب الأسبان، وقد أطل يوماً مقاتل من أعلى سور مدينته المحاصرة، والتي يضربها الجوع، فهاله وجود مسلمين إلى جانب الجيش الأسباني فقال: والله إن ما رأيت لأشد عليّ من الحصار والجوع. واليوم تقوم إسرائيل في وسطنا، تغتصب الأرض، وتطرد أهلها، وتستذلهم وتقهرهم، ثم لا نزيد على طلب السلام أو الاستسلام، (يرضى القتيل وليس يرضى القاتل)!! إنه التشرذم والخوف وفقدان الثقة، وإلا ففي كل الموازين لا يمكن أن تقوم إسرائيل، رغماً عن ألف مليون مسلم وعما يزيد عن ربع مليار عربي، ولكنهم ملايين «الغثاء» التي وصفها صاحب الرسالة قبل ألف وأربعمائة عام، وإلى الله المشتكى.

٧ ـ واقع مجتمعاتنا بحمد الله ـ الذي لا يحمد على مكروه سواه ـ تسعد العدو، وتجلب لأهلها الحزن والهم، ومع ذلك، فالحل السحري لا يكمن بتذكر الماضي والمباهاة به، أو التحسر والبكاء عليه، كل هذا لن يغير شيئاً، مهما صغر أو كبر، كما أن البحث عمن ألحق بنا كل هذا من أبنائنا لن يفيد،

إلا إذا كان للعبرة والعظة.

إن المطلوب على وجه اليقين هو التطلع للمستقبل واستشارفه، والترفع على الواقع دون تجاهله.

المطلوب لون من الاستعلاء النفسي، وتحرير الفكر من ضغوط الواقع وما يحمله من يأس وقنوط، فالإرادة الحرة القوية بإمكانها أن تجعل من بعض الهزائم عوامل نصر، كما يمكن للقيادات الجادة الجيدة «الكارزمية» أن تقود المجتمع إلى تجاوز ما يعانيه والتوجه نحو انتصار، والانتصار يجلب الانتصار، والهزيمة تلد الهزيمة.

حين توفي رسول الله ـ عليه السلام ـ حدث فراغ كبير، ارتد العرب بعده، فلم تبق سوى مكة والمدينة، فشمر أبو بكر رضي الله عنه سواعد الجهاد، فأرسل أحد عشر جيشاً في وقت واحد، كان النصر حليفها جميعاً، وكان لابد أن تحدث خلال ذلك أخطاء وتجاوزات، تبقى تلوكها الألسن، لكن الخليفة عرف كيف يعالج ذلك، فأصدر أوامره بالتوجه لحرب أكبر إمبراطوريتين في العالم، الفارسية والبيزنطية، فلم يعد يشغل أحداً شاغل سوى الفتوح. وحين وصل صلاح الدين لسدة الحكم، وجد ولايات متناثرة متناحرة، ووجد الصليبيين يحكمون القدس وبعض المدن، فقرر جمع الأمة على الجهاد والقتال، وليقود ذلك بنفسه، فجاء بما يشبه المعجزة، وفعل «قطز» مثل ذلك بالتتر، وصنع بعض عساكرنا «المتسيسة» أكبر هزيمة لنا في حزيران ١٩٦٧م، وجللونا بعار الهزيمة، وقد سألني يوماً طفل لي صغير: هل الله قادر على كل شيء؟؟ فلما قلت له نعم قال: هل قادر على هزيمة إسرائيل؟؟

إن الهزيمة وصلت إلى أعماق وقلب هذا الطفل، وهو اليوم يقول: أتمنى أن تكون لي يد في هزيمة إسرائيل، وأنا أدعو الله له أن يحقق حلمه.

بقي أن أشير إلى أن الحرب من طبيعتها، وجود منتصر ومنهزم، ولكن مما يحز في نفسي، بل يقتلني ألماً، أننا صرفنا الأموال على جيوشنا، وقدمنا لأفرادها من الخدمات ما لم نقدمه لفئة في المجتمع، فإذا بهم حيث وجهناهم ينهزمون، ويتركون واجبهم، ليقفزوا بليل فيستولوا على السلطة، ومى وصل أحدهم إلى هذا الكرسي السحري فلن يغادره إلا إلى القبر.

أذكر أن عبدالكريم قاسم اجتمع إلى نقابة المحامين، فكان مما قال: لقد قدمت إلى وزارة الدفاع ـ وكان يسكنها ويدير عمله من هناك ـ على ظهر دبابة، ولن أخرج إلا على ظهر دبابة، وقد حدث وصدق ما قال. وأحسب أنه ما من عسكري (متسيس) إلا يقول هذا في نفسه، وإن لم يجد الشجاعة ليقول ذلك بلسانه. ولا أنسى أننا لسنا المنهزم الوحيد ـ ولكننا ممن توالت عليه الهزائم ـ ففي الحرب العالمية الثانية، انهزمت اليابان وألمانيا وإيطاليا، ولكن الهزيمة لم تصل إلى القلوب، فعقب الحرب مباشرة، دخل قائد أمريكي جامعة ألمانية، واستمع إلى مدرس يلقي محاضرته، فقال بعجرفة المنتصر بعض الملاحظات، فالتفت إليه الأستاذ وأسمعه كلاماً، لن ينساه ما دام حيًّا، قال بعزة وكرامة: لم يأت بعد الزمن الذي نتعلم فيه من رعاة البقر، ثم واصل محاضرته. واليوم تقف ألمانيا واليابان في المقدمة، كل ذلك بعزيمة الرجال، وتوحيد الشعب، والعمل الجاد ليل نهار.

مثال رائع من فيتنام

وهناك شعب فقير في فيتنام، معه أسلحة يأكلها الصدأ، لكنها تملك قائداً «غير متسيس» هو الجنرال (كياب) لم يره شعبه «يردح» في الإذاعة، يسب هذا الحاكم، أو يذكر لحيته أو أمه، الجنرال كياب ـ والذي لا يصل وزنه إلى خمسين كيلو ـ وقف وقاتل اليابان وجيشها حتى انتصر، ثم قاتل الجيش الفرنسي حتى انتصر عليه، ثم جاء الجيش الأمريكي بكل ثقله، وما يملك من أداة دمار وحرب، فهزمهم «كياب» وأخرجهم يجرون خلفهم عاراً لن ينسوه أبداً، وإن راحوا اليوم يتناسوه. الجنرال كياب وشعبه المتخلف الفقير أثبت حقيقة، يعمل عسكرنا المتسيس على اغتيالها وهي: إن الحرب إرادة قبل أن تكون إمكانية، والبعض عندنا كان له إمكانية بلا إرادة، فلم يقاتل. الحديد تحركه الرجال، والنقص في الحديد يمكن أن تجبره الهمم العالية للرجال، ولكن ما العمل إذا تكدس الحديد، ولم نجد إرادة القتال؟؟

ما الحل إذا هجر الضابط العسكرية، وعشق كرسي الحكم، ولو على «خازوق»؟؟

ما الحل إذا صار هدف الجيش الحكم والمغانم المادية، وليس قتال العدو؟؟

ما الحل إذا صار الجيش «طبقة» خاصة لها مصالحها الخاصة ومغانمها الكبيرة، بحيث لا يستطيع إنسان أن يقيم مشروعاً إلا إذا كان مدعوماً بضابط كبير؟؟

ما الحل إذا كان الجيش لا يريد لبعض الحروب الأهلية أن تنتهي، لأنه أكبر مستفيد منها، بل يبيع بعض الأسلحة للمتمردين؟؟

وعود إلى الموضع أقول ـ وفي القلب أشياء يشيب لها الولدان ـ لابد أن نفهم واقعنا بموضوعية، ونتعامل معه بتعقل، فالحماس والاندفاع لهما مكان آخر، فإذا وفقنا لتشخيص الواقع، تشخيصاً دقيقاً، وسمينا الأشياء بأسمائها، ثم قمنا باستخلاص عوامل التقدم والقوة، من ركام الواقع والتراث، تحركنا ونحن نعتقد أن الفرصة سانحة لمن يريد التقدم، ومثلها وفوقها لمن يعشق التخلف، وليس من الصدق أن نقول لقد تقدمنا العالم فمتى نلحق بهم؟؟ فإن كنا عاجزين عن إنتاج طيارة أسرع، أو طرق مواصلات أفضل، أو سيارة أسرع وأقوى، فإنا نملك بضاعة لا يملكها أحد سوانا، نملك هداية الله وكتابه وسنة رسوله، وقد قال (رامزي كلارك)[1] لبعض الشباب المسلم، منذ أيام: إن العالم يخاف الإسلام، لأنه يملك عقيدة قوية سليمة، يمكن أن تنهض بالمسلمين، لذلك يحاربها الكل، والضعيف لا يجد من يذكره ولا من يحاربه.

إن الدنيا ـ في نظرنا ـ دار ابتلاء، والآخرة دار جزاء، وليس بقدرة أحد إلا الله أن يغير من هذه الحقيقة.

فإذا استطعنا أن نرتفع باستجابتنا، بحيث تصل إلى حجم التحديات التي تواجهنا، تقدمنا، ولن يستطيع أحد أن يعيقنا، وإن كانت التحديات كبيرة، والاستجابة ميتة أو ضعيفة، راوحنا في مكاننا، أو سرنا ولكن إلى الخلف، وهذا الخلف قد يكون الكارثة.

نريد التقدم ونعمل له بجد وإخلاص، كما يريد التاجر تنمية ماله، لكننا لا نعتبر التقدم في نفسه هدفاً وحيداً، ولكن يهمنا ما بعد التقدم. ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾. (الحج: ٤١).

---

(١) وزير عدل أمريكي سابق.

التقدم شيء عظيم، ولكن تحميله بهدف كبير، يجعله أكثر من عظيم. لقد تقدم الغرب على العالم، إلا أن تقدمه صار وسيلة لاستعباد آخرين، وسرقة ونهب خيراتهم، ومنعهم ـ في أحيان كثيرة ـ من التقدم، كي يظلوا سوقاً للغرب ومفتاحاً لأزماته ونكباته، فهل يشكل هذا الهدف قضية مشرّفة، أو مشروعاً إنسانيًا يمكن لصاحبه أن يتحدث عنه بصراحة؟؟!!

أن يتقدم شعب من الشعوب، فيخدم نفسه أو أمته أو العالم، يأخذ بيد هذا، ويعاون ذاك، أو يدل الناس إلى طريق الله فنعم، ونعمة حال.

وأن يتقدم ليزيد من غنى شعبه الغني، على حساب شعب فقير، فلا وألف لا!!

إن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً، تمتن على بعض الدول، لأنها تقدم لها مالاً، بشروط ثقيلة معروف، فإذا بحثنا في طعام القطط والكلاب، وجدناها أضعاف هذا العطاء المشروط الممنون، بل نجدها تعطي باليمين، لتسحب من آخرين بالشمال، وهكذا تفعل أكثر من دولة غربية.

لقد مررنا في تاريخنا الطويل بثلاثة أدوار، الدور الأول قبل الإسلام، كنا قبائل متشاكسة متحاربة، يغير بعضها على بعض، تدخل في حرب مدة عقدين، لخلاف نشأ حول سباق فرس وحصان «داحس والغبراء» أيهما سبق؟ ثم جاء الإسلام فوحدنا ودخلنا التاريخ، ولا رأسمال لنا سوى الإسلام، فسدنا العالم، ورفعنا مشعل الحضارة قروناً بحق وجدارة، وفي الدور الثالث ابتعدنا عن الإسلام فهماً وتطبيقاً، فرجعنا إلى أيام «داحس والغبراء»، وكما قال الخليفة العادل الزاهد عمر رضي الله عنه: إن الله أعزنا بالإسلام، فإذا ابتغينا العزة في سواه أذلنا الله.

إن بعض أبنائنا ـ بحسن نية أو غيرها ـ يريد أن نتقدم، ولكن بعيداً عن الإسلام وهديه، وأقول لهؤلاء: منذ نهاية الحرب العالمية الأولى ونحن

نجرب، أو يجرب فينا وعلينا، تجارب من مبادىء ونظم، بحيث لم يبق شيء لم يجرب علينا، وكانت الحصيلة ما نرى، فلماذا لا نحاول بصدق أن نطبق الإسلام تطبيقاً سليماً، وأن نفهمه فهماً سديداً؟؟

لقد جربنا ألف تجربة، حتى حفيت منا الأقدام، فلتكن تجربة الإسلام هي الواحدة بعد الألف. أنا أعرف أن البعض عنده أجوبة جاهزة ـ مثل الأطعمة الجاهزة ـ وسيقول لي: تريد التجربة الأفغانية أم الإيرانية أم ماذا؟؟

فأقول بصدق وإخلاص: كل إنسان يتحرك يمكن أن يخطىء ويصيب، أما من لا يتحرك ولا يفعل شيئاً فهو مبرأ، وقد جربت دول الاشتراكية، الرشدية وغير الرشيدة، فأفقرت البعض، على حين ملك البعض الملايين، وحكمت الشيوعية روسيا ودول أوروبا الشرقية سبعين عاماً، وحكم العَلمانيون هنا وهناك عقوداً، وحكم القوميون مثل ذلك، فهل سقطت الاشتراكية والقومية والعلمانية، أم السقوط يجب أن يكون من نصيب الإسلام وحده لخطأ أو أخطاء، صغيرة أو كبيرة وقعت؟؟

في السياسة والطب والهندسة، وفي كل مناحي الحياة، تقع أخطاء، فإذا كان كل خطأ يترتب عليه منع، فالديمقراطية والرأسمالية والحزبية والقبلية والعنصرية والإقليمية، كلها لم تنج من غلط بسيط أو قاتل، فلماذا جرى ويجري تحريم الإسلام فقط؟؟

إن «السادة» هم الذين يريدون إبعاد الإسلام، وهم الناقرون على الدف، بينما يرقص بعض أبنائنا وكأنهم في حفلة «زار».

٩ ـ تعلمنا أن نتائج الامتحانات الطبيعية تكون بحصول فئة صغيرة على الامتياز والدرجات العالية، وحصول مجموعة مماثلة على درجات قليلة، وتكون الكثرة بين الامتياز والإخفاق.

في المجتمع المعافى من أمراض النرجسية الرأسمالية، وشطحات

الاشتراكيـة، ينقسـم المجتمـع إلى ثـلاث شرائـح: واحـدة كبيرة واثنتين صغيرتين. قلة غنية، يقابلها قلة فقيرة، وشريحة وسط هي الأكبر من الاثنتين معاً، فإذا سادت الرأسمالية بشكل مفتوح بلا قيد، توسعت شريحة الأغنياء، بحيث لم تترك لغيرها شيئاً.

وإذا طبقت الاشتراكية ـ خصوصاً العربية العسكرية ـ افتقر الكل سوى الطبقة الحاكمة، ومن يخدمها ويلوذ بها من كبار «الحرامية». في الحالة الأولى يتحول المجتمع إلى شريعة «السمك» حيث الكبار تلتهم الصغار، فلا الصغير يدفع ولا الكبير يشبع!!!

وفي الحالة الثانية يصير الهدف نزع الأموال من أهلها، وإفقار الكل مخافة الثورة.

ثم تستأثر الطبقة الحاكمة ـ ومن يلوذ بها من أئمة النفاق ـ بكل شيء. وقد قفز عدد أصحاب الملايين قفزاً مخيفاً، في بلدان عربية فقيرة تدعي الاشتراكية، لكنها في الحقيقة تشرّع السرقة والانتهاب ليس إلا. المتابع للمجتمع الإسلامي منذ قيامه، يجد أن الشريحة الوسطى بقيت الأكثر عدداً، والأفضل في الالتزام الخلقي، والتمسك بالقيم. المجتمع يحتاج إلى نوع من التوازن، بحيث لا يسمح بتحول المال إلى يد حفنة، تتحكم في أقوات الناس وكرامتهم، وقد نبهنا الحق لهذه الخطورة حين قال: ﴿كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾. (الحشر: ٧). وهناك معادلة معروفة: المال يوصل إلى الحكم، والحكم يوصل إلى المال، فإذا تحالف الحاكم والأغنياء وتساندا، هذا يسنده ويدعمه بماله، وذاك يستعمل سلطته ليفسح له حتى يحتكر كل شيء، حصل الخلل، وفقد التوازن في المجتمع.

إن الخلل الاقتصادي يهدد المجتمع بمخاطر كبيرة، ربما كان على رأسها الانفجار الاجتماعي، وثورة الحقد والحسد، فإذا لم يجد ما يسد

جوعته، وما يعلم به أولاده، صار الفقير ذليلاً ضعيفاً، أو ثائراً متذمراً، وهو يورث ذلك لأبنائه، كما أن المكانة الاجتماعية تتأثر بالفقر، فالإنسان يصعب عليه التقدم، مع الفقر «الأسود» وكل هذا يحدث شروخاً في المجتمع والثقافة، فتروج سوق الحقد والحسد، والتطلع للانتقام، إلى جانب التذلل والخوف من المستقبل، وفقدان الأمل.

في الطرف الآخر يدفع الثراء أهله للإنفاق بغير حساب، وعلى أمور شكلية لا قيمة لها، فترتفع الأسعار غالباً، ويطحن الفقراء طحناً، المترف يشعر بالشبع المادي، فلا يفكر بالأهداف العليا، ويحاول بما عنده تجاوز النظم والتشريعات، فينشر طاعون الرشوة، وينجو من الحساب والعقاب، وصدق المصطفى عليه الصلاة والسلام إذ يقول: **«إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الفقير أقاموا عليه الحد»**.

عندها تفقد العقوبة جدواها ومعناها.

ما هو المطلوب؟

والسؤال: ما هو المطلوب؟؟

وأسارع للقول: ليس المطلوب وضع اليد على أموال الأغنياء، ونصب حراس عليهم، ومنعهم من التصرف فيها، ولا سلبهم عقاراتهم تحت مهزلة «البيت لساكنه» كذباً وزوراً.

المطلوب تهيئة الفرص ليعمل الفقير ويكسب، دون عوائق، بل مع التشجيع والتوجيه، ومساعدة أبنائه ليتعلموا ولتفتح أمامهم أبواب الأمل والعمل، والترقي الاجتماعي، ومن واجب الدولة حفظ كرامة الفقير بتيسير فرص العمل، فتلك مهمة الدولة أولاً، ومهمة المجتمع ثانياً.

المطلوب أن تقف الدولة والمجتمع في وجه كل جشع، يريد جمع المال دون السؤال عن الوسيلة، فالمسلم ـ من بين ما يطالب به ـ السؤال عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ كما ورد في الحديث.

إن حكومة تتعامى عن نهب الأغنياء الأثرياء، وكثرة المرتشين الفاسدين المفسدين، تحكم على نفسها بالموت، وبفقدان المبرر الحضاري للبقاء.

أنا أعلم جيداً أنه لن يخلو مجتمع من فقراء وأغنياء، تلك سنة من سنن الله، لكن المرفوض هو انقسام المجتمع إلى طبقتين أو شريحتين: قلة تملك كل شيء، وكثرة فقيرة لا تملك شيئاً، هذا هو الوضع المرفوض، والخلل الذي ينذر بالشر والدمار، ومرة أخرى أستذكر قول ابن حزم ـ وهو من شريحة المترفين ـ عجبت لمن لا يجد قوت يومه، كيف لا يخرج شاهراً سيفه؟؟!!! لست ثائراً ولا فوضويًا، ولا ممن يعتقد بالاشتراكية الرشيدة أو السفيهة،

ولا من وعاظ السلاطين، ولكني ممن يسر الله له السفر، فتنقلت من انكلترا غرباً إلى ماليزيا شرقاً، ومن كيب تاون جنوباً إلى تركيا شمالاً، ورأيت بعيني وبقلبي كيف تحول البعض إلى حوت يبلع، كما تحولت ملايين إلى سمك صغير يُبتلع.

المجتمع وضوابطه

يحتاج المجتمع كي يسير ويتقدم إلى عاملين: إجماع ثقافي ورقابة اجتماعية. الإجماع الثقافي توفره العقيدة الحية، والتنشئة عليها وعلى مضامينها وقيمها. أما الرقابة الاجتماعية فتحكمها مجموعة الأنظمة والأعراف والتقاليد، التي تجعل السلوك العام يسير في إطار، يلفه التجانس والانسجام. وقد بقي المجتمع الإسلامي إلى عهد قريب، يحتفظ بنوع من التجانس والتضامن بفضل العقيدة الواحدة، التي كانت تمد التجانس الثقافي بالزاد، كما ظلت تمد شعلة الحب للمجتمع بالزيت، والرغبة في عدم الخروج على المجتمع وقيمه الكبرى.

فإذا خرج الفرد على مجتمعه وشذ، وتعاطى أقوالاً أو أفعالاً مرفوضة، فالمجتمع يمارس عليه ضغوطه، فإن لم يستجب فهناك العقاب والجزاء. جاء رجل إلى رسول الله ـ عليه السلام ـ يشكو جاراً له يؤذيه، فأوصاه بالصبر، ثم جاء ثانية، وفي الثالثة أمره أن يخرج بعض متاع بيته ويضعه في الشارع، وكلما مر صحابي سأله: لماذا يفعل ذلك؟ أخبره بأصل القضية، وهنا أدرك جار السوء أن سمعته تضررت، فعاد إلى جاره يرجوه ويتعهد أن لا يؤذيه.

فإذا حصل نوع من الانفصام والتباعد، بين السلوك الفردي وبين القيم الاجتماعية السائدة، فهذا مؤشر على وجود نوع من الخلل في الحياة الاجتماعية، وهنا نجد موقفين: مجتمعات لا تهتم بالأمر، ولا تأبه له، فلا تفكر بالعواقب، ولا بتحسين وتفعيل التربية، كذلك لا تعيد النظر في الضبط الاجتماعي. مثل هذه المجتمعات إما أن تكون تجمعات لم يكتمل نموها، وإما مجتمعات مكتملة النمو، وهنا يكون هذا الخلل مؤشراً على

سيرها نحو التحلل. وفي بعض المجتمعات يجري الاهتمام بالتربية، ولكن مع ترك الحرية الشخصية لتفعل ما تشاء.

بعض المجتمعات تسعى إلى الإصلاح من شأنها، لكنها تستخدم العنف، فتكثر من السجون، وتشدد الرقابة على الأفراد، بحيث يسود المجتمع نوع من القلق والتوتر والخوف.

في الطرف الآخر أذكر أن اليابان حين واجهت اضطرابات سياسية، عقب الحرب العالمية الثانية، وسيطرة الأمريكان، فما أن رحل الأمريكان، حتى أعادت النظر في نظمها الاجتماعية والتربوية، وغيرت منها الكثير، فعاد التجانس والهدوء والمحبة للمجتمع الياباني، مجتمع «العائلة الواحدة».

والحل ـ بالنسبة لنا ـ يكمن في ضرورة أخذ القضية من جذورها، ومعالجة السبب وليس العرض، فلابد من العمل الجاد لبلورة العقائد الأساسية، وإشاعة القيم الخيرة، وتوفير القدوة الصالحة من الكبار، ولابد أيضاً من إعادة النظر في التربية هدفاً ووسيلة، كما فعلت اليابان، وكما فعلت الولايات المتحدة، حين سبقتها روسيا بإطلاق صاروخ إلى الفضاء، مما حملها على إعادة النظر في التربية ومناهجها من رياض الأطفال حتى الدراسات العليا. ثم يكون آخر العلاج الكي، وليس أوله. فلابد من عقوبات صارمة ضد كل من يجاهر بأقوال أو أفعال، من شأنها تهديد سلامة المجتمع، أو يتعاطى أفعالاً من شأنها تقويض أسس العقيدة الاجتماعية، وحث الآخرين على ذلك. وهنا لابد أن يكون العقاب واحداً شاملاً، لا يفرق بين فرد وآخر، ولا يفلت منه صغير ولا كبير، ولا مسؤول ولا غير مسؤول.

إن الإسلام يعول على فطرة الإنسان، ويؤمن بالأثر الكبير للتربية والتنشئة الصالحة «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يُمجِّسانه**».

هذا هو الأصل الأول في التربية الإسلامية، أما الأصل الثاني، فهو العقوبة والرقابة الاجتماعية.

ولابد من القول بصراحة وقوة بأن العقوبات بأنواعها (من حدود إلى تعزيرات) لا تنشيء مجتمعاً سليماً، لكنها تحميه وتصونه فقط.

فالحارس لا ينشيء مؤسسة، لكنه يحميها من السرقة ومن الكوارث. فإذا وجدت العقوبات القوية، لكن بدون تربية قويمة صحيحة، ولا ظروف مناسبة صالحة، لإقامة مجتمع خير نظيف عفيف، فهز العصا، واستعمال العنف يمكن أن ينشيء مجتمعاً للعبيد، أو مجتمعاً لثوار يعلنون العصيان في أول ظرف مناسب. فالزجر وحده لا يكفي، والتربية والتوجيه ـ دون ردع ـ لا تكفي، خصوصاً مع المجرمين والشاذين، فلابد من التربية مقرونة بالعقاب، وللأسف فنحن اليوم ـ في عموم مجتمعاتنا ـ نسير على قدم واحدة، فإما تربية مع حرية الانفلات، وإما عقاب بلا تربية صحيحة سليمة، ولن يطير مجتمع بجناح واحد.

لقد مر على عالمنا المعاصر عقوداً، جرى فيها استبشاع عقوبة الإعدام، وصار الإسلام يعير بأنه يأمر بالقتل ويرضى به، فلما تعاظم القتل راحت الدول تعود على تشريع القتل، وأذكر في هذا الصدد واقعتين: دولة آسيوية اسقطت عقوبة الإعدام والقتل، واكتفت بالسجن، وخلال أيام تقدم مجرم فقتل رئيس الدولة، فعادت إلى تشريع القتل، وأراد (عبدالكريم قاسم) أن يلبس «ثياب التقدم» فأعلن الرحمة فوق القانون، ثم أطلق سراح بعض المجرمين، وقبل أن تغرب الشمس، قام مجرم فضرب مواطناً بسكين في بطنه، فأرداه قتيلاً، فأمر (قاسم) بجمع من أطلق سراحه، وردهم إلى السجن. وهكذا تبين أن العدالة فوق الرحمة، وليس العكس.

والحكومة الأمريكية اضطرت لوضع تشريعات جديدة، بموجبها

يمكن لرجال الأمن دخول أي بيت، دون أخذ موافقة سابقة، وبإمكانها إبعاد ـ غير المواطن ـ دون حاجة إلى قرار من القضاء، وكل هذا لأن الحكومة وجدت نفسها عاجزة عن صيانة الأمن، مع وجود تشريعات متساهلة.

ومرة ثانية: يجب أن لا يعول على التربية وحدها، ولا على الرقابة الاجتماعية منفردة، ولا على العقوبات فقط، بل لابد من تكاتف وتعاون الكل، وألا يفلت من العقوبة أحد مهما كان. ومن يقرأ القرآن الكريم، يجد العقوبات قد احتلت مكاناً صغيراً، بينما احتل التوجيه والتربية والترغيب والترهيب، مساحة كبيرة جدًّا، كما استعمل القرآن الوقائع التاريخية، وتفنن في سردها، حتى رأينا الواقعة الواحدة، تعرض كل مرة من منطلق جديد، فظن البعض بأن هذا من التكرار، وليس منه في شيء.

إنه يقول: الأمة الفلانية فعلت كذا وكذا، من الشرور والانحرافات، فأصابها كذا وكذا من العقاب.

وسورة «هود» وحدها، تقص علينا مصير ست حضارات، كل واحدة أصيبت بمرض اجتماعي عضال، هذه تلاعبت بالموازين، وتلك أصيبت بالانحراف الجنسي، وثالثة استهترت بالأمن، وهكذا.

وذات يوم جلس أبو بكر رضي الله عنه، ينظر إلى وجه صاحبه وصديقه رسول الله ـ عليه السلام ـ فقال: أراك شبت يا رسول الله، فأجابه: شيبتني هود وأخواتها.

وبين الأمم التي ذكرتها «هود» وزمنه عليه السلام ألوف السنين، ومع ذلك، فكأنه يقول: ما أصاب تلك الأمم سيصيب أمتي من بعدي، وإلا فمصائب العالم، في القديم والحديث أكبر من أن تعد وتحصى، ولم يتعظ لوقعها أحد، ولا شاب لهولها أحد!!

من معالم المجتمع الناجح

أعتقد أن المجتمع السليم، هو من يعرف أفراده حقوقهم وواجباتهم، فلا يعتدي أحد على حق أحد، ولا يقصر الأفراد في واجباتهم، ومن ثم تقل حاجاته أو تردده على دوائر الشرطة والمحاكم.

وقد عرفنا ذلك جيداً في عهد الرسالة، والخلفاء الراشدين، وأحسب أن من سمات المجتمع السليم كذلك، قلة تدخل الدولة في حل شؤون المجتمع وشكاواه ومشكلاته، كما تكون التربية غير معقدة ولامكلفة، وهو فوق هذا يملك روح المبادرة إلى الخير، وله قدرة على تنظيم نفسه، وإقامة المؤسسات التي تخدمه، فمن خلال مؤسسات الوقف مثلاً، وكذلك الإغاثة، ومن التبرعات الخاصة يبني مساجده ومدارسه ومكتباته، وملاجىء الأيتام وكبار السن.

أما نزاعاته فهو قادر على حلها بالطرق الودية، دون حاجة إلى التردد على دوائر الشرطة والقضاء.

وقد ظلت مجتمعاتنا إلى عهد قريب كذلك، رغم الجمود الذي ابتليت به، والأمراض الاجتماعية الكثيرة العدد.

لي صديق في السعودية، قال مرة أن له أموالاً عند بعض الناس، ـ وهو بائع سجاد ـ قلت ألا تشتكيهم؟؟ قال بعفوية واضحة: نحن نعتبر التردد على دوائر الشرطة عيباً.

وحين يقوم المجتمع بمبادراته تلك، فإنه يحل إشكالات كثيرة، ويربح أموالاً وأوقاتاً، يهدرها البعض في الشكوى ومراجعة المحاكم.

ومن هنا كان «المحتسب» عندنا يقوم بأكبر خدمة، حين يحل القضايا

سريعاً، فيذهب الناس إلى مصالحهم، ولا ينشغلون بالقضاء، ولا يشغلونه.

كما أن نشاط المجتمع التطوعي، يمنح الدولة فرصة أكبر للتفرغ للقضايا الأهم والأكبر، ولكن من أن يصير المجتمع ماديًا حتى يغتصب الأخ حق أخيه، ويسطو الشريك على أموال شريكه، ويتخوف ويتشكك الكل من الكل، ويصير الكل كلاً على الدولة، بحجة أن الدولة قوية وغنية، فيطلب منها الأفراد عمل كل شيء، وهم يتفرجون، ومع كثرة تدخل الدولة، تكثر النزاعات، وتشيع التوترات، وتشيع الرشوة والمحسوبية، يموت الفقير الضعيف، ويستأسد القوي الغني، ومن لا يصدق ما أقول فليقم بزيارة للبلدان الاشتراكية عندنا، أو لروسيا التي طلقت الاشتراكية، ومازالت تضربها أمراضها ضرباً موجعاً، وفي كل مفصل من مفاصل الحياة.

أما البلدان التابعة لها وخصوصاً الإسلامية، فقد وصلت إلى الكارثة، وهي تعيش اليوم على حافة القرن الماضي، والفساد يضرب أطنابه في كل شؤون الحياة، وقد وصفها بعض من زارها، بأن البشر فيها كانوا في بئر، منذ سبعين عاماً، فلما خرجوا لم يعرفوا ماذا يفعلون.

والخلاصة: نريد تحريك همم الناس عندنا، وحفزهم على المبادرة وفعل الخير، من إعادة الحياة للوقف، إلى تنظيم العمل الإغاثي، وإيجاد المؤسسات الشعبية التي ترعى ذلك، وتقوم به، ولا تعتمد على الحكومات، وقد كثرت المبادرات وتنوعت، ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾.

إن إعادة اللحمة إلى مجتمعاتنا، يمكن أن تكون بالعمل الشعبي والمبادرات الفردية، وقد وجدت في تركيا ما يثلج الصدر، خصوصاً في ميدان الوقف وإنشاء المساجد والمدارس، وأعمال الإغاثة، وسخاء التبرع، وقد بني في العالم الإسلامي خلال ربع قرن، من المساجد والمدارس، ما

تجاوز ما فعلناه في قرون والحمد لله، كذلك تقام في الغرب مؤسسات وقفية وتعليمية، ومراكز إسلامية، مما لم يحدث مثله في قرون، فاللهم زد وبارك وسدد، يا سميع الدعاء، والحمد لله رب العالمين.

فهرست الموضوعات

DAR AL-HIKMA
Publishing and Distribution
London